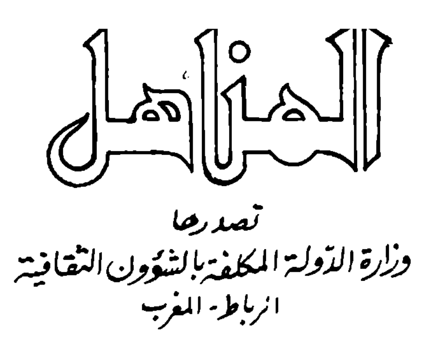
المناهل



4



تصدرها
وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية
الرباط - المغرب

العدد الرابع
السنة الثانية

ذو القعدة 1395
نوفمبر 1975

"المناهل" في عيد الوحدة

يصدر هذا العدد من "المناهل" في حلة

من البهجة والفرحة، بعد الانتصار الوطني الباهر،

الذي حققه بطل المسيرة والوحدة، صاحب الجلالة

الملك العظيم الحسن الثاني، مع شعبه الباسل النبيل

باسترجاع الصحراء المغربية الى الوطن.

انه عدد تعبق صفحاته بالفرحة والاغتباط،

في عيد الوحدة الخالد، الذي يعيشه الشعب المغربي.

المناهل



دنيا المغرب*

عمر أبو ريشة

دنيــا وبين يديهــا تغرق الحقب ... ودون نقل خطاها تنطوى الحجب

حسنــاء كاسيــة آلاء عــزتهــا ... وبعض ما تكتسى من بعض ماتهب

مطافهــا بالجمال البكــر مؤتلــق ... وفيــوءه بالعبيــر الغمر منسكب

وملء آفاقهــا اســراب أخيلــة ... تعلقــت بجواشي ركبهــا الشهب

رمى بي الشوق فى احضان نعمتها ... فكان لي ما اراد العجب والعجب

دنيــا وتجلى امامي فى تطلعهــا ... الى العلى والمدى بالهول مصطخب

وينفذ الغيهب القاسي أنامــــله ... منها ويشهق فى احداقــه الرعب

والعلية الصيد من ابنــائها زمــر ... تجاذبتها على اوجاعها النــوب

مازارها الموت لهــوا فى ملاعبهــا ... الا وكان لهــا فى لهــوه لعــب

---

*) القصيدة التي القاها الشاعر الكبير عمر أبو ريشة فى الامسية الشعرية التي نظمتها له وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية فى قاعتها بتاريخ 18 يوليوز 1975 ، وقد نقلناها عن آلة تسجيل لم يكن فيها صوت الشاعر واضحا كل الوضوح ، وقد سبق للشاعر ان وعدنا بان يبعث الينا بنص القصيدة بعد ان يعيد النظر فيها ويخرجها فى صورتها النهائية .

لذلك ، نعتذر للشاعر والقراء عما يمكن ان يلاحظ عليها .

(المناهــل)

فتلك اجفان روما فوق تربتها ... على النفير من الاشلاء تنتحب

راياتها مزق اسطولها بدد ... وعرشها لوقود المجد يحتطب

وموكب الفتح بالايمان منطلق ... يشد من عزمه الاسلام مختضب

والخيل من حوله فى زهو أوبتها ... تكاد زهوا الى ابراجها تثب

ومن بعيد وفوق اليم اشرعة ... والقيمون عليها فيلق نجب

والاسمر ابن زياد صوب اندلس ... يجرى بها والرياح الهوج تصطخب

جلد وما المارد العملاق منتصب ... لم يحتضن مقلتيه فى السرى هدب

القى على الشط ما ضمت واحرقها ... وليس من بعدها بالربع منقلب

وغاب فى الساح لم ينجز له اربا ... الا وراوده فى غيرها ارب

كتيبة الحق لا يطوى لها علم ... على الجهاد ولا تنبو لها قضب

دنيا واجواؤها الزهراء مترفة ... بطيب ما انتقي منها وانتخب

نمت بها القيم المثلى وعايشها ... انسانها غاليها راح ينتسب

من كل سابر اغوار يبدد ما ... يمضي به الشك أو تأتي به الريب

بلا الحياة واعطاها كرامتها ... فما استخف بها عجز ولا رهب

ومنهل ابن طفيل كيف سلسلها ... وكيف روادها من فيضها شربوا

وكيف فض ابن رشد فى تنقله ... ختم الغيوب ولم يلهث به تعب

مواكب من هبات شاء واهبها ... ان لا يكون لها فى الاخذ محتسب

اقلب الطرف فى شتى روائعها ... فيرجع الطرفوهو الظامىء السغب

وأسأل القلب عن ينبوع حكمتها ... فيشرئب الي العلم والادب

تلك الرسالات كم فاضت بكل حجى ... كأنه من ضمير الوحي منسرب

تلك المزامير كم غنى الفتون بها ... ولم ينز بما غنى لها قصب

تلك المحاريب كم رصت جوانحها   وشيا وكم شمخت من فوقها القبب
حضارة رقدت فيها السيوف على   اغمادها وافاقت فوقها الكتب
دنيا ! وابهت والتسآل ينبض فيحد   سي ودمعتها بالصمت تنسكب
وخنجر الغدر رعاهم وطعنتها   فى صدرها العلوي السمح تصطخب
من هم عبيد البخاري؟ كيف جيءهم؟   واي مركب خزي فوقه ركبوا ؟
ارث الرشيد واسماعيل من هبة   الامجاد فى ظلهم تطوى وتنحجب
وللدياجي انسياب فى معالمها   وللجهالة فيها المعقل الأشب
فريسة اطمعت فيها الغزاة   من الغرب الحقود ولم يعوزهم سبب
فيمموها وكل فى غوايته   وختله بنقاب السود منتقب
حتى اذا انزلوا فيها رواحلهم   شابوا جياعا وماعفوا ولا احتسبوا
فكان ما زيفوا منها وما مسخوا   وكان ما شوهوا منها وما نهبوا
واطلقوا البغي فى اعقابها فهوت   ولفح انفاسه فى كبرها لهب
دنيا وسفر اسالها المر تحت يدى   وخافقي شارد فيه ومكتئب
وسلني من ذهولي همس امنية   حن الشريد اليها واشتفى التعب
فلاح لي فارس جلت مهابته   كأنه لقضاء الله منتدب
سالت من هو قالوا ذو الفقار له   سيف واحفاد طه اهله النجب
هذا محمدها فراج محنتها   فقلت : كيف ؟ ودون المحنة العطب
والغاشمون لهم فيها مسارحهم   وفى المسارح من انصابهم صخب
والظلم مصطرع والبغي مجتمع   والشمل منصدع والحي منشعب
وقفت ارقب فيه كل بادرة   وما تململت فيما كنت ارتقب
اطل من غضب الايمان منتضيا   ما شاء ان ينتضي الايمان والغضب

توعدوه فما اجدى وعيدهم ... وطالبوه فما اغنى لهم طلب

ولم يساوم ، ولم تغمد شكيمته ... ولم يكن لرخيص الحكم ينجذب

فغربوه عن الربع الحبيب وما ... كانت طيوف هداه عنه تغترب

اغفى على جرحه احرار أمته ... ثم استفاقوا فكان الويل والحرب

خاضوا غمار الشقا شوقا لعودته ... ولم يبالوا بما سيموا وما نكبوا

يا طيبها وقفة طاب الوفاء بها ... وطاب ما ارجت للحق ما يجب

فعاد والحسن الغالي يواكبه ... يا للعظيمين هذا ابن وذاك اب

تقاسما عبء احلام مشردة ... كادت على طول عهد الضيم تحتجب

واقدما والعدا فى ظل الوية ... بيضاء يملي عليهم ما اشتهى الغلب

دنيا وارنو اليها وهي مائسة ... وفوق اسمالها ابرادها القشب

تمشي الوئيد ووحي الخير رائدها ... ورأسها بعصاب الشمس معتصب

الدر فى الارض لا يخبو تألقه ... مهما استقر عليه الوحل والعشب

طافت بما حملت والمنتهى قدر ... تجمعت فيه من اشتاتها النخب

فاينما التفتت حفت بها همم ... بناءة مادرت ما الوهن ؟ ما التعب؟

وفية ما تخلت عن احبتها ... اذا اصابتهم الآلام والكرب

أي الميادين ان ضاقت بهم سبلا ... ما كان فيها لهم ميدانها الرحب

تدرى الجزائر فى أعراس ثورتها ... ما كان منها وما كانت لها تهب

تدرى فلسطين ما اعطته من مهج ... وما تحلى به الجولان والنقب

بعيدة العهد فى استنزاف ما ملكت ... اذا الطواغيت فى اذلالها رغبوا

من نحن ؟ لو وادى المخازن لم تطـ ... ـأه أقدامها فى اثر من هربوا

ما بالها اليوم بالصحراء عاقدة ... اجفانها ورؤاها الشوق والعتب

تلك الرمال مداهـــا لن يباعدهـــا	عنهـــا غوي غريب الدار مغتصب
اكلمـــا هلـــت بالوصل لاح لهـــا	خلف الغريب حبيب عاذل عـــزب
يا للأخوة مـــا اقسى جراحتهـــا	ان خانهـــا حسب أو عقها نسب
لن يبلـــغ الباطل المحموم غايتـــه	مهما أعـــد له التمويـــه والكذب
قد يعثر الحق لكن لن يضيع وان	جفاه في دربـــه من كان يصطحب
دنيا وعيد الشباب اختال يومىء لي	ورحت من ركبـــه المختال اقترب
وانفث الزفرة النشوى به طربـــا	وللمتـــى بوقار الشيـــب تلتهـــب
حتى علي ترى من اين يعرفني ؟	هل كان يعرف سر الخمرة العنب؟

شباب عمرى انقضى ، لم يـــدر مامتع الايام؟ ما ترف الاهواء؟ مااللعب ؟

ما كنت احسب ان يمتد بي زمني	حتى يطالعني ما ليـــس يحتسب
ما دار في خلدى أن استفيق على	عهد بـــه حرمات القدس تستلب
كم جولة رضيت عنها كرامتنـــــا	شقت رحاها ومنا النار والحطب
وامس ماجت بنا سيـــناء شامخة	وكل معقـــل ذل فوقهـــا خـــرب
اين انتهت؟ اين ما أعطت وما اخذت	أين استقر بها المسلوب والسلب ؟
ما ان تغنى بطيب النصر قائدها	حتى اختفى ، وتغنى باسمه الهرب
زين الشباب وما أسناه من لقب	تحاسدت دونه الالقاب والرتـــب
الامنيات جســـام انت حاملهـــا	وليـــس يحمل الا النعمة السحب
والشعب حولك راحات مهلـــــلة	ترعى خطاك ولا يشكو له طلـــب
لانـــت دمعتـــه ان عضـــه الـــم	وانت بسمتـــه ان هـــزه طـــرب
ان العـــروش لابقاهـــا وأكرمهـــا	ما صاغه الحب لا ما صاغه الذهب

الـــربـــــاط　　　　　　عمر ابو ريشة

الفصول والحياة

محمد العربي الخطابي

كانت الارض بادرة يغطيها الجليد .
وكانت عارية لا شجر فيها ولا عشب ولا خمائل ولا زهر .

وفي يوم ما انعقدت فوق الصخور المرمرية قطرات ندى مالبث أن انبثقت منها فراشات بيضاء تبعتها اخرى صفراء وخضراء وحمراء ، ومنها انسلخت الالوان ، وانتثرت النسائم .

ومن ذوب الشفق اطلت براعم ورود ، وخرجت عصافير ملونة من بيض فضي كانت تحتضنه أشعة الشمس ، فكان ذلك ايذانا بميلاد الربيع الأول .

وفي فجر اليوم التالى لهذا الميلاد السعيد انبعثت من قلب نرجسة ضخمة حورية حسناء عسلية البشرة ملونة العينين سوداء الشعر ، وبعد

ان تثاءبت وتمطت اطلقت صوتها العذب باغنية شجية رددت صداها بروج السماء وسرت في تجاويف الصخور الثلجية لحنا طويـــل النفس متمـوج الترجيع . ذلك أن الحورية كانت في حاجة الى الدفء لأنها ولدت عاريــة ، وكانت تريد ان ترى كيف يردد الفراغ رجع ترنيمها وكيف ينعكس على اديم الارض وصفحة السماء سنا عينيها .

* * *

وجاء الانسان الى هذا العالم السفلي في فصــل الربيــع . جـــاء وحيدا شاردا اعزل . وسرعان ما بهرته أطايب الأرض وأجزعته وحشتها فراح يلتمس الدفء والحنو والايناس في أحضان حورية الربيع الحسناء .

كان يراها تخطر فرق الرمل الحار ذاهبـــة الى البحـــر او آئبـــة منه ، شفافة الاهاب رفيقة البشرة تعبـــق من خطوهـــا روائـــح الزهور الأولى ، وتشتعل الفتنة في عينيها وشفتيها .

ابتسمت الحورية الحسناء لأول انسان صادفته في طريقها فولـد الشعـــر .

وكان الشعر ، في البدء ، تسبيحا يرتله الرجـــال كـــي تخصـب التربة ، ويخضر النبت ، وتنضج الثمار ، وتتطـــاول الخمائـــل فيكثـــر الصيد . وكانت الحورية قربان الشعر ومنبع الهامة تشاطرها في ذلك وحشة الحياة وهيبة الطبيعة وغموض اسرارهمـــا .

* * *

في الربيع الاول قال الانسان مخاطبا ربه :

رب ، في الشتاء أتوب واغسل جسمي بماءالنبع الحـلال واتطيـب بعطر الزهور الخمس اليتيمة : الآس : والياسمين ، والنرجس ، والبهار ، والدفلـــى .

فى الشتاء اركن الى الخلوة واندم بدموع مالحة ، واصلي لك وجوارحي قائمة . فدعنى الآن أنعم بزهور الربيع ... اسمع تسابيح الطيور ، وتهاجيد الوحوش ، وتراتيل الفراشات ، ومزامير النحل واليعاسيب .

دعنى اتعلم الذكر من همسات النسيم ومن خلجات الرياح ...

انها الحورية الحسناء ، يارب ، تعصر خمرتى ليصفو حلقي وتنفتح لهاتى فأحسن الغناء والترتيل والابتهال .

انا فى حضرة الربيع مريد يحيره الحال ، يتيمه الوجد ويبرح به الهوى فتضله الشعاب .

فى الشتاء التمس ، يا رب ، طريقي ، فاذا أنا آنست نورك من وراء الطور غضضت طرفى ، وكسرت كاسي ، وغسلت بالدمع ادران قلبي .

فى الشتاء ـ وما هو ببعيد ـ التمس الأمان فى رحابك ، والظل فى فيئك ، والكساء فى اكنافك . ولن تطربني بعد ذلك تفريدة عندليب ولا تحويمة فراشة ولا ترنيمة أنثى . ساكون لك وحدك : نبضة محبة ، وخلجة أوبة ، وغصن انصياع .

فى الربيع تكشف لي جمالك فى جمال مبدعاتك ، وعرفت جلالك فى جلال اسرارك التي اودعتها فى ميسم الزهرة وجناح الفراشة ، وقرن النملة ، واجليتها فى نضارة الوجه الصبوح ، وابتسامة الثغر العذب ، وحور الطرف الغضيض .

* * *

اعلن الصرصور ميلاد الصيف ، فبسطت الشمس سلطانها على الأرض متحدية ابراج السماء ، وامتص لفحها عروق الينابيع وعصارة الجذور واصباغ النواوير ، وجفت حلوق العصافير والغربان ، وتشققت شفاه الصخور وجباه الوديان .

وحينما وجد الانسان نفسه وحيدا فى الفلاة ملهوفا ذكر ربه ذكر من يجزع لضـــر اصابه ، وقال :

لن انتظر الشتاء ، يارب ، حتى اتوب ؛ فاين الماء اغسل به أطرافـى ووجهى وأبلل به حلقي حتى اقوى على الدعاء ؟

صفير الصرصور المتتابع يزيد لفحة الشمس رتابة فتنسكب اشعتها ذوبا حارا يتجمع فى الفور والمنبسط فيحدث سرابا ... وفـى شط السراب يرمق الانسان حوريته الحسناء وكانها تنبعث من لجة يم . جسمها الفض مبلول تلمع فيه حبات من ماء معقود أزرق . كانت الحورية تبتسم برقة ممزوجة بسخرية وكانها تتحدى الشمس والقفار والوحشة .

قــــال الانســـــان :

ياحوريتي ، لعلى واجد عندك ريا ونداوة ، فاقتربى ولا تكوني سرابـا كالســـراب .

اين الماء الطهور اغتسل به ، واين الظل افترشــه والحمـــام يؤنس وحدتـى ؟

لا ، لن انتظر الشتاء ، يارب ، حتى اتوب . نهـارى قائظ ، وليلـي موحش ، وحوريتي سراب ، والسراب بلقع ، والخريف بعيد .. بعيد .. والشتاء مغلول الأطراف فى متاهات الكون ، والربيع محال !



هبت نسمة من شمال ونسمة من جنوب فتعانقتا ، وكان بينهما لقـاء جميل لم يطل ... لقاء لم يلبث ان حول النسمتين المتعانقتين الى عاصفة هوجـاء بددت أوراق الشجر ونثرتها هشيما فـوق التـــراب المتحـرك الجـــواب .

وسمع الانسان الذئاب تعوى فى الغابات من جوع وضرارة ، ورأى النسور تحوم فوق البقاع الخاليه ومناقيرها الجارحة تسابق عيونها وتلاحق مخالبها ، فأصابته رعشة ، وأحس ببرودة فى انامل يديه واطراف بنانه ، فحن الى الربيع ، وذكر الشتاء وموعد التوبة فقال :

امهلنى ، يارب ، حتى يحين الشتاء ، وينزل الغيث مدرارا ، ويجرى الماء فى بطون الوديان فترتوى الأرض وتنتشى حيتان المياه العذبة .

امهلني حتى تهتز التربة وتربو وتستقر اللواقح فى ارحام عرائس النبات .

وحينما يشفي بلسم الطبيعة داء نفسى وتسرى النسائم الرطبة فى عروقى ارفع لك كفى الضراعة واصلي لك بخشوع وطمأنينة .



ها هو الخريف يقطع الارض بجحافله ويغمر الفضاء بسواد غباره ، وكوخى محطم وما شيتي مبعثرة ، وحورية الربيع نائمة ، وأنا لك ، يارب فى السر والعلانية ، جسم مهدود ، وقلب سقيم ، وروح فانية ، سحرتنى اطايب الحياة في الربيع ، وجفت عروق نفسى فى الصيف ، وتملكني الرعب والحسرة في الخريف . والشتاء ... ! هل أدرك الشتاء ، يارب ، حتى اتوب واغتسل متطهرا ؟



الحياة قصيرة والعمر يركض كالفرس الجامح .

الربيع زهور تطيب الجوارح ، واغاريد تسرى هينة بين الجلد واللحم والعظام ، والقلب متبول بليلى وبثينة وسعاد ،والليل قصير .

والصيف صراصير ومهد سراب ،

والخريف رياح واعاصير ونثر اوراق .

والشتاء بعيـد ...

والحياة لهـو قاتـل ...

فاين انا من فصولك ، يا رب ، خلقتني من طين والطين هش ؛ فتداركني واجعل من هواني على نفسى قدرة تزيد من طمعى فى لطفك وعفوك ، وتذكي رغبة الندم والتوبة فى نفسى . فانا لست الا انسانا تعبث بـه الفصـول وتستبد الحياة بفطرته الصافية ؛ وانت إنت بارئي وموئل روحي ومقصـد ضراعتي . وحسبي ذلك !

الرباط

محمد العربي الخطابي

قضية فلسطين في الشعر المغربي
حتى حرب رمضان

د. عباس الجراري

تمهـيـد تاريـخـي :

ترتبط القضية الفلسطينـيـة ــ فى مرحلتها الحديثـة ــ بالحركـة الصهيونية التى نشأت فى القرن التاسع عشر على اثر اضطهاد اليهـود فى بلدان كثيرة ، ولا سيما فى روسيا وشرق أروبا . وهى حركة توسعية عدوانية ، تهدف ــ عاطفيا ــ الى تجميع يهود العالم فى فلسطين ، وان زعم مفكروها بأنها حركة قومية ، على الرغم من انها تفتقر الى مقومات القومية من ارض ثابتة وتاريخ موحد وثقافة ولغة مشتركتين .

ويعتبر الكاتب النمساوى هرتزل أبرز دعـاة هذه الحركـة حيث أسس فى نهاية القرن الماضى مجلة « العـالـم » التى كانت تصدر كل أسبوع ناطقة باسم الحركة الصهيونية ، والف كتاب « الدولة اليهودية »

الذى حاول فيه أن يثبت ان اليهود امة متميزة وان مشكلتهم قومية يجب حلها كبقية القوميات المضطهدة . وفى نفس الوقت ، وبالضبط فى سنة 1897 سعى الى عقد المؤتمر الصهيونى الاول فى بازل بسويسرا ، وهو المؤتمر الذى قرر اتخاذ فلسطين وطنا قوميا لليهود . كما انشأ المنظمة الصهيونية العالمية التى انتخب رئيسا لها .

وكان من شأن المذابح التى تعرض لها اليهود فى روسيا سنة 1903 ان ادت الى احتداد المسألة اليهودية ، وفاوض هرتزل حكومة بريطانيا وحصل منها على عرض بمنح مستعمرة أوغندة لاستيطان اليهود ، ولكن المؤتمر الصهيونى الذى عقد فى السنة التالية رفض هذا العرض واصر على فلسطين .

ولم تكن الحركة الصهيونية فى هذه المرحلة تلقى التأييد من كافة اتجاهات اليهود حيث كانت تواجهها معارضة متمثلة فى رجال الدين الذين كانوا يرون أن اليهودية دين وليست قومية ، ومتمثلة كذلك فى اليهود الاشتراكيين والشيوعيين الذين كانوا يعتبرون الصهيونية حركة بورجوازية رجعية .

ومع ذلك فقد كانت هذه الحركة تكسب فى كل يوم أنصارا ومؤيدين ، وفى طليعتهم ارثر بلفورد الذى أعلن صراحة — وهو وزير للخارجية البريطانية — عن عطفه على فكرة الوطن القومى لليهود فى رسالة بعثها الى الثرى الصهيونى روتشلد فى نوفمبر 1917 ، التزم فيها بتأسيس هذا الوطن فى فلسطين ، وهى الرسالة التى اشتهرت بـ « وعد بلفورد » . وقد تكرر نص هذا الوعد بالحرف فى الوثيقة التى وضعت فلسطين تحت الانتداب البريطانى فى سبتمبر 1923 بتعيين البريطانى اليهودى هربرت صمويل اول مندوب .

وكان لا بد للعرب أن يتحركوا ليرفضوا الاعتراف بشرعية الانتداب وبحق بريطانيا فى تنفيذ وعد بلفورد ، وليعلنوا تمسكهم بعروبة فلسطين واستقلالها . وبذلك برزت المسألة الفلسطينية ، وظهرت الحركة

الوطنية العربية بقيادة اللجنة العربية العليا التى تكتلت فيها عدة أحزاب فلسطينية ، وكانت تحارب فى واجهتين : اليهود من جهة والانتداب البريطانى من جهة اخرى . وتتالى الكفاح الى ان اندلعت الثورة العربية التى قامت على اثر دخول ستين الف يهودى الى فلسطين نتيجة اضطهاد هتلر ، والتى استمرت من 1936 الى 1938 .

وفى اثناء اشتعال الثورة قدمت اللجنة الملكية مشروعا يقضى بانهاء الانتداب البريطانى وتقسيم فلسطين الى ثلاث مناطق تشكل ثلاث دول :

1 ــ دولة يهودية تضم الاجزاء التى بها أكثرية من اليهود (1) ، وتمتد على الساحل من جنوب لبنان الى جنوب يافا ، وتشمل عكا وحيفا وصفد وطبرية والناصرية وتل ابيب .

2 ــ دولة محايدة تظل تحت الانتداب البرطانى فى المناطق ذات الاهمية الستراتيجية والدينية وتضم القدس وبيت لحم .

3 ــ دولة عربية فى المناطق الباقية وحيث توجد اغلبية السكان العرب

وقبل اليهود مشروع التقسيم ، ورفضه العرب واعلنوا ذلك فى مؤتمر بلودان صيف 1937 ، كما أعلنوه بعد سنتين فى مؤتمر المائدة المستديرة الذى انعقد فى لندن بدعوة من بريطانيا ، حيث عارضوا اى حل لا يحترم استقلال فلسطين ولا يحول دون الهجرة اليهودية .

وأمام هذا الموقف أصدرت الحكومة البريطانية عام 1939 كتابا ابيض تصرح فيه أن هدفها هو أن تقام فى غضون عشرة اعوام دولة فلسطينية مستقلة يقتسم فيها العرب واليهود السلطة الحكومية على نحو يصون المصالح الحيوية للطرفين . ورفض زعماء الثورة العربية مقترحات هذا المشروع ، كما عارضها الصهاينة بدعوى أنها لن تحقق

---

(1) علما بان عدد اليهود فى فلسطين لم يكن يتجاوز فى هذا الوقت وقبل الهجرة المذكورة خمسين الف نسمة .

اطماعهم فى انشاء دولة يهودية فى فلسطين ، وبذلك اداروا ظهرهم لبريطانيا واتجهوا الى الولايات المتحدة عساها تنفذ لهم المخطط المأمول .

وبدات تظهر بوادر السياسة الجديدة فى المؤتمر الذى عقدته المنظمة الصهيونية الامريكية بنيويورك فى مايو 1942 والذى انتهى الى الموافقة على ما عرف بـ « برنامج بلتمور » ، وكان قد قدمه دافيد بن جوريون رئيس اللجنة التنفيذية للوكالة اليهودية ، ويقضى برفض سياسة الكتاب الابيض ، وبانشاء دولة يهودية بعد انتهاء الحرب (العالمية الثانية) تضم كل المناطق الفسطينية ، وباطلاق حرية الهجرة اليهودية الى فلسطين ، وبتكوين جيش يهودى مستقل .

وكان من آثار هذه المرحلة الجديدة أن قدم اقتراح الى الكونجرس الامريكى فى فبراير 1944 يقضى بتأسيس جمهورية يهودية ديموقراطية حرة فى فلسطين ومطالبة الولايات المتحدة بالتدخل الرسمى لانجاز هذا التأسيس . وكان من آثارها كذلك أن قرر الرئيس ترومان فى السنة التالية تهجير مائة الف يهودى الى فلسطين .

وفى دسمبر 1946 عقد المؤتمر الصهيونى العالمى فى بازل واعلن رفضه للوجود البريطانى اللاشرعى واصراره على قيام دولة يهودية فى فلسطين . وكان العرب خلال هذه الفترة يعقدون المؤتمر تلو الآخر ، سواء على مستوى القمة أو دورات مجلس الجامعة العربية ولجنتها السياسية ، ليرفضوا اى قرار لا ينص على قيام دولة عربية مستقلة ، وليرفضوا بالتالى كل أنواع التقسيم التى كانت قد تكونت لاقتراحها لجان متعددة قبل ذلك .

وفى نوفمبر 1947 قررت الجمعية العامة للامم المتحدة فى جانب التقسيم حيث صوتت له ثلاثة وثلاثون دولة وامتنعت عشرة ورفضته ثلاث عشرة هى الدول العربية الممثلة يومئذ ، وافغانستان وكوبا واليونان والهند وايران وباكستان وتركيا . كما قررت فى غشت من السنة التالية نهاية الانتداب البريطانى .

وفى خامس عشر مايو 1948 انتهى الانتداب وانسحبت بريطانيا بجيشها وادارتها . وفى نفس اليوم اعترف ترومان رئيس الولايات المتحدة بدولة اسرائيل . وفيه كذلك دخلت الى فلسطين جيوش عربية من مصر وسوريا ولبنان والعراق وشرق الاردن ، واستمرت الحرب — على حد ما نعلم — الى أن كان فى عاشر يوليو من نفس العام قرار مجلس الامن بوقف القتال ، وكانت فى اثره اتفاقيات ثنائية للهدنة مع اسرائيل .

وانتهت هذه المرحلة المريرة من القضية الفلسطينية بنجاح الصهاينة فى انشاء دولة ترتب على اقامتها مشكل آخر هو مشكل اللاجئين حيث اخرجت القوات الاسرائيلية مليونا من الفلسطينيين توزعوا فى البلاد العربية .

واستمرت القضية الفلسطينية (2) بعد ذلك تغنى التاريخ العربى بوقائعها وأحداثها فى مد وجزر أفضيا الى هزيمة يونيو (حزيران 1967) التى احدثت رغم عارها المفجع الشنيع — وربما بسببه — تغييرا فى القضية والنظر اليها عسكريا وسياسيا وفكريا . وكان من نتائج هذا التغيير أن بعث دم جديد فى الحركة الفلسطينية وفى الانظمة العربية وفى المواطن العربى لم يلبث أن حث على محو آثار الهزيمة ، فجاءت حرب

---

(2) انظر فى تاريخ القضية الفلسطينية :
- بلادنا فلسطين لمصطفى الدباغ
- القضية الفلسطينية فى مختلف مراحلها لعزت دروزة
- فلسطين العربية بين الانتداب والصهيونية لعيسى السفري
- الموجز فى تاريخ فلسطين الحديث للدكتور عبد الوهاب الكيالي
- الوثائق الرئيسية لقضية فلسطين (الامانة العامة لجامعة الدول العربية 1957)
- فلسطين جريمة ودفاع لارنولد توينبي (ترجمة عمر الديراوي)
- سلسلة « دراسات فلسطينية » التي تصدرها منظمة التحرير الفلسطينية (مركز الابحاث)
- سلسلة « كتب فلسطينية » التي تصدرها منظمة التحرير الفلسطينية (مركز الابحاث)
- سلسلة « ابحاث فلسطينية » التي تصدرها منظمة التحرير الفلسطينية (مركز الابحاث)
- سلسلة « اليوميات الفلسطينية » التي تصدرها منظمة التحرير الفلسطينية (مركز الابحاث)

رمضان (اكتوبر 1973) تعيد للانسان العربى كرامته وثقتــه بنفســه وأملــه فى تحقيــق النصر .

وقد كان المغرب دائــم الحضور فى المرحلة الجديــدة من القضيــة الفلسطينية ، وهو الحضور الذى اثبتـــه على الصعيــدين الرســمى والشعبى ، والذى من مظاهره تأسيــس جمعية مغربية لمساندة الكفاح الفلسطينى وتقديم العون المادى والمعنوى للمقاومة . وقد أتيح له أن يؤكد هذا الحضور بقوة وفعالية ووعى فى حرب رمضان ، متجليا بصفة خاصة فى تصدى الجيش الملكى للعدو فى مختلف واجهات المعركة .

وعلى الرغم من انه لم يتسن للمغرب ــ بحكــم ظروف الاستعمار وانشغاله فى معركة التحرير الوطنية ــ أن يقوم فى المرحلة الاولى للقضية بالدور الذى كان يتطلع أن يؤديه بحجم يتفــق ومصيرية الاحــداث وفى نطاق الرسالة القومية التى تحمل اعباءها خلال التاريخ ، فانه لم يــكــن ليتأخر عن تقديم ما تسعف به تلك الظروف حيث كون « الحزب الوطنى لتحقيق المطالب المغربية » بعد تأسيســه فى ابريــل 1937 (3) لجنــة حماية فلسطين والاماكن المقدسة كانت تعمل على التوعية بحــق العرب وخطر الصهيونية وعلى جمع التبرعات لصالح الفلسطينــيين ، كما كانت تحيى يوم فلسطين فى كل سنة وتقدم الاحتجاجات حين يستدعى الامــر ذلك . وبلغ من فعالية هذه اللجنة أنها استطاعت التسرب الى اليهــود المغاربة لتقنعهم بالقضية الى حد انهم وقعوا مع المسلمين وثيقة وجهت للخارجية البريطانية تندد بقرار التقسيم .

كذلك جمع المغاربة فى عام 1939 وفى اعقاب الثورة العربية تبرعات وصلت الى ستة آلاف وثلاثمائة وثلاثة وثلاثين ريالا ، تسلمتهــا حكومة الحماية قصد ارسالها الى الفلسطينــيين ولكنها جمدتهــا فى الوقت الذى سهلت ارسال مساعدة اليهود المغاربة الى الصهاينة .

---

(3) انظر « انظر الحركات الاستقلالية فى المغرب العربي » لعلال الفاسي ص 206

وضـع الشعـر المغربـي

قبل أن نتناول موقف الشعـر من هذه القضية ، نرى لزامـا ان نتحدث قليـلا عن الوضـع الذى كان عليه . والحقيقة ان القضـيـة الفلسطينية صادفت مرحلة النهضة المغربية التى بدأت فى اعقاب دخول الحماية ، وجاءت كرد فعل لها ظهر متمثلا فى الثـورات الشعبيـة التى قاومت المستعمر بالسلاح فى كثير من المناطق وابرزها ثورة الريف . وحين توقفت المقاومة المسلحة برزت القيادة الفكرية فى الميـدان ، متجليـة فى الحركة السلفية التى دعـا لها أبو شعيب الدكالى وتلاميـذه . وتطورت هذه الحركة لتلحم بين العملين الثقافى والسياسى ، وكان حادث الظهير البربرى سنة 1930 بداية لهذا الالتحام وبالتالى بداية الحركة الوطنية .

ثم وجدت بعد ذلك أسباب كان لهـا تاثيرها المبـاشر فى خلـق النهضة ، نذكر منها :

1 ـ انتشار التعليم الحكومى والحر

2 ـ ازدهار الصحافـة

3 ـ الاتصال بالمشرق العربى عن طريق الصحف والمجلات والكتب وحتى البعثات ولو فى نطاق محدود .

4 ـ الاحتكاك بأروبا وفرنسا خاصة بواسطة المدارس والبعثـات ومختلف وسائل التثقيف .

5 ـ وجود وعى وطنى ورأى عام مغربى وقيـادة شعبـية تلتـف حولهـا الجماهير .

وبـدت اطوار الشعر فى هذه المرحلة متداخلة تسيـر فى الاتجاهات الآتـيـة :

اولا : اتجاه تقليدى (كلاسى) هو استمرار للتيار القديم ، واصحابه كانوا يقولون فى موضوعات ذاتية واخوانية واغراض المناسبات وخاصة منها المديح النبوى . وقال بعضهم ممن تجاوبوا مع حركة النهوض فى موضوعات كانت تعتبر جديدة على الاتجاه .

ثانيا : اتجاه تقليدى جديد (كلاسية جديدة) سارت فيه فئتان من الشعراء الذين يمكن أن نعتبرهم مجددين او مطورين للشعر المغربى فى نطاق حركة الشعر العربى بالمشرق :

1 — الفئة الاولى يمثلها الذين اعتمدوا على حركة البعث فى الشرق ، وهؤلاء ظل الشعر عندهم مرتبطا بالاغراض التقليدية وخاصة الموضوعات الذاتية والاخوانيات . وعند هذه الفئة ظهر تطور فى الشعر يتجه نحو التعبير عن مضمون سياسى وطنى منطلق من مضامين مرتبطة بالقضايا التى كانت تطرحها المرحلة

2 — الفئة الثانية ظهر فيها جيل تاثر بمدرسة الديوان فى اتجاه العقاد الواقعى الرومانسى وكذلك بمدرسة أبولو والمهجر . وقد تعاملت مع مختلف الاغراض السالفة وان غلبت عليها موضوعات الذات والتغنى بالوطن والجمال .

وقد تطور الشعر عند اصحاب الفئتين ليواكب التطور السياسى الذى عرفته الفترة . وكشف هذا التطور عن ثلاث مراحل :

1 — حماية الوحدة المغربية والذود عنها على اثر حادث الظهير البربرى

2 — المطالبة بتحقيق بعض الاصلاحات ، وخاصة فيما يتصل بالمجالات الحيوية فى الامة ، وفى طليعتها التعليم .

3 — الكفاح من أجل الحرية فى ابعادها الوطنية والقومية .

ثالثا : اتجاه الشعراء الجدد وقد ظهر بعد الاستقلال على يد الشباب الذين كانوا — بحكم ظروف المرحلة التاريخية ووعيهم بتطوراتها ثم بحكم انصهارهم فى المجتمع واحساسهم بالمضاعفات التى تهز كيانه — مهيئين للسير فى خط ملتزم ينصب على مشكلات هذا المجتمع وقضاياه .

ويجدر بنا هنا أن نسجل انه فى السنوات التى تمثل المرحلة الاولى بعد الاستقلال ، ولا سيما قبل 1960 ، لوحظ توقف — من حيث الشعور — للمد النضالى الذى عرفته الفترة السابقة على الاستقلال . ومن ثم بدأ الشعراء وكأنهم فى نشوة ، واذا تناولوا بعض مواقف الكفاح السابقة فانهم لا يقومون بغير عملية اجترار تثير لا شك التلذذ بالذكريات ولكنها لا تغنى تلك المواقف . وهذا ما يجعلنا نعتبر هذه المرحلة مرحلة استهلاك عاطفى سواء على صعيد ذات الفرد أو الجماعة . ومن هنا ظهرت انطلاقة الشعر الجديد متأثرة بكل التناقضات التى كشفت عنها المرحلة .

وقد عرف المغرب تطورات سياسية واقتصادية واجتماعية وفكرية برزت من خلالها وأثناء حركيتها مضاعفات كانت فى بعض الاحيان تصل الى العمق لتمس الجذور ، ولكنها كانت عاملا أساسيا فى توجيه النظر وتحويل الرؤيا على مستوى الفكر والادب وفى اطار علاقة جدلية بين الفن والحياة .

وهكذا بدأت بعد 1960 مرحلة جديدة طرحت نفسها من خلال مفهوم الشعر والرؤيا السياسية والفكرية والوسائل الفنية للأداء ، ومن خلال التجربة ومدى التفاعل معها وتطور المضامين وعناصر الجودة والجمال والتعبير . وهى مرحلة عانى فيها شبابنا من الاضطراب الفكرى والنفسى ما جعلهم فى انتاجهم الشعرى يبدون وكأنهم يبحثون عن ذواتهم الضائعة فى خضم مجتمع لا يواجهون واقعه بغير الانطوائية والرفض .

لذلك أخذوا يعتمدون على مواهبهم الذاتية ويحاولون الاستفادة من الاساليب الوافدة كاستغلال الرمز والاسطورة ومختلف طرق التعبير الجديدة . ولكن رؤاهم مشتتة وغير موحدة لانها وليدة التفاعل الشخصى مع الاحداث والتيارات وليست وليدة تفاعل جماعى

من شأنه أن يولد خطا فكريا ووجدانيا موحـــدا . والقيمة الفنيـــة عندهم كامنة فى اتجاه الشعر الجديد الملـــح على المدلـــول الانسانى فى اطـــار الرومانسية ، ولكن على حساب مقاييس اخرى ولا سيما الشكل . ولا بد لنا هنا أن نثير جدلية الشكل والمضمون ، فالقضية ليست قضية الشكل كما فهمها شعراؤنا الشباب حين اكتفوا بالخروج على الشكل القديم ، ولكنها قضية تعبير أى تناول مضامين جديدة بأساليب نابعـــة من هـــذه المضامين ومنسجمة معها . وبهذا تكون القيمة الحقيقيـــة للعمل الفنـــى كامنة ليس فى الشكل وحده ، وليـــس فى المضمون فحسب ، ولكـــن فى العلاقة الجدلية بينهما .

ومعظم هؤلاء الشعراء ينقصهم التكوين الفكرى الذى من شأنه ان يساعدهم على خلق الرؤيا وتحديدها ، وعلى القـــدرة على التصويـــر ، وقبل ذلك القدرة على التجاوب مع القضايا الوطنية والانسانية فى فهـــم وتعمق . ويغلب عليهم ابراز بعض الملامح السياسية والاجتماعية لبلادنا دون تحديد للمنظور والبعد . ومع ذلك فانتـــاجهم مـــازال فى ارهاصاته الاولى للابداع ، وهم مازالوا فى مرحلة النشـــأة والعنـــفوان والطموح . ولا شك أن كثيرا منهم يمثلون طاقات وقدرات فنية لا يعوزها الا صدق المعاناة واتقـــان التعبـــير .

وحيث ان القضية الفلسطينية بحكم مالها من آفاق وابعاد تعتـــبر على المستوى القومى قضية العرب الاولى ، تستـــأثـــر باهتمامهم على مختلف الاصعدة العسكرية والسياسية والاقتصادية والفكرية والفنية ، فاننا لا نستغرب اذا وجدنا الشاعر المغربى — فى اتصال مباشر ووثيق مع تيار الشعر العربى عامة — ملتزما بموضوعها ومعانقا لها ولغيرها من القضايا العربية بروح قومية زاد فى اذكائها — بالاضافة الى العوامل التقليدية العريقة — زوال الحواجز وتشابه القضايا واصطدام المواطن العربى فى كل مكان بواقع مرير واضطراره الى المحاربة فى واجهتى التخلف والاستعمار بمختلف اشكاله .

وبما أن هزيمة يونيو احدثت — كما اسلفنا — تغييرا شمل مختلف مجالات القضية الفلسطينية ، وانصب بصفـــة خاصـــة على الرؤيـــا

الفكرية والمنظور الشعرى ، فاننا نرى أن نتناول تجاوب الشعر المغربى مع هذه القضية من خلال مرحلتين :

1 ــ قبــل الهزيمــة

2 ــ بعــد الهزيمــــة

موقف الشعر المغربى من القضية قبل هزيمة يونيو

على الرغم من أن النصوص التى توفرت لدينا عن فترة ما قبــل الهزيمة لا تسعف ــ لقلتها ــ فى الكشف عن مــدى الموقــف الذى كان للشعراء المغاربة مع القضية فى حلقاتها المتتالية ومراحلهــا المتلاحقة ، فاننا نستطيع أن نتبين بعض ملامح هذا الموقف من خلال خطين : احدهما يجمع شعراء الاتجاهين التقليدى والتقليدى الجديد ، والثانى يكاد يكون متميزا بالنفس الجديد .

فى الاول يطالعنا المرحوم علال الفاسى بقصيدة (4) قالها عام 1932 متجاوبا مع مظاهرة بلغ خبرها ، قامت بها النساء فى فلسطين ، وملحما بين القضيتين المغربية والفلسطينية فى روح قومى متطلــع الى المشرق يحيى نضاله ويقتدى به :

ان البــلاد يعيــث فيهــا المستبــدون الشداد
يتمتــعون بخيرهــا ونظــل نحــرم من ســداد
يأبــون أن نسعــى لعلــم او لفكــر فى اتحــاد
والآن قــد خطت فلسطين لنــا سبــل الســداد
حيــا الالاه فتاتهــا وحمى مواقفهــا الــجيــاد
كونــى فتــاة العرب رائــدة لنا يــوم الجــلاد
ضمــى الصفوف ووحدى لا تختشى اهــل العناد
لا تتــركيهــا فرقــة ترمــى بــنــا فى كل واد

---

(4) الادب المغربي بعد خامس حزيران ــ محمد التازي (مجلة الآداب عدد 5 مايو 1969)

ودون أى ربط بواقع الكفاح المغربى ، وان فى حديث غير منفصل عن ذات الشاعر ، يرثى عبد الله جنون « بلفورد » داعيا لناعيه (5) :

لك الخيرات يـا ناعى الطـغام فأبرد حـر انفسنا الظوامى

وهو اذ يرثى بلفورد يتمنى أن يرثى مشروعه حيث سيموت بموته ذلكم الوعد المشؤوم ، آملا الا يتحقق وان يطويه النسيان بظهور قـوة الحق عالية ماحقة للباطل :

قضى بلفـورهم فليـقض وعـد أتـانا فيـه بـالمـوت الـزؤام

هو الايعـاد يحمـد فيه خلـف وان سمـوه بالوعـد التمـام

ولكن سوف ينقـض فيـه عقـد ويـنسـى ذكـره بين الانـام

ويدمغ حقنـا بـطـل الاعـادى وكان البطـل داعيـة انـهـزام

وليس من وسيلة لذلك غير المقاومة المسلحة التى هى الكفيلـة باسترداد الارض وطرد الغاصبين المعتدين :

نمزقـه بأطـراف العـوالـى اذا هجـنـا وبالجيـش اللهـام

ونقـبـره ونقبـر مـن يـراه سبـيـلا للتعـدى والتـرامـى

والشاعر ، وهو بصدد المواجهة والتحريض اللامباشـر ، لا ينسى أن يذكر بموقف العرب الكريم من اليهود خلال التاريخ ، وهو موقف لـم يجيبوا عليه بغير الدس والخداع والمكر والغدر :

أضفناهم فكانـوا شـر ضيـف يـجـازى بالـعـداوة والمـلام

وأنقذنـاهم من ضنـك عيـش فجـاءونـا بـذل واهتضـام

هـم اغـروا عليـنـا كل عـاد وكـادونـا بـدس وانتـقـام

هم دلـوا على العـورات منـا فيـا للـه مـن غـدر اللـئام

(5) قصيدة « رثاء بلفور » (ديوان : لوحات شعرية ص 29 ـ تطوان 1966)

وفى قصيدة « عربى حر » (6) يتحدث جنون عن عربى وقع جريحا فى ثورة 1936 ونقل الى مستشفى القدس ووقف المندوب الانجليزى على سريره فى زيارته لهذا المستشفى ودار بينهما هذا الحوار :

— ما يؤذيك ؟

— أن اراك

— هل تريد شيئا ؟

— نعم ! ان تخرجوا من فلسطين وتدعوها لابنائها .

يتحدث الشاعر فى المقطع الاول عن هذا الفدائى ومدى قوته وصلابته وحقده على البغاة الغاصبين ، فقد تجاوز آلام جرحه وبؤسه متطلعا الى التفانى فى سبيل قضيته والى التلذذ بالموت فى اخلاص صادق وروح حر ابى :

عربى سيم خسفا وهوانا ... أترجى منه سلما وامانا ؟

هو نضو البؤس الا انه ... ناقم يسعرها حربا عوانا

اتظن الجرح او هى عزمه ؟ ... ساء ظنا بالفدائى وشانا

جذوة للحقد لم تزدد على ... نفخها الا اضطراما واضطغانا

عد عن اسعافه فى بؤسه ... انه أولى له ان يتفانى

عد عن تنميق الفاظ له ... لست تلقى منه ضعفا أو ليانا

لا تساومه على اخلاصه ... انه لله بالاخلاص دانا

أتمنيه وقد اثخنته ... فعل صياد بكى الصيد دهانا

ما مناه وهو من آلامه ... فى اسار غل عقلا ولسانا

ما مناه غير أن تتركه ... يتملى الموت اما الموت حانا

---

(6) ديوان : لوحات شعرية ص 17

ان طنعم الموت أحلى عنده منك لذ توليه عطفنا وحنانا
وكذاك الحر يصمى قلبه ان يرى الظالم يزداد افتتانا

وفي المقطع الثاني يدعو على العدو ويتمنى له الفناء بشتى الوان الكوارث والنكبات على حد قوله في هذه الابيات :

يا سماء تتنزى شهبا هذه الاهداف فارمى من رماتنا
نيزك يقذف أو صاعقة وعلى الظالم ينزو نزوانا

* * *

ذاك او زلزلة من تحته فاذا بالارض مادت ميدانا

* * *

والخضم الغمر يا مجدا له لو تمطى ملقيا منه الجرانا

* * *

حبذا الطاعون يجتاح الملا انه الوافد يحيى الموتانا
والهواء الاصفر المخنى على من غدا من جنسه خبا هدانا

أما في المقطع الثالث ، فيتوجه لابناء فلسطين ليشيد بنضالهم البطولى الذي خاضوه بسلاح من العزم القوي ، فغدوا بذلك المثل والقدوة ورفعوا هامة العرب عالية :

ايه ابناء فلسطين لقد خضتم لج المنيات عيانا
واقتحمتم جاحم الموت فلم تألوا فيه ضرابا وطعانا
صبرا ليس يبالي واحد بألوف من علوج تتدانى
عزلا الا من العزم الذى رد نيران العدا تحكى الجنانا
فضربتم للورى امثلة عز امراك لها او ان تدانى
وغدوتم قدوة حسنى لمن يتغنى في الشرق أن يبنى كيانا
ورفعتم هامة العرب التى اطرقت من ضربة الدهر زمانا

ثم ينهى بهذا البيت يبث الحماس ويثبت على الاستمرار فى طلب الحق والموت :

فثباتا فى مجال الموت أو تأخذوا الحق وتستوفوا الضمانا

وبمناسبة حملة اغاثة منكوبى فلسطين عام 1939 ، وفى المسرح الوطنى بتطوان ، أنشد ادريس الجاى قصيدة « ما لبلفور فى فلسطين حق » (7) بداها بأبيات يطمئن فيها فلسطين ويهدىء من روعها ويبعث فيها الامل والشجاعة ، ومن خلالها يعرض لما تعانى من محن :

لا ترعك الدماء والاشلاء	يا فلسطين فالفداء بقاء
لا تهابى وان تكاثر صرعاك	وان أرجفت بك الاعداء
لا يثبطك عن جهادك بؤس	وعذاب ومحنة وشقاء
لا تهابى وان غدوت أتونا	تترامى بجوفه الاشلاء
لا تهابى وان ثكلت الوفا	من بنيك الاولى حداهم وفاء

وفى استعراض يتسم بالحيوية والحركة يتحدث الشاعر عن الفلسطينيين الذين يسارعون للموت فداء للوطن واستبشارا بالشهادة ، ويختمه بهذا الحوار النابض بروح القوة والصمود الملخص لكل معانى البذل والتضحية حيث يقول :

وعجوز شمطاء أنهكها الدهر	واودى بجسمها الاعياء
باكرتها النساء من كل صوب	ذات يوم تسوده ضوضاء
قلن صبرا يا أمنا وعزاء	فاجابت ويحى وفيم العزاء
قلن ان ابنك الشجاع تولى	والى أين ، قلن حيث الجزاء

(7) ديوان « السوانح » ص 91 (المطبعة الملكية 1971)

فأجابت : بشراى اسعفنى الحـــ ـــظ ووافى المنـــى ووافى الرجـــاء
ابنـــى اغتــبــط بموتــك هــذا ووداعـــا وفى الجنـــان اللـــقـــاء
ابنى اغتبط فمـــا العيـــش ،بهـتما طـــال الا شـــقـــاوة فـــفـــنـــاء

ويعود الى تطمين فلسطين فيعاهدها على عدم التفريط فيها ويذكرها بأن العرب أقسموا منذ العهد البعيـــد ان يصونوهـــا ويحافظوا عليهـــا ، والا فـــلا حـــيـــاة .

افلسطـــين لن نـــبـــيـــع ثـــراك ما أقامت بـــذى الجسوم ذمـــاء

* * *

افلسطين أقســـم العـــرب قدمـــا ان يصونـــوك أو تـــزول السماء

ويزيد فيؤكد لها أنها لن تكون قربانا فى مذبح الاهواء وان شبرا واحدا منها يساوى العالمين وان العرب سيفدونها بالارواح والدماء :

أفلسطين لـــن تكونـــى كقربـــان على مـــذبـــح هـــو الاهـــــواء

* * *

افلسطين ان شـــبـــرا وحـــيـــدا منـــك عنـــدى والعالمين ســـواء

* * *

أفلسطين نحـــن بالروح نسخـــو غيـــر اننـــا بارضـــك البخـــلاء

* * *

أفلسطين لا بـــمـــال سنفـــديـــك ولكـــن مـــنـــا الدمـــاء فـــداء

وفى تحقير لشأن الصهاينة الدخلاء ، وفى تقريب لصورة ما حدث بوعـــد بلفورد ايـــاهم أن يمنحهم ارض فلسطين ، يتوســـل الشاعـــر بحكايـــة الخنفساء التى تطاولت على زهر النحل معتمدة على وعـــد من الفـــأر باعطائهـــا ايـــاه :

يـــا بنى الـــذل والدناءة والرجس حبطتـــم وخـــاب منكـــم رجـــاء
أفـــتبـــغون موطـــنـــا بفلسطين وكـــل الـــبـــلاد منكـــم بـــراء

قالت الخنفساء للنحل يوما ... ان ذا الزهر موطنى والثواء
قال من اين ؟ قالت : الفأر اعطى ... لى وعدا بذاك وهو كفاء
قال : ما الخنفساء للزهر اهل ... كيف تحيا مع الشذا الخنفساء
وكذا قالت اليهود وظنت ... ان بلفور والكتاب سواء

فليس لبلفور اى حق فى هذه الارض حتى يعطيها ، وكان يحق له العطاء لو انه بدافع الاشفاق على الصهاينة وهبهم مدينة لندن ، فهى اصلح لهم وارحب :

ما لبلفور فى فلسطين حق ... كيف يعطى بلادنا من يشاء
ليهبهم ان شاء لندن اشفاقا ... واذ ذاك كم يحق العطاء
فهى أولى لهم وارحب ارضا ... وله منهم الجزا والثناء

ويستنكر محمد العربى الاسفى قرار مجلس الامن الخاص بتقسيم فلسطين ، فيقول (8) :

مجلس الامن ان حكمك جور ... وضلال ومبعث للعراك
هيئة العالم الموحد سيرى ... واجعلى العدل من أساس بناك
ان حكما أمضاه اهلك زورا ... ونفاقا لمصدر لفناك

والبديل هو النضال العربى لاسترداد الحق المسلوب فى تضامن وإباء وسعى للموت :

أمة العرب حان وقت العراك ... فى سبيل الوفا وصون حماك
نحن جند يهوى الفداء ويهوى ... موتة العز فى ظلال رباك
سوف تدرى وسوف يدرى اناس ... عاضدوا الظلم فى سبيل شقاك

---

(8) احاديث عن الادب المغربي الحديث لعبد الله كنون ص 175 (مطبوعات معهد الدراسات العربية العالية ـ القاهرة 1964)

اننا العضب فى يديك وفاء لعهود مقطوعة لعلاك
اننا النار والدماء لقوم خذلوا الحق رغبة فى رداك
نحن قوم نرى الممات بعز خير فخر نحوزه وملاك

ويستغل عبد القادر المقدم مناسبة الاحتفال بالذكرى الثالثة لعيد الجامعة العربية وقد احيتها جمعية قدماء تلاميذ المدرسة الاسلامية الحرة بطنجة فينشىء قصيدة (9) يضمنها باقة مهداة الى فلسطين :

هذى فلسطين احضان مطهرة تأبى قداستها ان تؤوى الغربا
مأوى المفاخر بيت المجد منبته رمز التضامن لا آويت مغتصبا
مغنى العروبة مسرى كل قافلة من الاماجد من انجبتهم نجبا
ارضعتهم خلة الاسياد غارسة فى طبعهم خلقا كانوا به عربا

وتحدث الكارثة ويشرد اللاجئون فيعبر المرحوم التهامى الغربى كاشفا عن حزنه فى ابيات له من مقصورة حماسية حيث يقول (10) :

تجرى دموع العين بالدم على تشريد مليون فلسطينى اسى
جرعهم كأس الردى من اعتدى فجرعوها والجزا مثل الجزا

ولكنه يومن بحكمة الله التى تقضى بقهر الطغاة الظالمين ، ويومن بأن هذه الكارثة التى خلفت الالم والغيظ لا يمحوها غير الانتقام من العدو :

سبحان من حكمته قد اقتضت قهرا لكل معتد بما اعتدى
شفا النفوس وذهاب غيظها فى الانتقام من عدو قد عتى

* * *

---

(9) ديوان « لمحات الامل » ص 151 (المطبعة المهدية ـ تطوان 1948)
(10) اعلام الفكر المعاصر بالعدوتين لعبد الله الجراري (السيد الوالد) ج 2 ص 284 (الطبعة الاولى ـ الرباط)

* * *

وفى الخط الثانى يقف المرحوم مصطفى المعداوى بقصيدته « اغنية للنسر العربى » (11) ينظر من زاويه عربية ليعطى الثورة فى الجزائر وفلسطين وكل الاراضى المحتلة ابعادا قومية ، كما يتضح من هذا المقطع الملىء بالتعاطف والاصرار :

يا ايها النسر الجموح

انا لن اغادر معقلى حتى تهب بشارتك

وتمد لى ريش الجناح الناعم

انا لن اغادر معقلى حتى تعود

ويعود لى شرف الحياة

بموطنى ارض الجزائر

وبأرض يافا الطيبة

وبكل شبر مغتصب

وينظر محمد على الهوارى فى قصيدته « عائدون » (12) الى ذكرى اغتصاب فلسطين برؤيا يغلب عليها التشاؤم واليأس ، حيث يربط بين القضية الفلسطينية وواقع الاوضاع فى الوطن العربى ، فينتهى الى عدم جدوى التغنى بالعودة :

اخوتى لا تقولوا سنعود

وربانا وقرانا كلها ترزح فى ثقل القيود

لا تقولوها وفى ارجائنا نلمس اسلاك الحدود

---

(11) الديوان ص 37 (دار الكتاب ـ الدار البيضاء)

(12) ديوان « صامدون » ص 45 (دار النشر المغربية 1963) وانظرها كذلك فى مجلة « آفاق » سنة 3 عدد 3 ـ 1966

وفى شعار هتـاف يرى انه لن يحق لنـا التغنى بالعـودة ، ولـن تتحقق الا اذا اظلت العرب وحدة منبثقة من الشعوب :

اخوتى ، لا ، لا تغنـوا لاغانى العائدين

لا تغنوها وفينا من يبـيع اللاجئين

رددوها يوم تغدو ارضنا ملك الملايين

يوم يغدو شعبنا فى وحدة كبرى ابيـة

رددوها ، رددوها يوم نكون .

شعبنا يحكمه ابناؤه يوم نكون

امة واحدة تبعث فيها ثورة الذل الكمين

رددوا اذ ذاك « انا عائدون »

اما ادريس المليانى ، فعلى العكس من الهوارى ، يـردد اغنـيـة العودة فى نشوة بها وامل واصرار رغم كل العوائق (13) :

« سأرجع » يا للنـداء الشجى

،،، ويمتد صوت ندى

يشـق سكون السمـاء

يفجر من فل فيروز كالنبع حلو الصدى

« سأرجع » يا للنداء الشجـى

سأرجع يوما ولو شط بعد الفراق المزار

وطـــال ،،،

(13) اشعار الناس الطيبين (ديوان مشترك) ص 142 (مطبوعات رواد القلم ـ الدار البيضاء يناير 1967)

برغـــم البحـــــــار ...

سأرجع رغم المسافات رغم الجبال

ويحاول احمد المجاطى ان يعود الى جانب فى عمق المشكل ، وهو المتعلق بالهجرة اليهودية الى فلسطين فيتحدث عن « اكزوديس » (14) ، تلكم الباخرة التى اقلت على متنها دفعة اولى من الامريكيين الذين هاجروا الى اسرائيل، توطبنا للظلم والعدوان :

عبـــاب ، رجع موسيقى ، صراخ أ عنبر مهتـــاج

وتسكر من انين الجـــاز الف مليحـــة مغـــنـــاج

وتـــزحف اكزديس على ربيـــع ضاحك الامـــواج

فـــلا كـــثبـــان من سيـــنـــاء غلفهـــن ليـــل داج

ولا بيـــداء يصدى المـــاء عنـــد سرابهـــا الوهـــاج

سرى حلـــم تهيم على مواقـــع خطـــره الافـــواج

يلـــون ليـــل اسرائيـــل من اشراقـــة المعـــراج

وفى الوقت الذى يبقى الحق فى الارض المحتلة ضائعا لا يثـــار لـــه احد ، تمخر الباخرة عباب البحار ، وتتوقف فى الشواطىء لتلـــتقـــط من هنا وهناك صهاينة مبتهجين بتحقيق حلمهم بالسفر الى ارض الميعـــــاد كمـــا يزعمـــون :

دروب اللـــص نهـــر من دم يرعـــاه انـــجـــيـــل

تطـــل فتستـــهل اشعـــة ويشـــيـــع ترتـــيـــل

ولكـــن الذى يجـــرى : دم فى القـــدس مطلـــول

(14) مجلة « آفـــاق » غشت ـ شتنبر 1963 (للسنة الاولى ـ العدد الثالث)

فان قلنـــا غـــداة غـــد ، يـــدق النصر ارغـــول
اغار على جناح النسر فى انظلماء « شاويل » (15)
وتزحـــف اكزديـــس فى دمى والسيـــف مسلـــول
و « شمحة » فرحة فى الشـــط تنثرها المناديـــل

واذا كنا نلاحظ من خلال ما اوردنا موقفا يعتمد فيه شعراءنا على التضامن فى اكبار للنضال الذى يخوضه الفلسطيـــنيون وتحقـــير للعـــدو الصهيونى ، وفى فخر بالأمـــة العربية وقدرتها وتطمين ووعـــد بالنصر ، فاننا نلاحظ كذلك ميلا عند شعراء الخط الثـــانى الى التوســـل بالبعـــد القومى فى القضية الفلسطينية للتنفيس عن كوامـــن الـــذات والتلميـــح للقضايا الوطنية .

ولعله من غير قبيل المصادفة ان يبدو لنا الخط الاول مرتبطا بالقضية الفلسطينية حتى قيام دولة اسرائيل ، ومرتبطـــا فى نفسى الآن بعهـــد الاستعمار فى المغرب ، وان يبدو الخط الثانى متصلا بفترة تالية لكل ذلك ، وهذه ظاهرة لا شك انها تساعدنا على تأكيد امريـــن :

اولهما : ان المغاربة كانوا قبل الاستقلال ، ولا سيما بعد الخمسين ، ماخوذين بالكفاح لتحرير الوطن من الاستعمار .

والثانى : ان المد النضالى توقف شعوريا بعد الاستقلال ، وخاصة بالنسبة للاجيال التى كافحت لتحقيق هذا الاستقلال ، ولكنه انطلق مع تيار الشعر الجديد الذى ظهر به جيل الشباب .

ولا نريد ان نطوى صفحة ما قبل الهزمة دون ان نسجل فيها موقف الشعر الشعبى من القضية خلال هذه المرحلة ، متمثلا فى قصيدة المرحوم محمد العيساوى الفلوس (16) التى يقول فى حربتها (17) :

---

(15) شاويل وشمحة زوجان صهيونيان عرفهما الشاعر وتحدثا اليه عما يراودهما من حلم
(16) انظر كتابنا « القصيدة » ص 671 وانظر النص فى الكناش رقم 26 (مجموعة الكاتب الخـاصـــة)
(17) اى لازمتهـــا

ياولاد العرب افديو ارض لسـلام من ايدين اهل السبت الباخسين ليهود

ويستنهضهم ، وهم المعروفون بالنجدة والجود والقتال ، فى اسف على ما اضاعوا من فتوحات ، وفى تساءل عما اذا كانوا ماتوا او نسوا ما قدم اجدادهم ، وفى قطع بأن النجاح لن يتحقق الا بالكفاح المسلح ، وفى رفض لاى تباحث او تفاهم للتعايش مع العدو :

وين العـرب اهل العـز والمزيـا كل من رام احماهم ما يشوف تنكال

وين العرب اهل الجود والحميـا كل ما فتحو ضاع لهـم يالعقـال

وين نفس العرب هل لقنا ولحسام واش متو او انسيتو افعال لجدود

يالعرب اهل النجدا اصحاب لقتال مـا نجحوا الا بالسيف كيف كنـا

ما نقبلو لصحاب السبت شين تفصال غير كان احيينا فيهم كل سنـا

وكيف وقد شردهم الله فى الارض وكتب عليهم الذلة والمسكنة :

ربنا شردهم اعلى اجميـع لاكـام وهاب لهم الدل ذا العالى المعبود

وينبه الى خطر اليهود الكامن فى الخديعة والحيلـة والمكـر ، خدعـوا الرسل واثاروا الفتن والحروب بين الدول ، ولا يواجهون احدا الا هلك ، وهم بذلك لا يثاتون :

هما همـا هل لخديعـا والحيلات خدعوا لرسال واش بقى ينـتاقو

هما اسباب لحروب ما بين الدولات من رامولو اهلك سول من فاتـو

ولكنه لا يلبث ان يدعو الله ان ينصر العرب بجنده كما نصر اهل بدر :

ربنا ينصركم اعلى حرب العدال

— ◆ —

ربنـا ينصركـم اعلـى لعـدا ابجـنـدو
اكما انصر من احضر بدرين اعلى العديـان

موقف الشعر المغربي من القضية بعد الهزيمة

حين ننتقل الى مرحلة ما بعد يونيو 1967 نجـد الهزيمة قد الهبت الشاعر وبعثت وعيا بالقضية اكثر من ذى قبل ، انطلاقا من كيان وطنى متحـرر ومتطلـع لآفـاق قومـيـة تكتسـى ابعـادا ثـوريـة تختلف فتورا وفورة حسب الانتماء السياسى والتكوين الفكـرى وحسب الجيل ومدى الوعى بالقضية فى سير يكاد لا يخرج عن الخطين السالفين .

وقد اثار الحديث عن الهزيمة محاولات للتحليل والتعليل متفاوتة من حيث الرؤيا ومن حيث المنطلق والاستنتاج ومتأرجحة بين اليأس والامل والتشاؤم والتفاؤل . فالحلوى فى اول قصيدته « الجولة الاولى » (18) يـقـول :

كفكف الدمع ولا تجزع لما حـل	وخضهـا بـثـبـات وصمـود
جولـة كانت وما اكثر جولاتـك	يـا ثـائـر فى هـذا الوجـود

وهو مطلع قوى يدعو فيه الى عدم الاستسلام للحـزن واليـأس والى التثبت والصمود لخوض غمار جولات اخرى ، فالهزيمة ليست هزيمـة حرب وانما هى هزيمة جولة .

وفى استفهامات وتساؤلات قوية يذكـر الشاعر بحقيقـة العـرب وبماضيهم المجيد فى محاولة لرسم صورة لهم عملاقة ، مقابل تقليص حجم العدو الصهيونى الذى كتب الله عليـه ان يكـون ذليـلا فى الارض ، وهو لا بـد موف بما كتب :

هل درت صهيـون انـا عـرب	لا ولا ذلـت لجبـار عـنـيـد
كيف تخشى الاسـد فى آجامهـا	صولـة الاذؤب او زحف القـرود
هل نسوا ماضينـا فاستأسـدوا	ام نسـوا ماضيهم تحت القيـود
كتـب اللـه لـهـم فى ارضـه	ذلـة وهـو المـوفى بالـوعـود

(18) مجلة « دعوة الحق » سنة 10 عدد 9 ـ 10 يوليو ـ غشت 1967

وفى روح حماسى تفاخرى يخاطب العرب محرضا لهم على الثأر لرد العدوان اذا ارادوا الحياة واسترداد الحق ومحو عار الهزيمة ، ويدعوهم الى ضرورة وحدة الصف ، ففيها وحدها تكمن قوتهم :

يا بنى يعرب هذا يومكم لتعيشوا او تواروا فى اللحود

لا تضيعوه وفى اعماقكم صرخة الحق وثارات الجدود

واغسلوا العار ولن يغسله غير محو البغى بالزحف المنيد

وحدوا الصف ففى وحدتكم قوة تصهر دنيا من حديد

وهو فى كل ذلك متفائل بالفوز فى الجولة التالية وبالغد الحافل بالنصر :

ان يكن يوما علينا فلنا غدنا الحافل بالنصر المجيد

ولكن الحلوى فى قصيدة « بأية حال عدت يا عام » (19) يغلب عليه الحزن والاسى وهو يودع عاما ويستقبل آخر حيث العين باكية والقلب محترق والنفس موجعة بألم الغصة ، وقد كانت الايام فى سيرها ثقيلة مفزعة مذلة مهولة :

وداعا ، وملء الحنايا اسى وداعا ، وملء الفضا ادمع

نشيع ايامك الحالكا ت وفى القلب نيرانها تلذع

وفى كل نفس مرارتها وغصتها الم يوجع

ثقالا مشت ، تتحدى الجبا ل ، كالموت اهوالها تفزع

سقتنا باكؤسها كل صاب ب ، ومازال فى كاسها جرع

كستنا من الذل البسة سيبلى الزمان ولا تخلع

---

(19) الملحق الاسبوعي لجريدة « العلم » عدد 49 سنة 1 الجمعة 9 يناير 1970

فما فوق ذلتنا ذلة ... ولا تحت موضعنا موضع
عركنا الزمان واهواله ... وداهمنا فيه ما يفجع
فلا كخطوبك خطب دهى ... ولا هول من فتكها افظع

ويرى فى شبه تعليل لما حدث ان العرب فوجئوا برحى الحرب وهدير السلاح ، وكانوا نائمين عن العدو مشتتين :

دهى العرب خطب ترصدهم ... وهم فى المقاصير قد هجعوا
صحوا ورحى الحرب تطحنهم ... وهبوا وقد هدر المدفع
دهاهم ، واعداءهم كتل ... وثاروا واهواؤهم شيع

ومع ذلك فهو لا يفقد الثقة فى العرب وقدرتهم على مواجهة كل التحديات وعلى تحقيق النصر ، ولكن شريطة ان يوحدوا الصف ويكتلوا القوى والجهود :

ولكن قومى من صرعوا ... خطوب الزمان ولم يصرعوا
تحدى اباؤهم كل طاغ ... وعز على الخصم ان يركعوا
سيعرف قومى طريق الخلا ... ص اذا التحم الصف واجتمعوا

وبنفس متفائل يرى العرب عائدين الى اراضيهم وداخلين الى القدس ليجددوا بناء امجاد اسلافهم فى التاريخ :

سيزحف قومى الى ارضهم ... على الشوك يوما اذا ما دعوا
سنبنى كما كان اجدادنا ... ونصنع فى المجد ما صنعوا
الى القدس عبر كتائبنا ... وتحت البنود غدا نرجع

فما يظنه الصهاينة انتصارا ليس غير سراب لن يلبث ان ينقشع ويزول حين تظهر جيوش العرب فى الميدان لتحقيق الفوز :

ستقطف صهيون ما غرست وجندى من الله لا يدفع

فلا يسكرن بنصر سرا ب فعما قريب سينقشع

ستعرف صهيون اى غد عليهم جحافلنا تطلع

وفى « المحنة المنبهة » (20) يرسم المدنى الحمراوى لوحة كئيبة للمخازى والجرائم التى ارتكبها الصهاينة من قتل للنساء وذبح للاطفال وبقر لبطون الحوامل والتنكيل بالشيوخ والضعاف ؛ ولكنها لوحة تبدو منفصلة عن الشاعر لا نستشف فيها ملامح من ذاته واحاسيسه ، ولا نشعر فيها بأى تجاوب او تفاعل مع المناظر التى يصف :

روعت قلبا سناليا واسلت دمعا غاليا

واثرت شجوا فى الحشا يا مخبرا بل ناعيا

اودت فلسطين التى شغلت مدى آماليا

عاث اللصوص بقدسها وجنوا هناك مخازيا

كم قتلوا من نسوة فعلوا بهن مساويا

وامامهن بغلظة ذبحوا لهن ذراريا

بقروا بطون حوامل ورموا بهن عواريا

وعلى الشيوخ تجمعوا ضربا وقتلا ضاريا

وعلى ضعاف عالة صبوا جحيما حاميا

حسبوا التوحش مكسبا به يبلغون معاليا

لكنهم لو حققوا لراوه خزيا باقيا

وغدا يعود عليهم بوباله متراميا

(20) « دعوة الحق » عدد 9 ـ 10 سنة 11 ـ غشت 1968

وفى روح انفصالية كذلك يحاول المرحوم محمد الجزولى فى قصيدة « ايها القوم » (21) ان يستنهض العرب ويخرجهم من الصمت لمواجهة اعتداآت الخصم المتتالية :

ايها القوم الى ماذا السكوت وغدا القدس على القدس يموت
يفتك الاعداء فى اوطانهم وجميع العرب يا قوم سكوت

ويدعو بنفس وعظى الى افتداء الضحايا الذين يقعون كل يوم صرعى فى المناطق المحتلة :

اتقوا الله فقد ضاع الفدا فى غداء ولباس ومبيت
ان تفت نجدتهم فى يومنا انها فى غدنا ليست تفوت

ويزيد فيعبر فى قصيدته « منطق القوة » (22) عن اشفاقه على العرب لما اصابهم من الفرقة واللغو حتى غدوا مهددين بالفناء ، يتلاعب بهم الاعداء ويتقاذفونهم كالكرة :

نحن كالكورة فيما بينهم تارة نطفو وطورا فى الخفوت
ايها العرب افتحوا اعينكم واتقوا الفرقة واللغو المقيت
ليس فيكم مدركا موقفه بين ديان وشمسون الصايت
أيها الاقوام انى خائف تصبحوا يوما شتيتا فى شتيت

وفى غير وعى بواقع الاحداث وتطورها خلال ايام الهزيمة حيث لم يتح للمغاربة الذين توجهوا لارض المعركة ان يصلوا اليها لاسباب خارجة عن ارادتهم ، فضلا عن ان يشاركوا فيها ، يقول قدور الورطاسى قصيدته

(21) جريدة « العلم » الاربعاء 28 يوليوز 1971
(22) جريدة « العلم » الخميس 29 يوليو 1971

« جيوشنا المظفرة الى فلسطين السليبة » (23) . وفى مطلعهـا يبشـر بالنصر الذى ستحققه تجريـدة الجيـش الملكى المرسلة كالغيـث الى ساحـة النضـال :

فلسطين جاء الغوث يزحف كالقدر من المغرب الاقصى فبشرى لك الظفر

وهو فى تهديده للصهاينة بالخطر الماحق الذى تحمله لهم هذه التجريدة ، يشيد بالجنود المغاربة ويفخر بشجاعتهم وبطولتهم المتوارثة :

ستعلم صهيون من الاسد اسدنـا بأن عليها اليوم قد احدق الخطـر
بطولـة آبـاء تـوارث سرهـا على الدهر ابناء فحق بذا الظفـر
دمـاء تفـور كالبراكين فى الوغى ستمحقكم فى غير رفق ولا حـذر

وفور وقوع الهزيمة أنشأ عبد الرحمن الدكالى قصيدة (24) تحمل عنوانا انذاريا يقول فيه :

قولوا لصهيون اللعينة اننا سنكون بعد غد على ميعاد

وفيها يعلل الهزيمة بالتنكر للاسلام ومحاربة رجاله وعدم التمسك بما جاء به القرآن ، وما ترتب على ذلك من تفشى مظاهـر الجـرم والفسـاد واباحـة المحرمـات :

نرمـى وراء ظهورنـا قـرآننـا ونعيـش فى الاجـرام والافساد
ونحـارب الاسـلام فى أعلامـه ونبـيـح كل محـرم وفسـاد
عبنا على الاسلام ما اسدى لنـا من نعمـة الاصلاح والارشـاد

---

(23) الجزء الاول من شعراء المغرب الاقصـى وادبائـه المعاصرين لعبـد الله الجـراري ص 122 (مرقون)
(24) مجلة « دعوة الحق » عدد 8 سنة 10 ـ يونيو 1967

ويضيف فى التعليل لما حدث ما آل اليه العرب من تفرقة وتشتت بلغا حد القطيعة ، وتجنيد كل الامكانات والطاقات للشتيمة والسباب :

حرب الشتائم والنقائض بيننا ما شئت من مال لها وعتاد
داء الخلاف واى داء مثله قد هدنا بقطيعة وبعاد

وليست الهزيمة الا نتيجة طبيعية لذلك :

هاذى النتائج ما نرى فى مصر فى أرض الشآم واردن الامجاد
القدس بيت الله أول قبلة قد دنست بعصابة الاوغاد

وهو فى حلمه بالتكتل والوحدة لا ينسى أن يخاطب جلالة الملك الحسن الثانى ليشيد بمساعيه نحو لم شتات العرب :

الله اكبر يا سليل محمد يا ابن الرسول وخيرة القواد
الله اكبر كم دعوت لوحدة واخوة وتعاضد ووداد
حاولت جمع صفوفهم لمقاصد أسمى من الالقاب والافراد
حب لذات الله منك تحبهم والحب خير مقاصد الاسياد

وبعد سنة من الهزيمة وبمناسبة عيد المولد النبوى ألقى الشاعر الدكالى قصيدة « ذكرى وعبرة » (25) حاول فيها بعث روح النخوة والشهامة واثارة الاحساس بالكرامة فى نفوس العرب ، فخاطبهم مستعرضا شريط المآسى التى تعانى منها الارض المحتلة ، حيث تهدم الآثار وتدنس الاماكن المقدسة ويشرد الارامل والشيوخ والايتام ويلاقون شر المكر والعذاب :

---

(25) مجلة « دعوة الحق » عدد 8 سنة 11 - يونيو - يوليو 1968

ويــا قادة العرب الكرام الى متى   يطيب لنا فى الــذل مرعى ومورد
وتلــك اراضيكم تضـــج لحالهــا   يعيث بها الباغى الحقير ويفسـد
وفى المسجد الاقصى بأول قبلـــة   تهـدم آثـــار ويحقـر مسجـد
وتلك فلسطين الشهيدة كلهـــا   أرامل ايتــام شيــوخ تشـــردوا
يلاقون من خسف العدو ومكـــره   مآسى لا يقوى على حملها الصلد
وفى قـــبـــة الصخراء حيث محمد   الى الافق الاعلى ينــادى فيصعد
نرى زمرة الاوغاد شر عصابـــة   تهدم منهـــا مـــا تشـــا وتبـــدد

وهو لا يعتبر ما حدث الا لغزا معقدا :

سماحا اذا ما قلت حقــا بأننـــا   على مسرح الاحداث لغز معقـــد

وفى نفس المناسبة قال ادريس الجاى قصيدة « القدس » (26) . وقـــد بداها بتوجيه الخطاب الى الرسول عليه السلام فى اسى على ان ذكرى مولده كانت تحل فيفرح الناس الى حد البكاء من شدة الفرح ولكنها فى هذه المرة تعود وهم باكون من الحزن على نكبة فلسطين :

يا من أتى بيديـــه رايـــة الديـــن   والسيف يقطع اعنـــاق الشياطين
كنا لعيــدك نبكى قبل من فـــرح   واليوم نبكى على نعـــى فلسطين

ويستفهم فى استنكار عن الوضع المخزى للمسلمين اليوم وهم الذيـــن كانوا بالامس ينصرون كلمة الحق :

أيسحب المسلمون الـــذل خلفهـــم   وكم اعـــزوك فى بـــدر وحطـــين

---

(26) ديوان « السوانح » ص 99

ولكنهم استعانوا بالعدو وظنوه لقمة سائغة ، وهو جـاد مجـد يخوض معركة المصير يسانده اليهود فى جميع انحاء العالم وتـؤازره قوى البغى والعدوان ، بينما العرب مختلفون متفرقون :

من كان يحسب اسرائيل سائغة   للبلـع ، اخطأ فى ظـن وتخمين

القوم يا صاح جد ، اذ مصيرهم   أما الفـنا أو رسوخ فى فلسطين

وفى جميـع بـلاد الله آزرهـم   عبـاد عجـل وأنصار الشياطين

فكيف يرضى بنى قومى بتفرقـة   وتلك بلتنـا زيـدت على الطين

ولكن الشاعر لا يستسلم للواقع ، ويعود للتاريـخ ولمـاضى المسلمين فى القدس نفسها ملوحا بما كان لصلاح الدين مع ريشارد قلب الاسد ملك انجلترا وغيره أثناء الحروب الصليبية ، ممـا يجعله يستـرد تفاؤلـه ويستعيد ثقته بغد قريب يأخذ فيـه العرب الثـأر ويسترجعون الارض المغتصبـة :

القدس يشهد أنـا لا يطل لنـا   دم ، وما جدعت شـم العرانين

اما قهرنا (قلوب الاسد) فاندحروا   فكيف يغلبـنـا أبـناء غريون ؟

لكن غدا وقريبا سوف يعرفنـا   من بـات يحسبنـا بين القرابين

نعم غـدا سيدور الدهر دورتـه   ونأخذ الثـأر من شـر الثعابين

ونسترد بـلادا رغـم غاصبهـا   ولـو أحيطت بأفـواه البـراكين

وهو فى غمرة هذا التفاؤل يتوسل الى الله بحق مولـد رسوله العظيـم وبحق حفدته الكرام أن يطوى عن المسلمين صفحة الهزيمة حتى لا يشمت بهم الاعداء ، وان يجعل حدوثها مجرد عنصر ردع وزجر لا يستمر وأن يقبل دعاءهم المنبعث فى غمرة اليأس كما لبى دعـاء النبى يونـس (27) عليه السلام :

(27) وهو الملقب بذي النون ، والنون الحوت العظيم ، وسمي به لقصته معه حيث ابتلى ببطنه . وفى القرآن الكريم : « وذا النون اذ ذهب مغاضبا فظن ان لن نقدر عليـه فنادى فى الظلمات ان لا اله الا انت سبحانك اني كنت من الظالمين » (الانبياء 87)

رحماك ربـي لقد جلت مصيبـتنا　　حاشاك تسلمنا للذل والهـون
لا تشمتـن بنـا الاعداء شاينـة　　واجعل مصيبتنا زجـرا الى حين
يا رب فى ظلمات اليأس لب دعـا　　ء المسلمين كما لبيت (ذا النون)
بحق مولد خير الخلق أعدلهـم　　وحـق عترتـه الغـر الميـامين

وفى قصيدته « سوف نمحو العار » (28) يستهل بالاحياة للانسانية بدون العرب فى الطليعة :

لا تسلم الشمس ان تبزغ وان تغب　　ان لم تحى قبيـلا أمـة العرب

ومن ثم فهو يؤكد على النصر ثقة منه فى قومه ، وقد أفاقوا من غفوتهـم ونهضوا غاضبين مصممين فى جد لأخذ الثار وانزال الهزيمة بالعدو وطرده مهما كانت المساندات التى يتلقى :

ليعلمن بنو صهيون أن هنـا　　جدا ، وشتـان بين الجد واللعب
ليحمهم من أرادوا لا مفر لهـم　　من ثارنا مالهـم والله من هرب
اذا غضبنا فنحن الهول مندلـع　　وقد غضبنا فويل القوم من غضب
من حيث جاء بنو صهيون مرجعهم　　لا بـارك الله فى فـار ولا ذنـب

والملاحظ أن الجاى ــ كالدكالى ــ غالبا ما ينهى قصائده الفلسطينية بمدح جلالة الملك باعتباره امل العرب فى التحرير . ويكفينا ان نمثل لهذه الظاهرة بقوله فى آخر قصيدة « القدس » (29) وفى أعقاب ابيات توسلية :

يا أكرم الخلق من نرجو شفاعتـه　　اثـأر لمقدسنـا من كل ملعـون
بجاه ذا الحسن الثانى ابن فاطمة　　فخـر الملوك وحامى الدار والدين

---

(28) ديـوان « السوانـح » ص 61
(29) ديـوان « السوانـح » ص 100

بمثله فليباه العرب ان فعلوا ٬هذا لعمر العلا خير السلاطين
فليهنه ان كل الشعب ممتثل لأمره فى ليالى خطبنا الجون

وهو مثله لم يترك مناسبة دينية أو وطنية او قومية تمر دون ان يطرح قضية فلسطين على حد قوله من قصيدة (30) فى تحية جمال عبد الناصر يخاطب الرئيس المصرى (الراحل) وجلالة الحسن الثانى ، محرضا لهما على خوض معركة التحرير ، مثبتا مدى اصرار الشعب العربى على الاستشهاد فى سبيل العودة ومتوسلا بلوحة رسم فيها صورة للواقع كما يستمتع به العدو وكما يعانيه العرب فى قسوة ومرارة واستعباد :

قوما اطردا صهيون عن أوطاننا منهم كرهنا أعورا او اصلعا
وبنو الافاعى استعمروا جناتنا قوما لنكنسها الافاعى اجمعا
انا كرهنا أن تدوم خيامنا فى الذل تقطر باليتامى ادمعا
انا كرهنا رجعة بغنائنا من لم يغن بدمه لن يرجعا
الغاصبون الظالمون تفيأوا فى أرضنا السهل الخصيب المرعا
وبنو فلسطين الوئيدة حظهم جوع ونوع ، ما أمر وافظعا
وترى بقايا العرب فى أوطانهم لبنى القذارة سجدا أو ركعا

وهو بهذا الاستعراض المؤلم يستحث الهمم عسى يوجد من بين العرب رجال ينهضون للنجدة ويستخدمون السلاح بدل الكلام المنمق الجميل :

هذى الحثالة هزأتنا اينكم احفاد من شرعوا الحسام الاقطعا
انا صفعنا والنساء نساؤنا مازلن يرقبن الرجال لتصفعا
دعنى من الكلم المنمق لفظه انى افضل فى الخطاب المدفعا

(30) ديوان « السوانح » ص 82

والدعوة الى الحد من كثرة الخطب والكلام للاستعداد فى صمت ليوم الثأر والحسم أغرت الكثير من شعرائنا من مختلف الاجيال والمستويات ، على حد ما نجد عند حبيبة البورقادية فى قصيدة (31) تصرخ فى لازمتها بهاتيه الكلمتين :

كفانا كلام

كفانا خطب

وفيها تقول :

الا تعلمون بأن كؤوسكم مترعة

من الحسرات

الا تشعرون بأن حديثكم جعجعة

تروق العتاة

سئمنا الكلام

سئمنا الخطب

فما أحوج العرب يا اخوتى

لصمت حبيب

وما أجدر القدس يا شيعتى

ليوم رهيب

يشيب لهوله صبيتنا

فنشعلها لهبا فى قلوب

يهود تدنس تربتنا

(31) الملحق الاسبوعي لجريدة « العلم » 13 اكتوبر 1969 العدد 34 السنة الاولى

ويــمــضــى الــكــلام

وتــمــضى الــخــطــب

وبعدهــا نعمــر أطهــر أرض

يغطى اديمها أطهر قــوم

فنبنى لاجيالنا القادمات

صــروح المــعــالى

لخيــر الامــم

بــدون كــلام

بــغــيــر خــطــب

ولكن الحل كما يطرحه عبد الكريم التواتى فى « الثــورة الكبرى » (32) نصيحة للصهاينة بالفرار وترك الدار ، اذ لا قــرار لهــم فى ارض لا يربطهم بها نسب وهم عنها غرب :

صهيون مــا فى فلسطين لكم نسب   ولا مقــام ففروا واتركوا الــدارا

ثم ان العرب مصممون على افنائهم وابادتهم :

والعرب آلوا بأن يفنــوا قراصنكم   وأن يبــيدوا نواديكــم وآثــارا

وهو فى ذلك يذكر بماضى العرب المجيد وما كان لهــم فى التاريــخ ومسيرة القدر من سيادة وتحكم وتوجيه ، حيث سجلوا صفحات مشرقة كتبوها بدماء حرة لم تلبث أن تحولت الى اوتار تعزف عليها الاجيال :

ما للصهاينة الاشرار هل جهلــوا   آنــا مساعر خضنا الحرب اطوارا

واننا مــذ وعى التاريخ دورتــه   كنــا هداه ومــا نوحيــه أفكارا

(32) مجلة « دعوة الحق » عدد 8 سنة 10 ـ يونيه 1967

وانمـــا بدمـــا احراره كـتبـت سطــوره فغدت للكــون أوتـــارا
واننـــا وحدنـــا شدنـــا مشارفه فانقاد وارتجــز الامجاد أشعارا
واننا ان نرد شيئا جرى قـــدر بما نريـــد وقد سدنـــاه أدهـــارا

اما محمد العربى الشاوش فيرى فى روح دينى جبرى ان اللطف والعـــز مكتوبان للعرب ، وعدهم الله بالفتح فى قرآنه وقرر لهم المجد وهو ينصر كل من نصر دينه (33) :

اللـــه أكـبـــر فـمـــا اجـلـــه واكـبـــره
قـــد كتـــب العـــز لنـــا واللطـــف فيمـــا قـدره
ووعـــده بـــالفـتـــح فى قـــرآنـــه قـــد سطـــره
والمـــجـــد للاســـلام فى كـتـــابـــه قـــد قـــرره
وكل من نـــصـــر ديـنـــــ ـــــه الحنـيـــف نصـــره

وهو لا يرى الحل فى غير الصبر والحكمة ونصرة كلمة الله :

صبـــرا بنى العرب الكـــرا م المخلـــصـــين البـــررة
— ◆ —
بـــالصبـــر والحكمة يـقـــــ ـــــضـــى كل شعب وطـــره
ان تصبـــروا حقـــا تـنـــا لـــوا النصـــر ثم السيطرة
— ◆ —
ان تـنصـــروا الله تـــروا أوطـــانـــكـــم مـحـــررة

وفى نفـــس رومانسى حزين يبعث عبد الكريم الطبـــال بـــ « كلمـــات الى درويش » (34) يضمنها التحامه مع القضية من خلال استلهام صوتـــه الذى يملأ صداه كل مكان :

---

(33) مجلة « دعوة الحق » عدد 1 سنة 12 ـ نونبر 1968

(34) ديوان « الطريق الى الانسان » ص 60 (منشورات اصدقاء المعتمد 1971)

النخـــل والزيتون والادواح تسألنى

عن الصوت الذى ياتـــى

فيصمت كل صداح ، ويخرس كل قيثار

لأن الصوت فى الاوراق يمشـــى

فى الظلال يسيح . فى زهر الثمار

يـــطـــل كالاشـــواق

من احداق أم فى انتظار الفجر والصلوات

جـــروا ابنهـــا فى الليـــل

من احضانها ، من بيتها المعجون بالصبوات

بالاحـــلام والآهـــات والذكرى

بحب الزرع والاشجار والانهار والظل

وهو فى قصيدة اخرى يخاطب « يافا » (35) عازفـــا على نفس الوتـــر يصور احاسيسه نحوها وقد غزاها القراصنة :

يافا جزيرة كل احلامى . شراع الشوق يبحر فى عيونى فى دمى

شلال انغامى وصورة كل اطيافى وصوت الحب يدوى فى فمى

انا ان هجرتك يا ربيع العمر يا قيثار من غنى شجى الانغـــم

'لموج فى راسى فلا كاس بمجديـــة ولا رقـــاء مـــس مبـــهـــم

الدمـــع فى عينى فـــلا ورد ولا غيد بداويـــة لـــداء المغـــرم

الجرح فى صوتى فلا ضحك ولا شـــدو لسجاع يجود ببلســـم

فلأن شذاذ الطريق تأسدوا وهم البغـــاث وهم سلالة أرقـــم

---

35) مجلة « دعوة الحق » عدد 8 سنة 10 - يونيو 1967

من كل فج كالجراد المسخ جاءوا كالظلام الى بلاد الانجم

فغزوك فرصان السلام زعانف التاريخ سود المعصم

ثم يقول بعد أن يستعرض بعض مظاهر هذا الغزو ، مؤكدا تحديه ورفضه لواقع التشريد فى المخيمات واصراره على افتداء المدينة الباسلة بالروح يقدمها فى زحف الموت والاستشهاد :

يافا الحزينة اننا فى النار نمشي لن نعود الى خيام النوم

نمشى اليك الى الديار ولو شظايا ان صوتك فوق صوت المرجم

فلتنتثر اشلاؤنا ولتلتهب آفاقنا نارا كنار جهنم

لكننا لن نوقف الزحف الكبير فاننا قبر التتار المظلم

* * *

وموضوع الفداء شغل حسن الطريبق الذى يقف فى نقطة وصل بين الخطين اللذين رسمناهما لشعراء المرحلة ، فيعتبر « الفدائى » (36) مناط الامل حين يفشو اليأس وتتبلد الاحاسيس ، فيصوره باصراره مشعلا يشيع النور ويبدد الظلام ويبعث الروح ويعيد الثقة :

انما أروع الاماجد من ظل على كثرة الخطوب عنيدا

ان طغى السيل والتقت غصص اليا س وامست تزيدنا تهديدا

تنبت الحقد فى النفوس وتنقيه على افقنا كواكب سودا

ان خلا موطن الشهامة من كل ربيع وعاد كله بيدا

ان توالى انهزامنا فى الاحاسيس وعاد الشعور فينا بليدا

يحمل النور فى يديه ويلقيه على مفرق الشقاوة عيدا

(36) ديوان « ما بعد التيه » ص 43 (العرائش 1974)

يستفـــز الدجى ويزرع فى الافــ ـــق صباحا يظـــل فيــه جديـــدا

ويـــروى بـــالـــدفء كـــل ابـــى ظـــامىء للعـــلا ابـــا وجـــدودا

ويرسم الشاعر فى قصيدته « الى قافلة الفدائيين » (37) لوحة لهـــــذه القافلة وقد كللت هاماتها الوية تنشر فجر النصر ، وبدا رجالها اقويـــاء عاتين كالعاصفة ، ينقلون الراية من شهيد لشهيد مصممين على ابـــادة جيش المعتدين ، يصحبهم النصر فى كل خطوة ويحققون البطولات :

من هنـــا مرت سرايـــانا وقـــد قام يقفـــو اثـــر الركب الكسيح

وعلـــى هامـــاتـــهـــا الـــويـــة فى سراها فجـــر ذا الفرد يلـــوح

وعلى الافـــق بـــهـــا عـــاصفـــة من رجال كلهـــم عـــزم صحيـــح

تسلـــم الرايـــة منهـــم لطـــريـــ ـــح اذا عـــاد لبـــاريـــه طريـــح

ما استبـــيحت أرضنـــا الا وقـــا مت الى جيش الاعادى تستـــبيح

من هنـــا مرت كأطيـــاف منـــــا نـــا وفى الخطو فتـــوح وفتـــوح

ايـــه يـــا موكبـــنا الظامىء مـــا لـــك الا للبـــطـــولات جـــنـــوح

وفى نفس النقطة يقف عبد السلام الزيتونى ، مغرما بموضوع الفداء ، مأخوذا ببلاغات منظمة فتح تخبر بهـــا الاذاعة عن الاعمال البطولية التى يقوم بها الفدائيـــون فى الاراضى المحتلـــة ، فينـــشـــىء من وحى هـــذه البلاغات قصيدة « خمسة أجراس لفتح » (38) ، يقول فى اولهـــا معبرا عن نشوتـــه بـــهـــا :

قف هنـــا يـــا أيهـــا الصوت تمـــهـــل وتـــأنى

قف ودعنـــا نشرب الكلمـــة من صوتـــك دعنـــا

---

(37) الجزء الاول من « شعراء المغرب الاقصى » ص 75 وانظرها كذلك فى الملحق الاسبوعي لجريدة « العلم » عدد 57 سنة 2 ـ الجمعة 6 مارس 1970

(38) مجلـــة « آفـــاق » عـــدد صيف 1970

قد عطشنا لدم الثار وللافراح جعنا

لا تسارع قد يموت الموت يهرب منا

هذه ترتيلة الفتح تصلى وتغنى

كيف تطويها فلا تتركها تلثم أذنا

وينتهى الى استنتاج مفعم بالامل فى محو آثار الهزيمة واسترداد الارض وكرامة الانسان ، فيدعو الى التكبير لـ « فتح » :

لا تقولوا غدت القدس الى الغاصب مرقد

لا تقولوا قد علاها وهن ساق مجامد

واستبد الصمت بالالسن واستاء محمد

لا تقولوا أمل الامس توارى وبدا التاريخ اسود

هذه « الفتح » فكبر لهب النار توقد

تحصد الطاغى وتبنى فوق أشلائه معبد

وفى غمرة النضال الفدائى يستوقفنا عنيبة محمد الحمرى ليطرح القضية كما طرحها شعراء الخط الاول ، فيرى فى « حديث عن المعركة » (39) ان العرب لم يهزموا وانهم سيخوضون الحرب كما تعودوا ، ولكن النصر لن يتحقق بدون توحيد للصفوف ، ولهم فى غزوة أحد التى خسرها المسلمون بسبب سوء التدبير خير درس للاعتبار :

اذا وطن العروبة ديس يوما — فينا سحق السكوت بلا هدير

مع المستعمرين نخوض حربا — اذا قيل انتهت يوم النفير

فما فشلت جيوش العرب يوما — وما كانت لتفشل فى الهجير

---

(39) ديوان « الحب مهزلة القرون » ص 85 (مطبعة الاندلس ـ الدار البيضاء 1968)

ففى احـد اسـاء القـوم رايـا فكان النصـر فى كنـف المغيـر
فطبـع الحرب أن ينـهال قـوم ويركـن آخـرون بـلا نصيـر
كسبـنا الحرب يـا أعداء قومى بشـكل الام بـل قتـل الصغيـر
كسبـنا وحـدة عربيـة بعـد فرقتـنـا ،،، فهيـنا للمصـيـر
أيـا سفن العروبة اننـا رغـم اعـداء الضحى نحيـا فسيـرى

وهو فى « قصـة درب الخديعة » (40) يستحضر صفحات من تاريـخ العرب ليتساءل عن سبب الوضع المزرى الذى أصبحوا يعانون وعمـا يحول دون استرداد الحق المسلوب ، وهو لم يصدق بعد أن القدس ضـاع :

قد مزق العربى جيـش الكفـر من فرس وروم
خاض المعارك من قديـم كيف تأبـى أن تقـوم
بيـديك كنت تخيف تصنع من أصابعـك السموم
قـل لى : اتثقلك الشجون اليوم غضبـا والهموم

* * *

لكأنمـا كنت المدى المنـسـاب يحتـل البقـاع
بالقلب فيـك الكفر والايمـان ظـلا فى صـراع
والقدس يـا رمز الكرامة هل صحيح منـك ضاع
فمتى متى الركب العتيـد يبـيد أشتات الضياع ؟

ويعود بنا محمد أبو عسل الى واقع القضية فيحكى على لسان لاجىء (41) ما قصه عليه جده من احاديث حول الدفاع المستميت الذى لم يفـد فى الحيلولة دون الوقوع فى التشرد وحول روح الصمود التى مـا زالـت تتحـدى المعتـدين :

---

(40) نفـس المصـدر ص 89
(41) قصيدة « يوميات لاجىء » (مجلة آفـاق عدد 5 ـ 6 سنة 1967)

قال لى جدى وقـد اشعل قنديـل

داخل الكـوخ الكئـيـب :

هل عرفت الساعد الايمن من كان ،، ؟

نحـن حاولنـا الدفـاع

دون جـدوى

واستمتنا وتشردنا وصرنا

دون مـسـاوى

جيلنـا تـاه وجـاع

وعلى رغم الذى شاء اندثارى من زمان

اننى مازلت عملاقا طويل

وسابقى أبد الدهر شظايا من لهيب

اتحـدى تـل ابـيـب

وهو من هذا الحديث يستلهم القوة ليتحمل مسؤوليتـه ويقوم بدوره فى النضال بغير دموع ودون خوف من الموت :

وعذرت الجـد والدمع يسيـل

وعرفت اليـوم دورى

دور جيـل دربـه بالموت يزرع

دور فجر نوره لا بـد فى يوم سيسطع

لم يعـد جفنـه يدمـع

ويخاف القصف والحـتف ويركـع

غارة الاعداء فى عرق شهادة

اننى اقوى من الخصم اراده

وبادراكه مسؤوليته يرفض وصاية الآخرين وحماية مجلس الامن الذى لم يعد غير آلة صماء لا تحس بالمآسى التى يعانى منها الانسان فى الارض المحتلة ، ويزيد فيصب جام غضبه على قرننا المظلم الذى لا يختلف عن العصر البدائى بعقله الحجرى ، لما يحدث فيه من تشريد وتقتيل لشعب بكامله حتى من كان منه لا يزال فى الجنين :

مجلس الامن الذى يحمى قضائى

لـــم يعـــد فيـــه رجائـــى

صمـــتـــه الـــيـــوم دلـــيـــل

انه اصبح آلـــــة

صرخة الاحرار من اجل العدالـــة

لم تحرك خافقـــــه

منظـــر الانقـــاض فوق الابريـــاء

لم يصبب عرقـــــــه

قرنـــنـــا العشرون اســـود

جيـــــله اضحى معقـــد

انه مازال كالعصر البدائى

عقـــله العـــالم عقـــل حجرى

فكره الـــالم فكر حجرى

طالمـــا شعبـــى يـــشـــرد

انه وصمة عار فى جبين

كل انســـان يعـــين

من غدا يقتل فى البطن ،،

بويضـــات الجنـــين

اما محمد الحبيب فلا يرى القضية الفلسطينية الا من منظور ثورة عربية موحدة ، حيث يستهل قصيدته « مع الطلائــع الشهيــدة »،، من أرض الشــرف فلسطين العنقــود الاحمــر » (42) بالحديــث عن الموكــب الملهـــوب فيقـــول :

وحط الموكــب التــائــه

مـــن جـــديـــد

ملهـــوب الاضـــالـــع

مرهـــوب المـــطـــالـــع

فى أرض فلســـطـــين

ويخاطب الثورة الفلسطينية التى كشفت اقنعـــة التزييف ووضعت حـــدا للكـــلام :

يـــا ثـــورة شـــعـــب

بأرض الســـلام

هتـــك الاسطورة الكافـــرة

فى صـــك الوصـــايـــة

والمـــزاد العـــلنـــى

فى ســـوق الجـــرايـــة

---

(42) مجلـــة « آفـــاق » عـــدد خريف 1969

... واحترقت الخــطــب

ومـــات الــكــلام

وفى تعبير رمزى يتحدث عن هذه الثورة التى تشع بنورها على الكون كله :

تــمــردك الســاطــع

مــلــحــمــة

تستحم فى بحيرة الشمس

وعناقــيــد حــمــراء

فى دوالى القارات الخمس

ويــد نــحــاســيــة

تخنــق مواكب الظــلام

وفى التحامه مع الثورة يتساءل عن مكانه ودوره :

يــا ثــورتــى

أيــن مكــانــى

فى جناحك الضارب

فى حقيــبــة النهــــار ؟

أيــن اضــع يــدى ؟

احــط قــدمــى ؟

لا تتركى الموكب الملهوب

يلتهم الظمأ فى عروقى

لا تــتــركــى

التاريخ الاسمر

يحتقن دمى

لا تتركى أقدامى

المبتلة بماء البحر

تجتر أورامها

من خلفك

تأكل أظافرها

تنتعل المى

وايمانه بفعالية النضال الثورى يحثه على الامل والتفاؤل :

آمنت

تباما تنشحى جذور الظلام

فى الصدور العربية

وتموت الجرذان

والموميات

فى كهوفها القديمة

لن تخمد نوهة

لن تسلم ردهة

لن يخمد كفاح

وفى نفس الاتجاه وفى توسل بالرمز نجد احمد المعداوى يلتحم مع القضية ويشتعل ثورة وظمأ الى الموت ولكنه لا يدرى كيف (43) :

---

(43) مجلة « آفاق » ربيع 1969

رايتــك تدخنين الريح تحت عرائش العتمة

وتلتحفين صمتك خلف أعمدة الشبابيك

تصبين القبور وتشربين ، فتظمأ الاحقاب

ويظمأ كل ما عتقت من حب ومن أكواب

ظمئـنـا والردى فيـك

فأيـن نمـوت يا عمـه

وفي موقف يذكر بالموقف الذي اتخذه بعـض الشعراء المشارقـة الذيـ انهالوا على الكلمة يحملونهـا وزر الهزيمة ، يقـول محمد زفـزاف ، قصيدة منثورة (44) يثور فيهـا على الشعراء وعلى عواطفهم الملفوفة المفتعلة ، ويتحداهم أن يصنع قصائد بدون كلمات تكون اكثر فعالية :

ايـهـا الـشـعـراء

يـا اصحاب القصائد المقفـاة

يـا تماثيـل من التـبن

أتحداكـم جميعـا

واكتـب قصـائـد

محترقـات من البلاستيـك

من الميكا ومن جذوع الاشجـار

أهشـم القوافي

أدوس الخواطـر المصبوغة

بـدمـاء مـفـتـعـلـة

(44) مجلـة « آفـاق » ربيـع 1969

واذا كان زفزاف يعلن بثورته على الشعر عن رفضه للواقع الذى افضى الى الهزيمة فان محمد بن دفعـة يواجه الوضع بالسخرية والتهكم ، فيقول هذا المقطع من قصيدة « مكالمات صهيونية » (45) :

آلـو جولـدا

صمت العـرب

طوفى بالغرب مهرولة ، متسولة

صمت العرب

ما كان الصمت بعادة من

اقصى ما يصنعه الخطب

آلـو جولـدا

سكت العـرب

كاسـى لا أوشك ابصرها

صمت العـرب

ويكاد يجلجل فى اذنـى

من سيناء زحف خبب ››

وقبل ان ننتقل لانهاء هذا الاستعراض الى تناول مساهمة الشعر الشعبى فى اغناء موضوع القضية الفلسطينية ، نشير الى التجاوب الذى تلقاه عند الشعراء الناشئين وهم اكثر من ان يعدوا . ويكفى ان ننوه منهم باثنين وهبا العديد من قصائدهما للقضية ، وهما ابو بكر المرينى فى ديوانه « قالت لى الحرية » (46) ، ومحمد السعيد الرجراجى فى ديوانه « الحياة وانا » (47) .

* * *

---

(45) نفس المصدر

(46) الرباط نوفمبر 1971

(47) البيضاء دجنبر 1968

أما الشعراء الشعبيون فيقف فى طليعتهم المرحوم الحاج محمد بن عمر الملحونى (48) الذى طغت عليه عاطفته القوميـــة المتأججة فحالت بينه وبين النظر الى حرب يونيو من خلال حقيقة الهزيمة التى اصابـت العرب والمسلمين ، فهو يحمد الله على أن تالق نجـم الاسلام مضيئا فى الآفاق دون حد لنوره ، وعلت كلمة الله يسر خبرها جميع النفوس ، وظهرت أمة الاسلام فى برج النصر يؤيدها الله ، وقد توحدت جيوشهـا ووقفت متراصة على طول الحدود ، ونادى حظ النصر وظهرت بشائره فسعد من كان قريبا منه ؛ وهو يأسف لبعد المسافة ، ولو وجد لقطعها اجنحـة لطـــــار :

وبعدها يالامت لسلام الحمد لله اطلع النجـم السانى
وانـجلـى فالآفـاق بأن ضيـه مـا هو محـــدود

وارقات الكلما العاليا واخبارها سر النفوس يا جمع اخوانى
واظهـر شعـب الاسـلام ايـدو لخليـم المعبـــود

فى برج النصر شهدوه اجيوش لسلام جات من كل اوطان
واتحـدت الأمـا الـواقـفـا فمنـاهـج لحـــدود

نادى فال النصر وبانت ابشايرها يا سعد من اضحى دانى
ونـامـا صبـت اجنـاح ولـو صـال اعليـا مبعود

اليست دولة اليهود فانية منذ العهود الاولى للتاريـخ ؟ تنقصهم القيـادة الواعية ويخذلهم الله ، فتنهم فى الحياة واذلهم فى كل مكان ، وجعلهـم ضعفـــاء جبنـــاء :

مبطولا دولتهم ياهلى خلاهم طورا فى امـاج طوفـانى
لا رايـس واعـى القـاوا لا مـن بهـم ايلـــد

واخذلهم مولانا افلحيات افتنهم أذلهـم افكـل امكانى
واجعلهـم فالدنـيـا اكرايـف لكرايـف افلجنـــود

(48) انظر كتابنا « القصيدة » ص 365 و 673 (الرباط 1970) وانظر النص كاملا فى الكناش رقم 19 ص 13 (مجموعة الكاتب الخاصة)

ثم ، اليست شوكة المومنين قوية ؟ وعدهم الله بالنصر والغلب على اليهود مهما انتشروا فى الآفاق ، فما كادت تسمع بشارة الفتح الالهى تعم الامة الاسلامية ليهلك الطغاة كما هلكت ثمود من قبل ، حتى سطع نجم الاقبال وبدت علامات الفرح والسرور والسلوان تحيى النفوس والبيد ، ونهضت سائر الامم والاجناس لحماية بيت المقدس مطلقة اعنتها مستعدة للقتال :

شوكت هل ليمان اقويا اوعدها ربى بالنصر عل لجبانى
تغلب ساير ليهود لو اكساوا القفر المدود

مهما سمعت بشار الصهادا عم لسلام بالفتح الربانى
يهلك جيش امن اطغا رينا كيف اهلك ثمود

هانجم اليقبال بان شف اعلامات الفرح والسرور اسلوانى
شاع افكرها واحيات به لمهاج امع لبدود

قامت ساير لجناس ناهضا جات اتحامى اعلى البيت طلقت لعنانى
محتالا عل لقتال واكدا بطرارد وابنود

واليهود لا يؤمنون ، لا عهد لهم ولا ميثاق ، والاحمق هو الذى لا يحتاط من اعدائه ولا يحذرهم :

بالك تامن من خالفوا الحد ونقضوا لعهود
وكذاك الميثاق ليس فيهم اللى بنا ايشق يقر لمانى
لحمق من يامن فى اعداه ما ينما من لنكود

وقد بدأوا يطغون ويتجبرون ويسعون للفتن منذ مدة غير يسيرة ، ولكن الله سيهزمهم ويصون منهم البيت ويحميه :

خاوى محا ليهود باش زاغوا واطغاوا افرعنوا ورادوا لفتانى
ربى يهزمهم امن البيت ويصونو من ليهود

فارض الشام شرفها الله وأمنها من قديم ، لذلك فهو يرجوه ان يحميهـــا من اليهود الاجلاف :

الارض الشام الله شرفو من قادم للآن فيه ساير لمانـــــى
يا مولانا حرسو امن اجلاف الا ما ليهـــــود

واذا كان ابن عمر قد نظر الى الهزيمة بمنظار غير واقعى فأشاد بوحدة صف العرب وقوة جيوشهم وبتخاذل اليهود وتشتتهم وما نتـــج عن ذلك من انتصار اصحاب الحق وانهزام الاعداء المتعصبين فان الشيخ محمد بن الكبير المراكشى (49) كان أكثر واقعية فى النظر اليها ، وتأمل احداثهـــا والاعتراف بانتكاس العرب ولمس أسبابه الحقيقية . فهـــم مشـــتـــتون متنازعون ، فى حين أن العدو الى جانبهم يتربص الفــرص للانقضاض ، يساندده اخوته واصدقاءه يزودونه بالسلاح :

النزع ادهانا امع بعضنا بعض العدو امجنبنا يتسناتا
وامـــعـــاه لخـــوت سلحـــوه بتنابـــل للـــتـــخراب

والعرب فى حاجة ملحة الى الاتحاد وتوحيد الصف ماديا ومعنويا ، ومتى كانوا متفقين متراصين فان أحداً لن يستطيع مواجهتهم :

لازم للصف اتوحدوه حس امعنى نتاحدو الامن يقواتا
اذا كنـــا متوافقـــين مـــا يـــلـــحـتـــنـــا كـــذاب

أما اليهود فطغاة متجبرون ، وليس من يهلكهم ويمحقهم غير الله ، وهم اقوياء مستأسدون ومتحدون لمحاربة العرب ، وقـــد نجحوا بالغـــدر فى اهانتهم وتشريدهم ، واذا كانوا أقوى منهم فلأن اخوتهم وحلفاءهـــم يمدونهـــم بالعـــون :

(49) انظر كتابنا « القصيدة » ص 367 و 680 ، وانظر النص كاملا فى الكناش رقم 18 ص 25 (مجموعة الكاتب الخاصة)

ليهود اطغاوا اتجبروا اولا من يهلكهم غيرك العاظم مولانا
امحتهم ابلقـوا القادرا والسهم الرعــــاب

ليهود اتواوا اتمروا واتحدوا عن تتل اخوانا وقصدوا لهانـا
هاتونا هملونا اشردونا غـدروا لكـــلاب

ليهود القاوا اخوتهم عاتوهم ابقاوا اتويا عن اتوانــــا
قوتنــا هو انت او قوتك ما تحتاج اجعاب

وهم لم يستحوا من انتهاك الحرمات سعيا الى تحقيق امنيتهم ، سبـوا النساء ومكروا بالشيب والشباب ، واتخذوا المساجد مراقص ، واخرجوا العرب من ديارهم ، ونهبوا وشردوا وقتلوا :

ليهود انواوا ايحققوا امنيتهم اينكونا ايسبوا نسواتنا
بنـواع الفحش ايعاملـوا الشايـب منـا والشـاب

امساجدنا للرقص هيؤهم اولاد الفاجرين قصدوا منفاتـا
تقتلـوا نهبـوا لجوت شردوهم الكـل اعضـاب

وهو يرى ان المسلمين خدعوا في المعركة حيث نكل بهم العدو وتحداهم ، فكان مصابهم عظيما ولم يشاركهم فيه احد ؛ لذلك فهـو يلجـأ الى الله يرجوه اللطف بعباده الاسرى والانتقام من العدو وحلفائه ، فمتى نزل الضيـم بالعبـد فليـس ينـجيـه ويغيـثـه ويفـرج كـربـه غير خالقه الذي يرعاه بالليل والنهار :

لمصاب اعظيم اهل الدين لمتين اتخدعنا اولا امن ابكى لبكانا
اربـي يـا ربـي لطفك نرجاوك يـا وهـاب

عجل باللطف اعبيدك اسرى شوه بهم لعدو اراه اتحدنا
والقى من يحميـه واحنا نحمـا احمـاك الغـلاب

العبد الاينضام الا من ايغيثوا الا خالقو اولا سواه ايفاجى لكراب
ولكن لا بد من التعجيل بالتوبة والاستغفار حتى تكشف الغمـة ويشلي المـصـاب :

الله اهل لبسلام يادروا بالتوبا واستغفروا وطلبوا مولانا
يفجى هذا الغما اعلى لجميع ايشفى لمصاب

ولا بد كذلك ان يتخلص المسلمون من كيد الشيطان ، ويشكوه الى الله وقد عجزوا عن محاربته ، فهو سبب كل ويـل ، اغراهـم بالطمـع ، واستحوذ عليهم فغدوا له اعوانا ، وبعدوا عن الصدق ، لذلك فهو يرجو الله الا يحاسبهم وان يعفو ويسامح ويصفى ماءهم ويجعلهـم اخـوة متحدين :

اجعلنا من هل اليخلاص واحفظنا من كيد يبليس من قصد انكانا
لمن نشكوه غير لك ما طقنا له احـراب

هو السباب الكل ويل خدلو يا رب راه يطمع كاع ادانـا
كهرينا وليـنا اعـوان عنـدو واصدقنا غـاب

يا ربى يا ربى اولا اتحافنا يالكريم سامح اصفى ماتـنا
بـك اجعلنا نتحـدو ونضحاوا اللخـوت احبـاب

وقد اوصى الله المسلمين وانباهم بعداء اليهود لهم ، ونبههم الى ان من اتخذهم اولياء فهو منهم ، ولكنهم خالفوا قول الله وخضعوا لاهوائهم ، واتخذوهم احبابا واصدقاء وتزوجوا منهم ، فكانـوا بذلك عونـا لهـم علـى الـغـلـب :

لنا قال المولى لكريم راليهـود اعداكم ابهـذا وصاتـنا
خالفنا قـول اللـه كلنا درنـاهـم احـبـاب

من ولاهم الله قال هو منهم ابلا احيا اخضعنا لهواتـنا
وتزوجنا منهـم غلبـهـم كنا لـه اسـبـاب

ولكنه متفائل طالما ان كل شدة لا بد وان يعقبها الفـرج

الشدا يتبعها الرخا احنا نترجاوا تحقيق نصرك يوماتـا
رب اللطـف الخـافى انت المعـطـى من دون اسبـاب

ثم فيهم الخوف والجبن مادام الموت حقا على النفس ، وما دام الاستشهاد ضمانـــا للجنــة ؟

الموت اعلينا حق يلك من مات اشهيد اهنا او فاز ما يحتج اضمانا
راح اعريـــس الجـنــا فلاخــرا يا عــدو يسطــب

خـاتـمـة :

وبعد ، فانه يتضح لنا من خلال هذا البحــث ان شعراءنــا كانــوا حاضرين فى الساحة الفلسطينية فى تجاوب معها ترك فيما ابدعوا صدى ينم عن اهتمام وجدانى لديهم بقضيتها ، فى اطار الالتزام بالقضايـــا الوطنية والقومية ، وفى نطاق التعبير عما يعتمل فى صدورهم من احساس جماعى ، وفى حدود الاتصال بالانتاج الشعرى المعاصر المعبأ بالقضيـة الفلسطينية ، وكذلك فى حدود التأثر بالفعل الثورى الذى تمارسه حركة شعر المقاومة المرتبط بتلك القضية .

وداخل هذه الحدود ينصب التناول على مواضيع متشابهة تكــاد لا تخرج فى خطوطها العريضة عن النقاط الآتــيــة :

1 — رفض الهزيمة فى تحمس للعرب وفخر بالماضى المجيد

2 — نقد الواقع فى محاولة لتعليل ما حدث من منظور دينى عنـد البعض ومن خلال معطيات موضوعية عند آخرين ، يتلخص فى تشتت العرب وعدم استعدادهم وسوء التخطيط .

3 — التحريض سواء عن طريق الدعوة المباشرة التى تعتمد صيغة الخطاب او عن طريق غير مباشر بتهويل القضية والحديث عن الشهداء واللاجئين واستعراض ويلات الحرب والسخرية من العدو والاستهانة به او التـنـديد بــه .

4 — الاحتجاج للحق فى اتجاه دينى تاريخى

5 — الاشادة بالمقاومة وبقوة العرب

6 ـ التبشير بالنصر الذى يراه البعض محققا بفضل توحيد الكلمة والصف ويراه آخرون قدرا مكتوبا

وقد بقى تناول شعرائنا لهذه المواضيع سطحيا فى الغالب ، يعتمد على العاطفة والانفعال والوعظ ، ويعتمد على الخطابية والتقريرية ، بعيدا عن التمثل والموضوعية ؛ ربما لانهم لم يعانوا القضية مباشرة فبقيت عندهم مجرد عنصر يثير حاسة الابداع ، وربما كذلك لانهم قنعوا بالتعبير التصويرى الذى يكتفى بتحريك المشاعر والتأثير على الاحاسيس ، اذ لم يتعمقوا هذه القضية ولم يحاولوا الوصول الى اغوارها التى ظلت كثير من جوانبها غامضة عندهم ، ولم يحاولوا الوصول بالتالى الى الكشف عن التناقضات والمضعفات والملابسات التى كانت معرفتها لا شك ستساعد على تعرية الوجه الحقيقى للقضية . وهم فى هذا لا يختلفون عن الشعراء العرب الذين لم يوفقوا بعد الى تعميق التجربة والى طرح موضوع فلسطين بقوة ونضج فى مجال الابداع بما يساعد على خلق نمط تعبيرى جديد او تطوير الانماط الموجودة ، ولم يوفقوا فى النهاية الى اعلاء القضية بمكانة انسانية تتيح لها الخلود ، وان كنا لا ننكر وجود خط تطورى لهذه القضية فى الشعر العربى عامة .

ومع ذلك فمن الانصاف ان نقول بأن شعرائنا ، على الرغم من تأثرهم بالتصدع الذى احدثه لهم زلزال الهزيمة ، لم يسقطوا فى مهاويه ـ الا قلة منهم ـ ولم يقعوا متساقطين على اوتار الحزن واليأس ليوقعوا عليها بكائيات مفرطة فى النعى والنحيب ، بل ادركوا ـ ولو الى حد غير عميق ـ خلفيات الهزيمة ودوافعها وظلوا ينظرون الى القضية بايمان وتفاؤل .

وقد كان ممكنا لشعرائنا الشباب ـ بحكم عوامل كثيرة ـ ان يغنوا الموضوع الفلسطينى والشعر المغربى عامة لولا العوائق التى طرحنا بعضها فى مقدمة هذا البحث ، ولولا ان بعضهم سار على درب شعراء مشارقة غرقوا فى بحر الغموض والابهام عن طريق الرمز والاسطورة ، متكلفين فى غالب الاحيان ايحاءات ودلالات لا تشم منها غير رائحة الاغتراب والاستلاب ـ بالواسطة ـ لثقافة غربية ليس بينها وبين واقعنا والجماهير العربية اى رباط ، واذا وجد فهو مفتعل او

مقنع . ولو توسلوا بقصص التاريخ الاسلامي والاساطير العربية وحكايات الابطال الشعبيين وما اليها من الامثال والاغاني والمرددات مما يتداول الناس بعفوية وتلقائية لكانوا اقرب الى هضمها والتفاعل معها والاستيحاء منها ، والى القدرة على استعمالها واستخراج دلالات حية منها ، والى القدرة على التأثير بها — في التالي — على الجماهير التي لن تحس نحوها أي نفور او غربة .

وقد كان منتظرا من الشاعر الشعبي أن يكون دوره اكثر فعالية في قلوب الجماهير لتوسله بلغة ومفاهيم اقرب اليهم مما يستعمل الشاعر المدرسي ، وكذلك لاستمداده من اذدين طاقات ودلالات لها مفعول قوى وتأثير عميق في النفوس ، لولا انه بحكم ظروفه الثقافية والسياسية كن محدود الوعي وكان واقعا في براثن فكر جبرى غير مؤهل لرؤيا وتحليل سليمين ، ومن ثم كان تأثير شعره ابعد ما يكون عن التوعية الحقيقية بالقضية وبمختلف تناقضاتها . ولعل الشاعر الشعبي يوجد في النهاية غير بعيد من الشاعر المدرسي الذي كان هو الآخر غير عارف بالواقع وما يصطرع فيه من احداث ، فضلا عن امتلاكه والتحكم فيه وادراك سر مسيرة حركة التاريخ وفي النهاية تحديد الاطار الذي يمكن أن يناضل فيه ويستقطب الجماهير داخله لتعبئتها بروح المقاومة واستثارة هذه الروح فيها وهي روح غريزية في ذات الانسان المجبول على رفض كل اشكال الظلم والقهر والطغيان .

ومع ذلك فان شعرنا وادبنا المغربي عامة ، سواء منه المدرسي او الشعبي ، عبر — ولو الى حد غير بعيد ولا عميق — عن التحامه بالواقع الاجتماعي الذي يعايشه في تجاوب مع معطياته وتناقضاته وتفجراته وصراعاته ، وفي تفاعل جدلي معامله تبادل التأثر والتأثير في نطاق موقف ملتزم ذى ابعاد وطنية وقومية يحاول جاهدا وفي صدق ان يتحول الى قوة فعالة تطمع في ان تتعدى مرحلة تفسير الواقع الى مرحلة المساهمة في خلقه وتشكيله بالتحريض على تغييره في ارهاص وحدس يصلان الى حد التنبؤ بالمستقبل .

والاديب المغربي كان ابدا مشغولا بالقضايا التي تشغل الراى العام الوطني والعربي والاسلامي والانساني على الاطلاق ، وكان بالتالي

لا يتوانى — حسب ما يتاح له من ظروف وامكانـات — فى اداء رسالته والقيام بدوره وخاصة فى المراحل الحاسمة من تاريخه . ولعل اية مرحلة لم تبلغ من العنف والحدة والتحدى وازدحام الاحداث ما بلغته المرحلة الحديثة والمعاصرة التى اضطر فيها الى المواجهة لتحرير وطنه الصغير والكبير من الاستعمار ، على حد ما يثبت فى البعد القومى موقفه من القضية الفلسطينية التى تناولنا جزءا منه فى هذا البحث على امل اتمامه فى القريب من خلال الالتحام الذى كان له مع القضية فى حرب رمضان ، وعلى حد ما يثبت كذلك موقفه من الثورة الجزائرية التى ساندها وحثها على النجاح ، وقد تناولناها فى غير هذا المكان . اما فى البعد الوطنى فقد خاض نضالا طليعيا فى معركة الاستقلال ، وهو الآن بصدد المقاومة لتحرير الصحراء ومدينتى سبتة ومليلية والجزر الجعفرية ، وهى كلها مواقف اغنت ومازالت تغنى نضالية ادبنا بما يجعلها تحتاج الى دراسة نطمح الى انجازها فى القريب .

حقا ان حواجز كثيرة كانت مضروبة على المغرب ، وكانت تحول بينه وبين الاتصال المباشر والمستمر مع اشقائه فى مختلف انحاء الوطن العربى والاسلامى ، وحقا ان ضبابا مكثفا كان يخيم على ساحة الادب المغربى الى حد تعمية الرؤيا سواء بالنسبة لمنشئيه او متلقيه . ونتج عن هذا كله عدم اعتراف بوجود ادب عربى مغربى اى ادب متميز فى الاطار العربى بملامح شخصيته ؛ واذا اعترف به ففى نطاق الآداب المحلية المحدودة والهزيلة ليس غير ؛ فى حين ان ادبنا ، كما يتضح من الصفحة التى حاولنا طرحها منه فى هذا البحث ، وعلى الرغم من اتسامه ببعض الخصائص المحلية ، يشكل ركنا فى منطقة الادب العربى ، ربما كان هذا الركن قاصيا كما هو وضع المغرب الجغرافى ، ولكنه — وكما كان وسيظل — جزء من هذا الكل الذى يكون حركة الادب العربى ، وان لم يتح بعد لهذه الحركة ان تلم شتاتها المبعثر لتستجمع قواها وتنهض .

الرباط — د . عباس الجرارى

قصة

ابن الزاوية

عبد الكريم غلاب

دوت الرصاصة في الافق . رددت الجبال البعيدة صداها . الصدى الذى نسيته هذه الآفاق بعد ان كتمت انفاسه كتائب «تاليك» . . اصداء وأصداء رددتها سهول وجبال الاطلس الكبير فى السنوات الاخيرة ، ولكن صوت الرصاصة التي أطلقها ابن الزاوية كان نغما متميزا تتحسسه آذان المواطنين في الاطلس ، أصداؤه الذائبة في الفضاء حية قوية ، سمفونية صاخبة تملا آفاق كل مواطن وهو يذرع السهول والجبال، ويزرع الارض او يرعى الشياه ، يحتطب من الغابة او يسقى من العين .

وانتصبت القامة السامقة . عينا صقر تلتقطان الصورة . كانت الضحيتان تهويان . السيارة متوقفة خلف العين ، فى حجر الجبل. كانا ، كما يبدو ، زوجين اغراهما الظل والماء ، وقد اتيا من بعيد يقضيان يوم عيد الربيع فى المروج الحافلة بالازهار والشمس وحقول القمح المخضرة.

ابتسم الوجه الذى كان عابسا . امتـدت اصابعـه تعبث بشعيـرات لحيته الخفيفة . حرك عمامته الى امام . بدا لنفسه وكان رجولته اكتملت لاول مرة فى حياته . بحركة من اليد المطواع رمى ببندقيته فوق كتفـه ، واستدار ، ثم مشى . .

كان الجبل يخفى وراءه طريقا لاحبة راوغـت صلابتـه فاستـدارت تستجير بحجره كحية تتلوى بين احضانه . اخذ ابن الزاوية طريقه متصعدا الاحراش ،يتشمم عبير الربيع المزهر ، تتهافـت بين ناظريـه فراشات مزهوة بعيدها . كانت نفسه راضية وهو يستعيد الصورة . هتف ضميره:

ـ سائحان بريئان استئناما للامن فى ظل شجرة يرتويان من العين . ما ذنبهما ؟

ضرب الحشائش الناهدة بين قدميه فى عنف ، عصاه أهوت علـى رؤوسها الناعمة كانه يرفض ان تقف فى طريقه ، وهتف عقله :

ـ شباب القبيلة . هذه الجبال والسهول ، الانهار والعيون شهدت مصرع الكثير منهم . كانوا برءاء . أزواجا وزوجات ، فتيات ، فتيانا ، لم يؤذوا احدا . ارضهم ، بلادهم زرعهم ، غنيماتهم ، أحبوها . كانوا يسقون من العين او يلتجئون الى ظل .

اختنقت فى ضميره الكلمات وانطلق يصيح :

ـ الظلم ، الظلم . .

توقف قليلا ينبش بعصاه الارض المعشبة كما لو كان يبحث عن درهم ضائع. بقايا عظام. حيوان ؟ انسان ؟ لم يتوقف عقله ليجيب. خطا خطواته القوية. بدا الغضب على وجهه، وقد عادت العصا تضرب رؤوس الحشائش.

ـ هذه الارض التى اطأها ما تزال رائحة الدم تتصاعد من ترابها . أشلاء الضحايا سماد هذه الاشجار والحشائش، افترستها الطيور والحيوانات وما تزال بقايا عظامهم شواهد قبور .. (تاليك).

اسم تاليك قفز الى ذاكرته . يذكره جيدا . حدثوه وهو صغير عن جنرالات وكولونيلات حكموا المنطقة وحاولوا ان يذلوا رجالها . لا يذكر الاسماء ولكنه يحفظ اسم «تاليك». في الغابة وهو يساعد الحارس كان شبح تاليك يعيش بينهما. شيوخ القرى يعيشون في رعب من اسم تاليك. الأطفال ترتعد فرائصهم كلما ذكروا امامهم اسم تاليك. شبحه مهوم في الغابة لا تستطيع امرأة ان تقتحمها لتلتقط بعض اعشابها حطبا. شبح تاليك في كل مكان . حتى حارس الغابة كان يذكر اسم تاليك اكثر مما يذكر الله .

تداعت الذكريات : قبل سنة او تزيد .. لا يعرف السنوات وانما يعرف المواسم . كان ذلك قبل الحصاد . الزرع كان ما يزال طريا في سنابله، الجبال بدأت تكتسي حلتها المضيئة، ذابت الثلوج من قمم الاطلس، اندفعت المياه في العيون والسواقي . ما يزال يذكر ذلك : اشتكت قبائل (آيت الربع) من اغتصاب ارضهم ، لم يستطيعوا ان يدفعوا ثمن مياه السد ، وكان جوابه : فصائل جيشه تقطف الرؤوس التي أينعت في اولاد سعيد .

بصق على الارض في مرارة :

— رؤوس خراف لا رؤوس رجال . .

طوقت القبيلة . منع عنها تاليك ان تحصد زرعها او يتنقل رجالها الى حيث يعملون ، منع النساء ان تحتطبن او تسقين الا في سر . اهان جيشه النساء والرجال ... وعاد الهدوء .

ما يزال يذكره ببطنه المنتفخة وجسمه العريض ورأسه المدورة وصلعته الخفيفة ولونه المائل الى السمرة . كأنه ابن تادلة . من شمسها المشرقة اكتسى وجهه السمرة حتى يبدو وكانه ابن القبيلة . يذكر ملابسه العسكرية ، وشارة الرتبة على صدره ، وعصاه القصيرة. كان يحملها حينما يتجول في سيارة «جيب» عسكرية — هي مكتبه الرسمي — وكأنه ينش بها على الاغنام :

— ادفعوا ضرائب الماء او اخرجوا من الارض .

وهتف شاب :

ـ لانريد ماء .. يكفينا ماء الله .

وبلهجته التى تقترب من لهجة القبيلة :

ـ ماء الفرنسيس يسقى ارضكم لتزرعوها قطنا .

وهتف شاب آخر :

ـ يكفينا الشعير والقمح .

انفجر البركان . لم يكن احد يدرى كيف يحد من ثورته ، ولم يكن أحد يعرف انها ثورة مصطنعة . ولكن الذى عرفوه بعـد ذلك إن الاوامر صدرت للقبيلة :

من لم يدفع ثمن الماء سيخرج من الارض .

المقدمون والشيوخ كانوا يبلغون الاوامر .

كانوا ينصحون :

ـ بيعوا الارض ان لم تستطيعوا الاداء .. ستغتنون ..

أسبوع واحد وبدأ الاجلاء .

وعرفت القبيلة ان تقول مرة اخرى :

ـ لا . .

وكان تاليك يرد على «لا» بنعم .

عاد ابن الزاوية من رحلته البعيدة . بصـــق فى مـــرارة على الارض وصوت مدو يهتف من اعماقه :

ـ لو كانوا رجالا . .

هو الهتاف الذى امده بالعزم حينما اهانه حارس (بونوال) كانت اهانة باسم تاليك . وكانت « لا » هي التي رفعت يده بالموسى لتستقر فى قفـا الحارس ، ولتستقر بندقية الحارس على كتفه .

ـ هاهى ذى بندقيته تمكننى من رجولتى . لن اكون ابن الزاوية اذا لم احرر «بويكنيفن» .

تباعدت خطواته وهو يصعد الجبل، تخطى القمة ليشرف على الطريق في منعرج حاد ، توقف كخبير يقيس المسافات ، يرقب بنظرات حادة المنحدرات والمرتفعات . هذه الشجرة الفارعة بعرفها ، كم استظل بظلها الوارف وأكل من «جوزها» . في ظلها يقف مرة اخرى ، يحيط بندقيته بكفين قويتين يسند مؤخرتها على كتفه، يزوي بين حاجبيه، يسدد نظرة ثاقبة بعين مفتحة، تجمعت فيها كل قوى العين المغلقة، على مسيرة مبصق النار ، كان في مكانه بحيث يرى ويحدد ويصيب الهدف .

أسند ظهره على الجذع الضخم للشجرة العجوز ، أقعى وهو يبحث في مزوده عن لقمة خبز هي كل زاده ، اختلطت بمجموعة رصاصات كانت كل زاد بندقيته ، كان الهدوء يلف الجبل. طنين ذباب وزقزقة طيور وتهويمة فراشات . لم يشعر بالوحدة . بندقيته رفيق مريح . قضم قضمتين من الخبزة الجافة ، هرش شعيرها بأضراسه القوية ، يتملى من لذتها كما لو كان ياكل خبز شعير لاول مرة .

دوت من بعيد اصوات محركات تخترق الهدوء ، تتلوى مع الطريق ، تراود الجبل فيحتضنها في حنان، تتصاعد اصداؤها مع الجبل كما لو كانت نغمات مثيرة. سيارات قادمة من ازيلال الى أوزول . امتدت اليدان القويتان الى البندقية في خفة ، انتصبت جعبتها نحو المنعرج الحاد . عين صقر تتجه مع القصبة الهادئة نحو الهدف . انفجر الجبل :

طخ .. طخ ..

دوت الاصداء في الآفاق . ترددت في اذنه وهي تتلاشى . وتستعيد كيانها كما لو كانت تابى على الفضاء ان يمتصها ، ثم تتلاشى . ابتسم الوجه العبوس. كانتا سيارتين تنوءان بحملهما . توقفتا . ابصرت عيناه السائقين وهما يتهاويان على المقود . تجمد ركاب السيارتين لحظات قبل ان تحركهم الفاجعة. انفتحت الابواب لتطل منها رؤوس في تلهف. كانت رؤوسا يانعة وآن قطافها . انطلقت الرصاصات تهوى بها على الارض المشبعة بدماء الشهداء .

ــ لن تكون ابن زاوية آحنصال لو أفلتهم . .

هكذا حدثته نفسه وهو يلقي النظرة الاخيرة على بلاط المعركة ، ويدير ظهره ليصعد الجبل .

في مسيل ماء بارد ينحدر من قمة الاطلس امتـدت كفاه ترويان ظماه اللاهب . وتذكر ، كأنما كان قد نسي الماء : توضأ . استراح لبرودة الماء وهو يغسل أطرافه ورأسه ويعود ليجرع جرعات قوية من ماء لا تعرف مثل صفائه غير اعالي الجبال .

وقف يصلي وعيناه مصوبتان الى بندقيته التي نصبها كمحراب فـي اتجاه القبلة . كان مطمئنا وهو بين يدي الله . يعـرف ان الجبل حصـن للخائفين ، ولم يكن خائفا ولا مرعوبا فقد عرفت تادلة في سهولها وجبالها ابن الزاوية ، ولم تكن عينا أحد لتمتد اليه بسوء .

انطلق في الجبال وبندقيته على كتفه كما لو كان يقوم بعمل مشروع. لم يفكر في أن عمله غير مشروع ، كان من قبل يساعد حارس بونوال . يتبعه حيثما سار ويخضع لتعليماته وأوامره . البندقية على كتف رئيسـه لاتريم ،وهوينظر اليها في شوق .

ـ متى . . ؟ متى استطيع ان احمل هذه البندقية . أتجول بها في مثل الحرية التي يتجول بها موحى ؟

ظل الامل يراود مخيلته . .

كان يصد الذين يعتدون على الديار عن ان يستمروا فـي اعتداءاتهم. هكذا كان يفكر كلما ارتسم امامه السؤال : لماذا ؟

التلال والجبال والطرق المنعرجة عرفت اقدام ابـن الزاوية ، رددت أصداء طلقاته النارية . الاكواخ والدشور تعرفت عليه لاجئا يطلب «ضيف الله» كلما اضر به الجوع أو داهمه الليل بعد اعياء .

لم يكن يفكر فيما وراء الجبل ، فقد كان يصرع ضحيته ثم يمشي .

ـ لم يكن مضيفي يسألونني : من اين ، ولا ما وجهتي ؟ لم تثرهـم البندقية التي كنت احملها في غيـر تستـر على كتفي . كانوا يذكـرون المجاهدين ويتوقعون دائما ان يمر بهم مجاهد . . كنت اطمئن اليهم ، أنام

ملء جفوني ، بندقيتي بين ذراعي . كنت أحس بأن عيونهم ترعاني ، مـــا شككت في انهم يظلون في حراسة الكوخ. كانت عيونهم معلقة بي وأنا اصلي الفجر قبل ان اودعهم .

هكذا استمع رفاق الزنزانة في سجن الدار البيضاء لابن الزاوية وهو يروي ما حدث .

طوع الجبال التي احتضنته غازيا وحيدا . كان يعرف كل شيء فيما وراء الجبال . المنطقة كلها تعرفه : بني ملال ، قصبة تادلة ، الفقيه بـــن صالح ، القصيبة ، تاكزيرت ، القبائل كلها تعرف ابن الزاوية : آيت الربع بني عمير ، بني موسى ، أيت السرى ، أيت سخمـــان ، العـــرب والبربر يحترمون ابن الزاوية يقدره رجالهم، تنظر اليه نساؤهم في روعته وفحولته كسيد من سادة المنطقة المرموقين .

أرهف السمع الى حديث الزنزانة . كان الرفاق يتحدثون هذه المرة وهو يصغي :

ـ ازداد توتر الجو . . شعرت سلطات الاحتلال ان جيشا انطلق فـــي الجبال يقنص الاوروبيين في طرق الاطلس . .

ارتفعت يده الى طاقيته تدنى منها على جبهته . ارتسمت ابتسامة رضا على الوجه المعروق ، لم يكن يفهم كل ما يتحدث به الرفاق ، ولكنه أدرك أن جيشا انطلق في الجبال . كاد يهتف :

ـ كنت وحيدا . . .

وتذكر الفقيه . ترى اين هو ؟ في احدى هذه الزنزانات المنتشرة في الابهاء؟ . كان شجاعا وهو يبحث عن رصاصات يسرقها لمن حراس الغابة و«مخازنية» المكاتب ثم ينقلها اليه وهو يراوغ مراكز الخطر . كان ينقل اليه أخبار الاضطراب في صفوف قوات الجيش، كان يمده بالطعام كلما زاره في الاحراش والجبال ويبصره بمواقع الخطر حتى يتجنبها . كـــان يشد مـــن عزمه وهو يتلو عليه آيات الجهاد في القرآن .

ـ لم اكن افهمه . . .

اعترف بذلك ، ولكنه كان يفهم انه يبشره بالجنة . .

ما يزال متطلعا الى مزيد :

ـ توزع الدرك فى الطرق يفتشون السيارات ويحققون مع الراجلين. ارتفعت الاصابات فى غير مكان . لا احد يدرى من اين ؟ أخذت فرق الجيش تطوق الجبل .

استدرك ابن الزاوية :

ـ رأيت طلائعها فى «أزيلال» لكنى رحلت الى «تاكزيرت» . . كنت بعيدا عن متناول ايديهم .

ابتسم وهو يضيف :

ـ كان الصيد ايضا ثمينا . . عشرة من «الكاورية» سقطوا .

اكتسى الوجه المعروق حلة الغضب . بدأ التعب والجوع ياخذان منه وهو يفكر :

ـ هؤلاء الذين ينامون ملء جفونهم . لو امتلات بهم الجبال والسهول والوديان لترك «النصرانى» الارض وعاد من حيث أتى . .

حزم لحيته الخفيفة الطويلة بين سبابته وابهامه ، صاح الى نفسه وأذناه تسمعان :

ـ سيفهمون . . الرصاص يفتح عقولهم وان لم يصل الى آذانهم . .

قال كلمته ومشى . يطلق الرصاص ، يصلى ، يتبلغ بخبز الشعير ، ويشرب الماء . .

كان على موعد مع منعطف جبلى . من بعيد اخذت مرتفعات الجبال تردد أصداء نباح كلاب ضارية . عيناه لا تخطئان النظر كانت فى ملتقى نظراته والآفاق تردد أصداء نباحها .

ـ لم تكن كلاب القرى ولا كلاب الجبال ولا كلاب الصيد . أعرفها جميعها .

وابتسم رفاق الزنزانة وهم يصغون . ابتدره أحدهم

ـ الكلاب البوليسية . .

ـ البوليس لهم كلاب . . ؟

كانت تتشمم التربة وتجرى كانها على موعد مع فريسة.

كان ضنينا برصاصه، ولكنه أدرك ان الكلاب غير مامونة فصرعها من بعيد .

قال محدثه في الزنزانة :

ـ بذلك قطعت حبل البحث عنك . كانت الكلاب تهدى كتيبة من الجيش تتبع خطاها . .

لم يفهم ، ولكنه لم يقم وزنا لهذا الحدث . كان يعرف انه لن يقع أسير الجيش ولا اسير الكلاب .

اغذ السير وهو يصاعد مع جبل تاكزيرت. أرهقه التعب والجوع.

ـ الفقيه تغيب يومين كاملين . لا اكل ، لا زاد للبندقية . ما تزال في «الشكارة» البركة . . لكن لو تأخر أكثر مما تأخر ؟

الشمس تزهو في ضحاها . الجبل الاشم يطامن من صلابته فينكشف عن منفرج. هنا عين اعرفها ، ملتقى الساقيات ، والغاسلات، والمستحمات..

ابتسم لنفسه على ذكرى طافت بخياله . ما يزال يذكرها : كانت صبية فاتنة ، اخجل حياءها ، وشبابه يتلصص بين الاغصان الفارعة . فضحته خشخشة الاغصان . سارعت الى ثيابها وفرت كظبية ، لم يعثر لها بعد على اثر..

قصدالعين . كن كثيرات . طلب ماء . كان مضطرا ان يطلب طعاما وجوارا . .

ـ آمولاى الحنصالى لا امان هنا، عد من حيث أتيت انهم يبحثون عنك ومضى . .

اسدل الظلام رداءه على كثبان تاكزيرت . تصاعد ضباب خفيف كاد يمنع الرؤية ، حتى عن العينين الحادتين ، وقد ألفتا ان تهتديا فى إنظلام. من بعيد كان شعاع باهت يضيء ثم يختفي . نار او نور ؟ لا يدرى. ولكن الانسان هناك. شدد العزم على ان يقصد الشعاع . الجوع والامن من الكلاب التى لا يذكر قط انه رأى مثيلا لها ، وشعاع امل يدعوه ليلتجيء ، وعشرة أيام من التصعيد والنزول . الرصاص بدأ ينفد .. الفقيه لم يعد .. وما خرج من كوخه ليعود . سيبحث عن الرصاص بنفسه ان لم يعد الفقيه حتى فى المعسكرات حيث كان يتزود به المجاهدون .

اسرع الخطى واقترب من الشعاع الباهت . نباح كلاب الفيفة جانعة ام تثره ، ولكنه مع ذلك نادى وكأنه يستأذن :

ـ آعمى محمد . .

استجاب صوت قوى شاب

ـ من هناك ..؟

ـ ضيف يستجير

لم يكن ينتظر غير الترحيب الذى استقبل به. غراف لبن وخبزة شعير ومأوى بسيط .. ونظرات مريبة للبندقية التى استراحت بجانب مضجعه وهو يصلى .

ـ عند الفجر أفقت على همسات متناثرة اسمعها من أمام وخلف الكوخ لهجة لم اسمعها قط . ذكر اللغة التى كان يتحادث بها حارس «بونوال» .

وسأل رفاق الزنزانة :

ـ ألم تكن تتوقع ؟

ـ الغدر ليس عندنا فى القبيلة . نخالف ، نحارب ، يقتل بعضنا بعضا ولكن احدا لا يغدر بمستجير او ضيف ...

امتدت يداه فى خفة الى البندقية التى باتت فى حضنه . فتح باب

الكوخ ويده على الزناد. فى غبش الفجر تميز عشرات من الجنود برشاشاتهم المشرعة . القبطان روسو يطلب منه ان يستسلم .

لم يكن يتوقع المصير بهذه السرعة ولكنه كان ينتظره. عشرات من أبناء الزاوية خرجوا من القرية ولم يعودوا . ويوم خرج لم يكن ينتظر ان يعود . .

ـ نحن ابناء الزاوية نحارب ولا نهين . ويوم نغلب نعف ، ولكنا حينما نغلب نعترف بقوة عدونا ، ونضع السلاح ..

وتساءل احد رفاق الزنزانة :
ـ كان يمكنك ألا تضع السلاح ، فالمصير معروف وهو ينتظرك ..؟

فكر ابن الزاوية قليلا ، وهو يجمع شعرات ذقنه الطويلة بين ابهامه ووسطاه ويرفعها الى فمه كما لو كان يقبلها او يعلن اعتزازه بها. سبحت عيناه الحادتان فى فضاء الزنزانة حيث لا فضاء . بدا كأنه من الصعب أن يواجه منطقا لم يعرض له . يعرف انه تصرف بالغريزة وتقاليد النضال والفروسية . أشرقت عيناه بابتسامة وقد اوحى اليه بالجواب ..

ـ لن أمكن خصمى من شرف الشجاعة . سيقتلنى مقيدا دون سلاح.. تاليك يفعل ذلك . .

رمى البندقية من يده بعيدا ووقف مرفوع الرأس . روسو يتقدم منه فى حذر يمناه على زناد مسدس ضخم . بدأ جندى يفتشه فى عنف . لم يكن يلبس غير قميص وسروال ويتحرف بمزود ما تزال تقتعد فى جانب منه بضع رصاصات تختلط بفتات الخبز والموسى التى عرفتها قفا الحارس. جرده الجندى من مزوده والقيد يطوق يديه .

دفعه من وراء . المسدس مشرع فى ظهره .

لم تفتنه الهزيمة عن ان يتلفت نحو الكوخ ، بصق فى وجهه بمرارة. كان يود لو رأى صاحب الكوخ. لم يكن هناك . . .

على باب الادارة فى بنى ملال كان صفان من «المخازنية» بعمائمهم البيضاء تتقاطع طياتها فى حدق . بنادقهم مشرعة . عيونهم تقذف مزيجا من الحقد والغضب .

ـ لم اكن اعرف واحدا منهم . كلهم من القبيلة . لم اسيء اليهم. قمت بما كان بجبأن يقوم به كل منهم . لماذا يحقدون ، لماذا يغضبون ؟

كاد يبصق في وجوههم جميعا .. عيناه الحادتان تفرستا فى وجوههم. سيل من الاحتقار كاد يصعقهم .

ـ ماذا لو تركوا تاليك يحمي نفسه ؟

أيد قوية من ورائه تدفعه فـي عنـف . اشتد العنف كمـا لو كانـت تتعجل وصوله.

لم يكن يدرى الى اين يساق . سمع عن الذين صعـدوا الجبل ولـم يعودوا، لا يدرى احد مصيرهم ، لكنهم لم يعودوا، عرف انه لن يعود، ولكن الى أين يساق ؟

ضجت القاعة وهو يدفع اليها . أصوات من هنا وهناك . رؤوس شابة تطل ثم تختفى ، وجوه شقر ، عيون زرق وخضر مذعورة تفتح على ابعادها في وجهه. القاعة تكاد تمتلىء . ضوضاء . كلهم يتحدثون لغة لا يفهمها ، بعضهم يحدق في وجهه ، آخرون يولونه ظهورهم . القاعة تكـاد تفرغ . يخرجون. رنين مزعج يصم الآذان. احدهم يتحدث.. يتوقف الرنين، وحده يتكلم. يشد نفس دخينته في عنف. ينفث دخانه. منتصرا ، منهزما ؟ لا يدرى . لكن الصرامة ، الحدة تطبع الوجه الاشقـر والعينيـن الزرقاويـن والبذلة العسكرية .

قرع باب ، انفتح في عنف ، دخلت الجثة الضخمة ذات الوجه الاسمر فى خطوات منفعلة قوية ثابتة . وقفوا جميعهم . بكلمة ـ بدت لابن الزاوية صارمة ـ جلسوا جميعهم . تطلعت عيناه المثقلتان بالسهاد والحقد والالـم والغضب و«بولعوان» ، اصطدمتا بالعينيـن الحادتيـن القويتين المعتزتيـن الصافيتين . انهزمت العينان الحاقدتان ، تشاغلـت اليدان المضطربتـان تقدحان وقيدة فى الغليون الخابى . تحاملت العينان المثقلتان على نفسهما، حاول ان يملاهما اعتزازا وفخرا وانتصارا واحتقارا لتصطدمـا مرة اخـرى بالقامة السامقة تمتلىء رجولة وشهامة . ترسبت النظرة الحاقدة فى الوجه الجرئي .

ـ أعرف هذا الوجه .. لا ادرى اين رأيته ؟ هو بطوله ونحافته وحدة نظراته واكتمال شخصيته . . اين . . اين ؟

وظلت : اين ، تحوم في فضاء العقل الذى عاش في تادلة حاكما جبارا يطوع الجبال والسهول ، ويؤدب القبائل ويسخر الرجال لحفر السد وخدمة ضيعات «المعمرين» .. زوى بين حاجبيه كانه يحاول ان يتذكر . وذكر الوجه المعروق الصلد : انه الوجه الذى كان يصطدم به فى كل انحاء تادلة. هو كل ابناء الزاوية ، كل ابناء اولاد سعيد ، كل ابناء آيت احنصال .

انتظر الضباط ورؤساء المصالح والمراقبون المدنيون طويلا. عيونهم تتنقل بين تاليك وابن الزاوية كان هناك سرا لم يكشف بعد. كاتب المحضر ـ والقلم بين اصابعه ـ ينتظر ان يتفوه احدهما بكلمة .

مرت الدقائق الاولى فى تحقيق عادى لم يتردد ابن الزاوية فى ان يجيب عن اسمه واسم ابيه وقبيلته ومكان اقامته .

ـ امك اسمها ؟

ـ . . . . .

ساد الصمت مرة اخرى بين الوجه المحتقن والوجه الصارم المسالم.

أمك اسمها ؟

ـ . . . . .

ـ زوجتك اسمها ؟

اعتصم ابن الزاوية بصمت مطبق جللته نظرات غاضبة وانهزم تاليك

لم يحرص على ان يسجل اسم الام واسم الزوجة وهو يلحظ الغضب الذى اخذ يتطاير من عينى ابن الزاوية . فهو يعرف بالخبرة ان الرجل فى فى هذه الناحية لا يقبل ان يسأل عن سيدات منزله .

لم يجد تاليك صعوبة فى التحقيق فقد كان ابن الزاوية يجيب عن كل عمل قام به ايجابا ، وكان ينفى ببساطة كل عمل لم يقم به . كان تاليك

يعرف انه لن يقابل كذابا ولا جبانا فلم يستعمل العنف. ولكن جوابا واحدا القي به في متاهات الشك قبل ان يعود الى اليقين .

من كان معك في العمليات التي قمت بها ؟

ـ . . . .

ساد الصمت مرة اخرى .

ضباط الفرق العسكرية التي كانت تطوق الاقليم شعروا بالهزيمة كما لم يشعروا بها من قبل. فيهم ضباط كبار كانوا صغارا وهم يشاركون في عمليات اقرار الوجود الفرنسي ، وفيهم ضباط ما يزالون يتدربون على حرب الجبال ، كانت احدى فرصهم في تادلة . انتفضوا جميعهم من اثر الهزيمة كما لو لسعتهم عقرب . وهتف كبيرهم في عنف :

ـ يجب ان يتكلم كانت فرقة من رجاله تضرب في كل مكان .

ـ لا اعرف ماذا قال، فقد كان يصرخ بالفرنسية. ولكن الذي لاحظت انه كان يود لو طار الى عنقي ليخنقني .

قال رفاق الزنزانة مداعبين :

ـ ولعلك ثرت في وجهه .. وكدت تخنقه .

كنت هادئا كان الامر لا يعنيني . الفرقة التي قال المترجم انها كانت معي لم تكن الا .. بندقيتي ..

ابتسم ابن الزاوية ـ ولم يكن يبتسم الا نادرا ـ وهو يرفع طاقيته نحو جبهته ..

كان تاليك اكثر هدوء من رفاقه . استعرضهم بعينيه المثقلتين كما لو كان «بولعوان» ما يزال يطل من محجريهما . حدث نفسه :

شبابهم وشيوخهم جهال . . لا يعرفون المنطقة ولا سكان اولاد سعيد

راوده العجب وهو يضيف :

ـ الحكم مهنة ، لكي تحكم منطقة في البلاد التي استعصت على الحاكمين

لا يكفي ان تكون ضابطا في الجيش ولا خريج مدرسة «الامور الاهلية» يجب أن تعرف المنطقة وتعرف سكانها .

قال ذلك وهو يشير بيده الى زملائه ينصحهم بالهدوء . جهر بما استقر في ذهنه :

ـ لن يتحدث ، مثل هؤلاء لايتحدثون ...

قبل ان يتلقى نظرات الاستغراب اضاف :

. . . ستعرفون هؤلاء ، واحد منهم يعادل كتيبة . .

رن الجرس خارج القاعة . دخل مخزني . اشارة من رأس تاليك. انحناءة من رأس المخزني . أقفل الباب . انفتح الباب وتكشف عن الوجه الذى غاب ثلاثة ايام كاملة ، التقت عينا الفقيه بعيني ابن الزاوية وكأنهما لا تصدقان . وتملتا من الوجه الذى يطفح بمعاني الجهاد ، وكأنه قد غاب سنوات . اعتصرت العينان الغارقتان في الالم دمعتين حارتين. كانت عينا تاليك تتنقلان بين الرجلين . لم يكن في حاجة الى تحقيق :

ـ أتعرف هذا . . ؟

اجاب ابن الزاوية :

ـ أعرف الفقيه وهو صديقي

اجاب الفقيه :

ـ أعرف الشريف وهو صديقي

ـ أكنتما تتعاونان ؟

أجاب الفقيه :

ـ كنت مساعده الاول ، لو أمرني أن .. لما ترددت ..

اجاب ابن الزاوية :

ـ كان أكبر مخلص وقعت عليه عيناي. لولاه لمت جوعا ولنفد زادي.

اشارة سريعة من تاليك . وغيب الباب وجه الفقيه .

وضع تاليك وجهه بين كفيه واستغرق في تفكير ...

ود لو كان مفوضا في مثل هـذه الاحداث ، لانتهى الامر في هذه الجلسة .. تادلاويون كثيرون تتمت السهـول والجبـال انفاسهم، لكن هذا الثائر .. ؟ صيته تعدى القصيبة الى الرباط . . تعدى الرباط الى باريس. اى مجرم هذا .الوجه المعروق الصارم ؟ .. هذا الرجل الذى لا يتلعثم وهو يقول : قتلت ؟

هكذا حدث تاليك نفسه وهو يامر بأن يطوى الملف ـ وليس به غير ورقة اعترافات ـ ليحال على المحكمة العسكرية في الدار البيضاء .

ـ البندقية كانت هناك. كان يسخر منها وهو يقلبها بين يديه ويسأل ليزداد تأكدا :

ـ بهذه حقا كنت تقتل .

وضحك ابن الزاوية

ـ حتى شكارتي القديمة المرقعة كانت هناك .

اتسعت ابتسامته وهو يضيف :

ـ سالني عنها.. النصراني.. لا شغل له ، يسأل عن كل شيء.

قال احد رفاق الزنزانة :

ـ وكان بها رصاصات ؟

ابتسم ابن الزاوية في اطمئنان او في اسى :

ـ لم يعد بها غير خمس رصاصات . .

تذكر مضيفه وكاد يبصق في مرارة وهو يضيف :

ـ ... كانت تكفي لخمس رؤوس ،

لاول مرة فى تاريخ السجن كان قاتل يحظى بالاحترام. حينما كان يعود من التحقيق العسكرى يدخل باب السجن فى مشيته المتئدة ، قامته الفارعة تملا العيون اجلالا . كان السجن يغلى كالمرجل. معتقلون يتحدثون ويتحركون ، أوامر تصدر ، أصوات عالية ترتفع من الحراس والمراقبين والرؤساء والمديرين . وحينما يدخل ابن الزاوية تقف الحركة وتهدأ الاصوات ، ويقف المعتقلون صفوفا ، عيونهم معلقة بالوجه السابح فى البطولة . رؤوسهم تكاد تطاطا لرجل الجهاد . الحراس والموظفون الاجانب يبدون وكأنهم آلهة امام المعتقلين ، ولكنهم امام ابن الزاوية كانوا يشعرون بأنهم صغار ، لا تكاد اعينهم ترقى للنظر الى وجهه . كانوا ممتلئين حقدا وغيظا ، لكنهم كانوا مكرهين على ان يحترموا ابن الزاوية ، تكاد ايديهم تمتد الى قبعاتهم ترفعها احتراما للرجل الكبير ، وهم الذين يرغمون كل سجين على أن يرفع طاقيته احتراما لهم .

كان ابن الزاوية يعود من التحقيق العسكرى وهو يستغرب ان يكون المحقق من السخافة بحيث يعيد الاسئلة ويدير الحديث عنها كما لو كان عديم الفهم . .

ـ نفس الاسئلة ونفس الموضوع.

بهذا بادر زملاء الزنزانة ، وكأنه يجيب عن الاسئلة التى تطفح بها عيونهم .

ويلوذ ابن الزاوية بصمت عميق . تسبح عيناه فى الفضاء المحدود ، يقضى الساعات هادئا صامتا مفكرا كأنه فى مناجاة او صلاة .

ـ فيم تفكر ..؟

قطع زميل من زملاء الزنزانة هدوءه . تلفتت عيناه فى انفعال وكأنه عائد من بعيد . طافت ابتسامة عذبة على الشفتين الحادتين . تردد كما لو كان يتذكر فيم كان يفكر . أجاب :

ـ الظلم . . . الظلم الذى يجعل هؤلاء «الكاورية» يغتصبون ارضنا ويتحكمون فينا كأننا عبيد . .

ويعود الهدوء الى الزنزانة فليس لابن الزاوية أكثير مما يقول. لم يكن يناقش في السياسة حينما كان زملاء الزنزانة يتحدثون عن الطوق الذى تحكمه الاقامة العامة على المغرب ، لم يكن يناقش مستقبل المغرب : الاستقلال ، استمرار الحماية . ولم يكن يناقش مستقبل الحزب بعد ان صمم كيوم على القضاء عليه . وانما كان يفكر في الظلم . وكثيرا ما كانت عيناه تعتصران الما عميقا ـ لاتبكيان، الرجل لا يبكي ـ حينما يذكر الذين اغتصبوا الارض ومنعوا الماء .

ساد الزنزانة هدوء عميق . كان الزملاء ينتظرون الرجل الذى اصبح مصيره معلقا بكلمة يتلفظ بها رئيس المحكمة العسكرية .

لم يكن الرفاق يشكون في المصير ، ولكنهم كانوا يشفقون .

ـ من مصلحة الوطن ان يعدموه . .

صاح احدهم يخرق الصمت، وكانه يفصل فيما تناقشه العيون الصامتة.

تلفتت نحوه العيون في فضول .

اضاف وكانه يجيب على علامة استفهام :

ـ ما قيمة عمله ؟ مصرع عشرة افراد ما ذنبهم...؟

انفتح باب المناقشة :

ـ ذنبهم ؟ انهم يساهمون في الاحتلال ولو كانوا مدنيين، يغتصبون الارض والماء ويستغلون الثروة والادارة والتجارة .

بدا كانه يخطب بكلام عادى . تراجع عن حماسه . ونطق صوت :

ـ قيمة عمله انه جدد اعلان العصيان ، وبالطريقة التي يجب ان يعلن بها العصيان .

عاد المتسائل الاول يوضح رأيه .

ـ قيمة عمله ان يزيد في تعميق الهوة بين الشعب وعزلاء المغتصبين. ابن الزاوية رجل من هؤلاء الذين لن تتساهم الاجيال. انتهت مهمته في

خارج الزنزانة ، بقى عليه الآن ان يؤديها وهو فى القبر . ان يطوف دمه فى الآفاق ليثير الحرب فى وجه الغاصبين . .

وساد الهدوء وكان الرفقة يفكرون فيما بدا انه فلسفة المقاومة. حتى نطق احدهم بكلمات ينز منها الالم .

ـ الفنا عشرته . . يعز علينا ان ينتزعه منا الموت . .

كان عاطفيا . لم يزد زملاؤه ان نظروا اليه فى شبه رثاء . وكان كـلا منهم يتحدث الى نفسه :

ـ ما تزال السذاجة العاطفية تطبع تفكيره السياسى . . !

عم السجن هدوء فجائى . هدأ لغط السجانين والمسجونين .

تسرب الصمت من عرصة السجن الفسيحة الى الزنزانة الضيقة. عن طريق النافذة المعلقة ، تلاقت العيون فى نظرة استفهـام . سـاد الصمـت الزنزانة دون ان يدرى احد لماذا ؟

الجلال يحيط بابن الزاوية وهو يعبر الساحة فى طريقه الى الزنزانة مرفوع الرأس يطفح وجهه بالثقة تملا عينيه روح الاعتزاز . الفقيه يسير فى ظله خافض الرأس مهموم الفكر متعثر الخطوات . يحيط بهما ثلة من حراس السجن . . .

اتجهت العيون فى اجلال واشفاق نحو الوجه الذى يبعث الاحترام . كان الخبر قد سبقه وهو يعود من المحكمة .

اختفى حقد السجانين امام تقدير الرجولة . دمعتان حارتان طفرتا من عينى السجان المغربى بوجمعة . كان يتوارى خلف الصفوف التى وقفـت تحية للرجل .

غيبه حى الزنزانات . فرقعت المفاتيح . اقفلت الباب السميكة خلف الرجلين اللذين عادا من المحكمة وفى اذنيهما كلمة : « الاعدام » .

الوجه الصارم لا يتطلب اشفاقا ولا مواساة . القى الخبـر الى زمـلاء الزنزانة فى كلمات مقتضبة وبوجـه بشـوش . لـم يفاجـأوا . ولعلهـم لـم

يفجعوا . ساد صمت طويل قطعه الزميل العاطفي بصوته الجميل يتلو :

«ان الذين آمنوا والذين هاجروا وجاهدوا في سبيل الله اولئك يرجون رحمة الله . والله غفور رحيم».

لم تحتد المناقشات بعد ذلك بين رفاق الزنزانة ولم يعودوا الى لعب الورق خفية من السجانين. وانما كان الصمت يخيم، كل منهم ينفرد بكتاب. ابن الزاوية يخلو الى نفسه فهو لا يقرأ . الفقيه يردد سور القرآن بين شفتيه ، لا يكاد يسمع له صوت. يجتمع الرفاق على آكلة السجن او ما يرد من العائلات . وتجمعهم الصلاة كلما نبههم الفقيه الى ان الوقت قد حان .

ويسود الصمت .

كان ابن الزاوية هو الذي يخرق الصمت هذه المرة .

اتجهت الاذان اليه وهو يسأل :

بأية وسيلة ينفذون الاعدام ؟

ترددوا في الجواب ، وكأنهم كانوا يخشون ان يؤذوا احساسه . نطق احدهم :

- بالرصاص . . .

توقفت الكلمات في فمه فلم يزد . ابتسم ابن الزاوية ، لمعت عيناه. فاجأت الابتسامة رفاق الزنزانة . كانوا يتطلعون الى رد فعل آخر لكلمة «الرصاص» الابتسامة اوحت اليهم انه اكتشف سرا لم يكن يدريه. لم يتركهم ابن الزاوية يهيمون في الخيال . قال ببساطة الفها منه الرفاق :

- بالرصاص فقط . . هذا وكان ؟! كم قتلنا منهم برصاصنا ..

اتسعت ابتسامته . زاد لمعان عينيه ، بدا الارتياح على وجهه . لاذ بالصمت .

كانت الزنزانة رقم 13 تنتظر ابن الزاوية والفقيه . نقلا اليها بعد ان رفض رئيس الجمهورية الفرنسية طلب التخفيف الذي يقدم اليه مع اوراق الحكم

كاجراء تقليدي. كان الوداع الاخير لرفاق الزنزانة مؤثرا. واحد منهم كان يقول في سره دون ان يبدو على وجهه اى تأثر :

ـ من مصلحة الوطن ان يعدموه . .

كانت عينان تطفحان بالدموع . الزميل العاطفي لم يملك نفسه ان يقول لابن الزاوية :

نحن واياك في حمى سيدنا محمد . . لله ما اعطى ولله ما اخذ .

تمتمت شفتاه بايات من القرآن .

كان ابن الزاوية يودع رفاق طريق . أحبهم . شعر بانه لم يكن وحده. الوحدة التي عاناها وهو يطوف في الجبال يلتقط الصيد تبددت وهو يثوى في الزنزانة بين الجدران الاربعة. نظر اليهم بعينيه الحادتين الصافيتين وتمتم :

ـ اصمدوا ، اصبروا. هذا مكان الرجال .

وولى .

مضت ايام قليلة . فتح بوجمعة باب الزنزانة على المعتقلين. وجه أغبر عينان طافحتان بالالم . جاهد نفسه ليتغلب على اضطرابه . تمتم :

ـ مسكين ابن الزاوية .. والفقيه ..

وبكى .

الرصاصة التي اخترقت قلب ابن الزاوية دوت في الآفاق كما لم يدو صوت من قبل . هز دويها المدن والقرى، دمدمت في الدار البيضاء، زفرت في الرباط ، انفجرت في مراكش ، زمجرت في «وادى زم» .

وانداح الصدى الهائل ليعود الى الجبال في «اكنول» و«تيزى وزلو» و«بوريد» .

الرباط　　　　　　عبد الكريم غـــلاب

تحية وولاء

الى المغرب ملكاً وحكومة وشعباً

د. على عبد العظيم

أحقا ما نشاهد أم مناما ؟؟ — سلاما جنة الدنيا سلاما
رأينا المغرب الأقصى ، فهمنا — بروعته وأهليه هياما
وحققنا بساحته الأمانى — ولاقينا به صحبا كراما
شربنا من مودتهم رحيقا — فتيت المسك كان له ختاما

* * *

فيالله من ملك عظيم — تسامى فى المكارم أن يسامى
اذا اجتمع الملوك على سواء — تخطاهم فكان لهم اماما

* * *

وكم فى الغرب من آيات حسن — تجلت فى فم الدنيا ابتساما
اذا لاحت روائعه انتشينا — كأنا قد تعاطينا المداما

ونشهد جنة الفردوس فيه ... فنلقاها سجودا أو قياما
ونخشع فى مجانيه كأنا ... شهدنا عندها البيت الحراما
ونوشك أن نطوف بكل ركن ... ونوسعه عناقا والتزاما
كأن الحسن لم يعشق سواه ... من الدنيا فآثره مقاما

* * *

عجبت لنا نذوب اليه شوقا ... ولا نبقى به الا لماما
وما كان اللقاء سوى وداع ... تسعر فى جوانحنا ضراما
لعل الدهر يجمعنا قريبا ... فنرشف حسنه جاما فجاما

* * *

عرفنا فيه شعبا أريحيا ... غدا بالمجد صبا مستهاما
يجود بكل ما ملكت يداه ... ويأبى فى الكريهة أن يضاما
اذا رام العدو له اهتضاما ... تحداه ، فأورده الحماما
وان يفرط على الصحراء باغ ... تلقى فوقها الموت الزؤاما

* * *

تسلم عرشه ملك عظيم ... يتابع فيه آباء عظاما
تخف قلوب أمته اليه ... وتعتصم النفوس به اعتصاما
اذا امتد الظلام على رباها ... تبلج رأيه فمحا الظلاما

وان رام الـعـدا كيـدا تجـلـى كليـث الغـاب بأسـا واقتحـاما
فان لجـوا أذاقـهـم المـنـايـا وان فـاءوا أعـارهـم السـلامـا

* * *

مسيرتـه الى الصحـراء فـتـح وان لم يمتـشـق فيهـا الحسامـا
واو شـاء انـتـضى جيشـا لهامـا فـمـزق أضلـعـا وأزال هـامـا
ولكـن الالـه حـبـاه قلـبـا يكـاد يضـم بالعطـف الأتـامـا

* * *

أميـر المؤمـنين نظمـت شعـرى لأقضى حـق مجـدك والذمـامـا
ولـو أنى استطعت لصغت قلبـى نشـيـدا فى مديحـك لا كـلامـا
فكـم قدمـت احسانـا وفـضـلا وكـم حقـقـت آمـالا جسـامـا
وكـم وثقـت للعـرب اتـحـادا وأحييـت المـودة والـوئـامـا
فـذاقـوا لـذة النصـر المرجـى ولـولا الخاف ما عرفـوا انهزامـا

* * *

بنى الاسـلام جد الجـد فامضـوا لغايـتـكم وحسبكمـو انقسـاما
لنـا وطـن كـريـم فاحفـظـوه وذودوا عـن مناهـله اللئـامـا
فامـا أن نعـيـش بـه كـرامـا وامـا أن نـمـوت بـه كـرامـا

القـاهـرة **د٠ على عبد العظيم**

أضواء على بعض المصادر البريطانية الخاصة بالعلاقات بين بريطانيا والمغرب
خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر الميلاديين

د. شوقي عطا الله الجمل

الدافع الى محاولة القاء الضوء على المصادر المتعلقة بالعلاقات الانجليزية المغربية فى القرنين السادس عشر والسابع عشر - أن الاهتمام وجه فى الحقيقة من جمهرة الباحثين الى علاقات اسبانيا والبرتغال ثم علاقات فرنسا بالمغرب - لكن علاقاته بانجلترا لم تحظ بالدراسة الكافية. رغم أن انجلترا - باعتبارها دولة بحرية، وباعتبار موقع المغرب بسواحله الطويلة - اهتمت بأن تكون لها علاقات وارتباطات تحقق لرعاياها حرية التجارة فى البحر المتوسط والمحيط الاطلسي الذي أصبحت له مكانة هامة كطريق ملاحي خاصة بعد اكتشاف البرتغال للطريق الجديد المؤدي للشرق (رحلة داجاما سنة 1497 / 1498)، هذا بالاضافة الى حرص البريطانيين على كفالة الامن والطمأنينة لاتباعهم فى وقت انتشرت فيه القرصنة فى السواحل الافريقية لدرجة انه تكونت فى انجلترا جمعية

اطلقت على نفسها اسم (جمعية محاربة القرصنة فى السواحل الافريقية) اسوة (بجمعية محاربة الرق فى افريقيا) .

وكنت قد كتبت بحثا فى العدد الثالث من مجلة « المناهل » الغراء عن هذه العلاقات الانجليزية المغربية فى ضوء وثائق الارشيف البريطاني ، وقد ورد لي العديد من الاستفسارات من الكثير من الباحثين يطلبون المزيد من ايضاحات عن هذه الوثائق التي تخدم الباحث فى تتبع هذه العلاقات ـ وان كنت قد اجبت بصفة شخصية على المستفسرين لكنني فضلت أخيرا لكي تعم الفائدة ـ ان أكتب فى هذا المجال لجمهرة القراء المهتمين بالدراسات التاريخية المتعلقة بتاريخ المغرب بصفة خاصة والدور الذي لعبه فى المجال الدولي على مر العصور .

وليس الهدف ان نلم بكل المراجع البريطانية التي تحدثت عن هذه العلاقات الهامة ـ لكن ان نعطي أمثلة ترشد الباحثين فى هذا المجال .

ويمكن أن نقسم هذه المراجع الى اربع مجموعات :

1 ـ الخطابات الرسمية المتبادلة بين الحكام ، واصحاب السلطة فى البلدين

2 ـ تقارير بعض الشخصيات الهامة المعاصرة لاحداث هذه الفترة

3 ـ المذكرات أو اليوميات التي دونها بعض الذين زاروا المغرب فى هذه الفترة وقد اشترك بعضهم فى الاحداث ذاتها

4 ـ بعض الكتب المعاصرة ، التي تتميز عن التقارير السالفة الذكر فى أنها شملت دراسة أوسع ، ونواح أكثر من التقارير ، فهذه الكتب وان كانت هي الاخرى فى غالب الاحيان من وضع اناس كان لهم نصيب فى الاحداث ـ لكن لم يقصروا كتاباتهم على مهمة واحدة ، كانوا مثلا مكلفين بها ـ لكنهم تعرضوا لدراسات متنوعة ، بناء على مشاهداتهم الشخصية أو على دراسات قاموا بها أو على أقوال المعاصرين لهم .

5 ـ المعاهدات الرسمية المعقودة بين انجلترا والسلطات صاحبة النفوذ في المغرب .

ولنحاول ان نعطي أمثلة لكل مجموعة من هذه المراجع الهامة .

اولا ـ الخطابات الرسمية المتبادلة بين الحكام واصحاب السلطة في البلدين:

يزخر الارشيف البريطاني بمجموعة كبيرة من هذه الخطابات أو صور منها سواء المرسلة من ملوك انجلترا الى حكام المغرب وأصحاب السلطة فيه أو الواردة من هؤلاء الحكام واصحاب السلطة .

وهذه الخطابات تلقي اضواء قوية على السياسة الانجليزية ، وعلاقة انجلترا بالمغرب والمسائل التي كانت موضع اهتمام الحكام وموضع البحث والاخذ والرد بينهم ـ بحيث يصعب على مؤرخ أن يؤرخ لهذه الفترة من تاريخ البلدين وللعلاقات بينهما دون الرجوع الى هذه الخطابات ودراستها ومحاولة استنباط الحقائق منها .

فمثلا الخطابات المتعدد التي تبودلت بين الملكة اليزابث ، والسلطان احمد المنصور والتي تناولت عدة مشاكل سياسية ، كالعلاقات مع اسبانيا (1) التي كانت بينها وبين انجلترا منافسة بحرية قوية ، كما كانت

---

(1) انظر ـ على وجه الخصوص مجموعة (Foreign Royal Letters) — فهي تحتوي على عشرات الخطابات المتبادلة بين المنصور والملكة اليزابث مثل :

أ ـ خطاب اليزابث الى احمد المنصور في 2 يناير 1588
Public Record Office — State papers — Foreign Portugal Vol. II

ب ـ خطاب احمد المنصور الى الملكة اليزابث في جمادى الاولى 996 هـ .
Public Record Office — State papers — Foreign Royal Letters Vol. II N° 12

جـ ـ خطاب احمد المنصور الى الملكة اليزابث في 19 شعبان 998 هـ
Public Record Office — State papers — Foreign Royal Letters Vol. II N° 21

بينها وبين المغرب مشاكل بسبب اطماع الاسبان منذ بداية نشاطهم الكشفي الاستعماري فى القرن الخامس عشر .

كما ان هذه المراسلات تناولت أيضا مسائل اقتصادية تتعلق على الخصوص بنشاط التجار البريطانيين فى الثغور المغربية ، فى وقت كان فيه المغرب بالذات قد بدأ يلعب دورا حاسما كمنفذ لكثير من المنتجات النباتية (كالسكر) ، والحيوانية (كالجلود والمنتجات الجلدية) ، والمعدنية (كالذهب) ــ التي تنتج فى المغرب ذاته أو التي تصل الى الثغور المغربية من مختلف دول وأقطار غرب القارة الافريقية .

كذلك الخطابات المتبادلة بين حكام المغرب ، وملوك انجلترا بخصوص تزويد الحكام المغاربة بما كانوا يحتاجون اليه من أسلحة لجيوشهم سواء لمواجهة الاعداء الخارجين او لمواجهة الخارجين عن سلطانهم ــ هذا وقد حرص الحكام المغاربة ــ كما يبدو من خطاباتهم لملوك انجلترا ــ على الا تستغل التيسيرات الممنوحة للتجار البريطانيين للاتجار فى الاسلحة مع الخارجين عن السلطات المغربية .

هذا ولم يقتصر الامر على اصحاب السلطة الشرعية فى المغرب فهناك عديد من الخطابات المتبادلة بين حكام انجلترا وبين أصحاب النفوذ فى الثغور المغربية من الثائرين على السلطان الشرعي ، وتدل هذه الظاهرة على اهتمام انجلترا بمصلحتها ومصلحة رعاياها دون مراعاة لاى اعتبار آخر ــ ومن أمثلة هذه المراسلات ــ المراسلات بين شارل الاول (Charles I) ملك انجلترا وبين الفقيه العياشي الذي أصبح صاحب السلطان فى المنطقة الممتدة من (تطوان) الى (سلا) (2) .

(2) انظر على سبيل المثال : ا ــ خطاب العياشي للملك وهو مؤرخ 2 رمضان 1036 هـ
Public Record Office — State papers — Foreign Royal Letters Vol. II, N° 66

ب ــ خطاب شارل الاول ــ الى العياشي المؤرخ 12 اكتوبر 1627 .
Public Record Office — State papers, Foreign Barbary states Vol. XII Fol. 142-143.

كذلك المراسلات بين علي بن محمد ـ صاحب الزاوية المشهورة فى تازورالت بسوس ، والذي اشتهر باسم المرابط ابى حسون ، واطلق عليه اسم صاحب الساحل لانه مد نفوذه الى المنطقة الجنوبية الغربية من أكادير الى (وادي نول) ـ وبين شارل الاول ، وهذه المراسلات تدور كلها حول امداد انجلترا له بالسلاح فى مقابل اطلاقه سراح الاسرى الانجليز ، والسماح للرعايا الانجليز بمزاولة نشاطهم التجاري بأمان فى المناطق الواقعة تحت سلطته على أن يتصرف الانجليز بالمثل (3) .

كذلك هناك المراسلات بين الجهات الرسمية فى بريطانيا ذاتها وبين محثليها فى المغرب او فى البلاد التي لها علاقات مع المغرب كاسبانيا مثلا ومن أمثلة هؤلاء هنري روبرتس (Henry Roberts) (4) ممثل الشركة التجارية البريطانية التي عرفت باسم شركة ساحل البربر (Barbary,Company)

وجون هريسون (John Harrison) (5) الذي كان مندوبا للملك جيمس الاول طرف السلطان المغربي (مولاي زيدان) ، والذي أوفده فيما بعد شارل الاول للتفاوض مع السلطات المغربية ، وأصحاب النفوذ فى الثغور المغربية لتأمين مصالح التجار والرعايا الانجليز فى المغرب ـ كذلك ادموند برادرو (Edmund Bradrhaw) (6) الذي أرسله شارل الاول الى السلطان (محمد بن زيدان) ـ وكذلك روبرت بلاك (Robert Blake)

---

(3) انظر : خطاب المرابط علي بن محمد الى شارل الاول فى 8 صفر 1040
Public Record Office — State papers — Foreign Royal Letters Vol. II.

(4) انظر : Hakluyt : The Principal Navigations of the English Nation Tome II P. III

(5) ، (6) ، (7) انظر مراسلات لهم فى :
Public Record Office — State papers — Foreign Royal Letters Vol. II

الذي لعب دورا كبيرا سواء كممثل لانجلترا فى المغرب او كممثل لسلطان المغرب محمد الشيخ الاصغر فى انجلترا .

ونشير الى أن معظم هؤلاء الممثلين كتبوا يوميات ومذكرات تفصيلية عن احداث الفترة التي قضوها فى المغرب وعن المهمة التي كلفوا بها هناك، وسنوضح ذلك فيما بعد ـ الا اننا بصدد مراسلاتهم مع الجهات الرسمية فى بريطانيا والمحفوظة فى الارشيف البريطاني وهي مراسلات بالغة الاهمية فى الكشف عن السياسة البريطانية فى هذه الجهات ، كذلك تبرز فى هذا المجال مراسلات القادة البحريين الانجليز بالذات الذين كلفوا بمهمات تتعلق بالتجار الانجليز فى الثغور المغربية أو بالملاحة فى البحر المتوسط والمحيط الاطلسى ، ومن أمثلة هؤلاء وليم راينزبورو (W. Rainsborough) (8) الذي كان قائدا للسفينة البريطانية انتيلوب (Antilope) لفترة ما ، كذلك بـــلاك (Admiral Blake) ، وادواردمونتاجـــــو (Edward Montagu) ، بادلـــي (R. Badiley) ، وقد برز هذا لاخير خاصة اثناء الحروب الانجليزية الاسبانية (1665) ، كذلك جون ستوكسن (John Stokes) الذي اصبح قائدا للاسطول البريطاني فى البحـــر المتوسط والمحيـــط الاطلنطي سنة 1657 (9)

ومن الطبيعي أن تغلب الناحية الحربية وما يتعلق بالثغور المغربيـــة واهميتها كموانىء صالحة للملاحة وللاغراض التجارية ـ على مراســـلات أمثال هؤلاء القادة البحريين وبذا فهم يمدوننا بمعلومات وبيانات من لون معين.

ثانيا ــ تقارير الشخصيات الهامة المعاصرة لاحداث هذه الفترة :

تنوعت النتائج التي كتبها الاشخاص انمعاصرون ، واختلفت حسب الكاتب نفســه ، واهتماماته وثقافته ومدى ملاحظاته وأهدافه ، فمن مهمة

(8) Public Record Office, State papers, Foreign Barbary States XIII

(9) Public Record Office, State papers, Domestic Interregnum, Council of States, Vol. LXXVII P. 695-696

الباحث ان يلم بالظروف المختلفة المتصلة بكاتب التقرير وان يحاول بعد ذلك مناقشة هذه التقارير والاستفادة منها ويمكن أن نصنف هذه التقارير فى مجموعات :

1 — تقارير ذات صبغة حربية كتبها القادة العسكريون وبالطبع مثل هذه التقارير لها طابعها العسكري الفني ، لكن بعضها لم يكتف بوصف المعارك من وجهة نظر الرجل العسكري الذي كتب التقرير بل تطرق لتحليل الاسباب والنتائج .

ومن أمثلة ذلك التقرير الكامل والمفصل الذي كتبه الكابتن كبريت (Captain Cabrette) عن معركة وادى المخازن التي وقعت فى 4 اغسطس عام (1578 م) وقتل فيها ملك البرتغال د. سبستيان (D. Sabastian) والتقرير مؤرخ 18 نوفمبر 1578 ومرفق به خريطة توضح موقع جيش الفريقين فى هذه المعركة الحاسمة ، ويتضح من صيغة التقرير ان الهدف منه هو اثارة الدول الاوربية لغزو المغرب ، على اساس ان الانتصار الذي احرزه الجيش المغربي على الجيش البرتغالي،والجيوش الاوربيةالمتحالفة معه يمثل تهديدا خطيرا لاسبانيا وايطاليا وغيرهما من الدول الاوربية (10)

وقد تعددت التقارير التي كتبت عن هذه المعركة — معركة وادي المخازن — ويرجع هذا لاهميتها ولنتائجها الحاسمة ، ومن هذه التقارير تقريران وافيان تناولا الكثير من التفصيلات عن بلاد المغرب ، وتحركات الجيش المغربي تحت قيادة (مولاي عبد الملك) ،وعن التجاء محمد المتوكل على الله (الذي لقب بالمسلوخ) الى ملك اسبانيا فيليب الثاني (Philippe II) ليعاونه لاسترجاع ملكه ؛ وانتهاء الامر بانضمامه الى اعداء بلاده . والتقريران يعطيان تفصيلات عن أعداد جيوش الطرفين وتطورات المعركة حتى نهايتها .

والغريب ان كاتب التقريرين حرص على اخفاء اسمه ، وان كانت الدلائل ترجح ان الكاتب هو نفسه الكابتن كبريت ، وان اخفاء اسمه

(10) British Museum — Additional Mss. 28 360 ff. 74-75.

يرجع لظروف العلاقات بين انجلترا واسبانيا فى ذلك الوقت ـ وهـــذه التقارير مكتوبة من وجهة نظر اوربية صرفة ، وهذه نقطة وان كانت لا تقلل من اهمية وقيمة هذه التقارير ـ لكنها تضعنا امام حقيقة هامة ، وهي أن الباحث يجب ان يتسم بالحذر الشديد ، وهو يعالج أي موضوع فى ضوء هذه التقارير لاننا كثيرا ما وقعنا فى خطـــأ ترديد أراء هؤلاء الكتاب دون تمحيصها لنكتشف وجه الحقيقة فيها (11) .

2 ـ كذلك نذكر فى هذا المجال التقارير التي تغلب عليها الصبغة الاقتصادية التي كتبها افراد الشركة البريطانية التي تأسست سنة 1585 باسم شركة ساحل البربر وذلك بهدف التجارة مــــع الثغور المغربيـــة ـ فبعد تأسيس هذه الشركة ومنحها عقدا لمدة اثني عشر عاما للاتجـــار مع الثغور المغربية ـ أرسل هنــــري روبرتس (Henry Roberts) للمغرب كممثل للشركة لمراعاة شؤون التجار الانجليز ، ووصل آسفي فى 14 سبتمبر من هذا العام ، وقـــد عين (مـــولاي أحمد المنصور) أحـــد رجاله لمرافقته الى مراكش حيث دبر له سكنا فى الحي الذي كان يسكن فيه ريتشارد ايفانس (Richard Evans) وغيره من التجار الانجليز والاجانب ـ وبقي روبرتس فى المغرب ثلاث سنوات ونصف زار خلالهـا معظم الثغور المغربية ، وكتب تقريرا وافيا ضمنه معلومات عن الاقتصاد المغربي ، وأهم ما ينتجه المغرب من الثروة المعدنية والحيوانية والنباتية، وقد قدم هذا التقرير الى الملك جيمس الاول (James I) الذي وصل الى عرش بريطانيا فى عام 1603 (12) .

كذلك تقرير انطوني دازل (Anthony Dassel) عضو الشركـــة فى 30 اغسطس 1594 (13) ، وتقرير ادوارد هولمدين (Edward Holmden) فى 8 مايو 1595 (14) .

(11) British Museum — Harleian Mss. 7035 f. 1317

(12) British Museum — Cotton Mss. Vespasian CXIII f. 240-241
Hakluyt : The principal Navigations of the English Nation (1598-1600) Tome II p. III
— British Museum — Additional Mss. 38-39 f. 33

(13) Public Record Office — State Papers — Foreign Barbary States vol. XII

وهذان التقريران الاخيران يحتويان معلومات مستفيضة عن ثروة المغرب ، واشارات بالذات الى حملة السودان التي ارسلها أحمد المنصور بقيادة الباشا جؤدر سنة 999 هـ ـ 1590 م ، وما ترتب عليها من تدفق الذهب على المغرب .

3 ـ ومجموعة اخرى من التقارير هي التي اصطبغت بالصبغة السياسية ـ وهي التي كتبها رجال السلك (الدبلوماسي) ومن امثلة ذلك تقارير فرنسيس كوتنجتن (Francis Cottington) وقد شغل منصب سفير انجلترا فى اسبانيا ، وله عدة تقارير موجهة الى اللورد سالسبوري (Salisbury) تدور حول مصالح الانجليز فى المناطق الحيوية التي يسيطر عليها الاسبان فى المغرب بالذات .

ومن هذه التقارير عدة تقارير تتعلق بثغر (العرائش) المغربي بعد استيلاء الاسبان عليه فى عام 1610 ، وقد شرح الظروف التي تم فيها هذا العمل ونتائجه (15) .

وان كانت تقارير العسكريين قد اصطبغت بالصبغة العسكرية ، وتقارير رجال الاقتصاد بالصبغة المادية ـ فان تقارير الدبلوماسيين غلبت عليها الناحية السياسية فهي تنظر للامور من وجهة نظر الدبلوماسي الذي يهتم بالآثار السياسية للاحداث .

وهكذا يمكن للباحث أن يستفيد من التكامل والتنوع الذي تتضمنه وجهات النظر المختلفة هذه .

ثالثا ـ المذكرات واليوميات :

تتخلص هذه المذكرات عن التقارير ـ اذ انها ليست تقارير عامة

(15) Public Record Office — State papers, Foreign, Spain Vol. XVII f.f. 54-55 (dated 15 June 1610)
— Ibid f.f. 104-105 (dated 20 Nov. 1610)
— Ibid f.f. 217-218 (dated 4 Dec. 1610)

يكتبها المتخصصون ـ لكنها سجلات سجل فيها بعض الذين زاروا المغرب في هذه الفترة انطباعاتهم وملاحظاتهم اليومية او الدورية (Diaries) ومع ذلك فهناك أيضا اختلافات واضحة بين هذه المذكـرات بعضهـا ، والبعض الآخر ـ حسب الكاتب ذاته ـ فبعضها اتسمت بدقة الملاحظـة والامانة ، وبعضها غلبت عليها ميول واتجاهات الكاتب ، كما أنه لا يخفـى علينا أن الاشخاص يختلفون فيما يدونونه من مذكرات ، وما يلفت نظرهـم حسب تخصصاتهم واهتماماتهم .. وكثير من هذه المذكرات لم يكتـف بتسجيل الملاحظات والمشاهدات الوقتية ، بل استطرد الى ذكر تفاصيل واشياء تتعلق بالمدن والاماكن او الاحداث التي ذكرها ، لكنهـا ترجـع لازمنة تاريخية سابقة .

ومن أمثلة هذه المذكرات واليوميات :

1 ـ مذكرات الكاتب هنري مينورنج (Captain Henry Mainwaring) :

والكاتب مينورنج ـ قائد بحري بريطاني زار الكثير من الثغور المغربية مثل (أصيلا ، العرائش ، المعمورة ، سلا ، اسفي ، سانتاكروز ، ماسـة) في الفترة بين 1615 ، 1620 ـ وعمل ضد القراصنة في البحر المتوسط ، والمحيط الاطلسي ، وكتب ملاحظاته ومشاهداته عن هذه الثغور .

وقد تأثرت نظرته للاحداث بالناحية العسكريـة ، وبأعماله ضـد القراصنة في سلا وغيرها من الموانيء المغربية (16) .

2 ـ مذكرات انطوني شيرلي (Anthony Sherley) :

وقد اشتهر انطوني شيرلي ، وشقيقاه سير روبرت (Robert) وسير توماس (Thomas) بالرحلة والتجوال . وقد ولد سير انطوني في عام 1565 ، وامضى فترة طويلة من حياته في جولات زار فيها عدة بلاد منها المغرب التي قضى فيها اكثر من عشر سنوات وان لم تكن كلها متصلة ،

(16) British Museum — Bibl. Reg. 17 A XLVII

وفي عام 1622 اعتكف في غرناطة حيث عكف على تنظيم مذكراته التي كان قد دونها عن رحلاته ، وتحدث في هذه المذكرات عن الاحداث التي أعقبت وفاة مولاي أحمد المنصور بالمغرب ، وتناول الحديث عن مشاهداته ومعلوماته عن الثغور المغربية مثل (سبتة ، طنجة ، مزاجان ، المعمورة) ، هذا بالاضافة الى مغامراته أثناء رحلاته المتعدد في هذه المناطق .. وقد نشرت هذه المذكرات ضمن مجموعة الرحلات التي نشرها هاكليوت (17)

3 ـ مذكرات جون هاريسون (John Harrison) :

جون هاريسون من الشخصيات الهامة التي لعبت دورا حاسما في العلاقات بين انجلترا والمغرب ، فقد عينه الملك شارل الاول (Charles I) ممثلا له في المغرب ، ونجح في 24 شعبان 1036 هـ (10 مايو 1627) في عقد معاهدة بين انجلترا وبين الفقيه العياشي الذي كان قد بسط نفوذه على كثير من الثغور الهامة ، وعلى المنطقة الممتدة من (سلا) الى (تطوان) .

وقد كتب هاريسون عدة تقارير ، كما كتب مذكرات وافية عن الفترة التي قضاها بالمغرب مع ابداء ملاحظات هامة . ففي 1627 يكتب بافاضة مشيرا الى الخدمات التي أداها له العياشي ، ويشير بالذات الى محاصرة العياشي لثغر المعمورة الذي كان بيد الاسبان (18) .

---

(17) British Museum Egaton Mss. 1824 f.f 77—82

والرحلة منشورة ضمن مجموعة

Hakluyt : The principal Navigations.

« A true Relation of the Voyage undertaken by Sir Anthony Sherley

كما نشرت رحلات الاشقاء الثلاثة :

« The Travels and adventures of Sir Anthony, Sir Robert and Sir Thomas Sherley in Persia, Russia, Turkey and Spain — With portraits — Londres 1885 »

(18) Record Office — State papers, Foreign Barbary States — Vol. XII fol. 129-139

ويعود هاريسون فى اكتوبر عام 1630 فيسجل ملاحظات اخرى عن (المعمورة) مشيرا لاهميتها لانجلترا ، والفوائد التي يمكن ان تعود على الانجليز لو أمكنهم انتزاعها من يد اسبانيا ووضع أيديهم عليها ، ويشير الى ان هذا لا يثير خلافات مع العياشي الذي يخشى لو انه هو نفسه استرد هذا الميناء الهام فان الاتراك سيحاولون الاستيلاء عليه ، ويبرز اهمية الثغور المغربية لانجلترا التي لو وضعت أيديها على هذه الثغور مثل (سبتة) بالاضافة الى نفوذها فى جبل طارق فانها ستتحكم فى مدخل البحر المتوسط من هذه الناحية (19) .

ويشير هاريسون الى زيارته لسلا فى الفترة بين 28 سبتمبر ، 8 اكتوبر 1630 ويطنب فى شرح مركز الفقيه العياشي فى هذه الفترة وموقفه فى الحرب بينه وبين الموريسكيين (20) .

والحقيقة ان مذكرات هاريسون تلقي أضواء قوية على الاوضاع فى المغرب فى ذلك الوقت ، وعلى ما تثيره فى نفوس الطامعين من الاجانب من انجليز واسبان واتراك وغيرهم ـ خاصة الدول البحرية التي بدأت تدرك أكثر من ذي قبل اهمية الثغور المغربية المطلة على الممرات المائية الهامة فى البحر المتوسط والمحيط الاطلسي .

4 ـ مذكرات الكابتن جيل بن (Captain Giles Penn) :

الكابتن بن Penn من رجال البحرية البريطانية الذين زاروا الثغور المغربية ، وقد زار سلا بالذات فى عام 1636 ، وكتب مذكرات وافية سجل فيها مشاهداته ، وقدم مذكراته الى :
(The Right Honourable Lords commissioneries)
وتتميز مذكراته بالمعلومات الدقيقة عن (سلا) ، و (تطوان) وغيرهما من الموانىء المغربية ، وعما تحتاجه السفن المسافرة الى هذه الموانىء ، وأشار للاحداث الهامة المتعلقة بالمغرب فى هذه الفترة كالحروب التي

(19) Ibid : fol. 154-155
(20) Ibid : fol. 173-176

نشبت بين العياشي والموريسكيين ، والسلطات الحاكمة في المغرب وحض انجلترا على أن ترسل أسطولها لمعاونة العياشي ـ لينتصر على أعدائه ويمكن بعد ذلك أن تحقق انجلترا أهدافها عن طريقه (21) .

5 ـ مذكرات فولك بويل (Foulke Powell)

كان بويل قائدا بحريا على السفينة البريطانية انتيلوب (Antilope) وقد كلف في عام 1637 من قبل الحكومة البريطانية بمهمة حماية السفن التجارية البريطانية التي تعمل في ثغور المحيط الاطلسي ، ورعاية مصالح البريطانيين في هذه الثغور المغربية ـ والضغط على السلطان في الرباط لفك سراح الاسرى البريطانيين .

وقد ضمن مذكراته مشاهداته في هذه الفترة ، وتحدث في هذه المذكرات التي كتبها من على ظهر الباخرة البريطانية السالفة الذكر عن علاقات انجلترا بسكان سلا والعياشي ، كما أشار الى المعاهدة التي عقدت بين العياشي ورينزبورو (Rainsborough) الذي كان يمثل انجلترا في هذه الاتفاقية ، كما أشار الى ان عددا كبيرا من الاسرى الانجليز يرحلون الى الجزائر اما للعمل هناك أوللبيع للاسواق الاوربية (22)

6 ـ مذكرات ستيفن سكوت (Stephen Scott)

اتسمت هذه المذكرات التي كتبت في غضون عام 1638 ـ بالصبغة الاقتصادية بالذات ، فقد اشار كاتبها الى الغلات الهامة التي تصدر من الثغور المغربية كالسكر ، والشمع ، والتمر ، والذهب الذي يرد من (تنبكتو) وغيرها من بلاد السودان الغربي . كما أشار في مذكراته

(21) Public Record Office — State Papers — Domestic, Charles I Vol. CCCXXXVIII N° 51

(22) Public Record Office — State Papers — Foreign Barbary States XIII

الى المعاهدة المعقودة فى سنة 1638 بين شارل الاول ، ومـولاي محمد الشيخ بن زيدان (23)

7 ـ مذكــرات روبــرت بــلاك (Robert Blake) :

كان بلاك فى الاصل تاجرا بريطانيا ، وفد للمغرب ، لكن مولاي محمد الشيخ بن زيدان اصطفاه وقربه اليه ، فترك التجارة ، ودخل فى خدمـة الحاكم المغربي ، وقد كلفته انجلترا (شارل الاول) ببذل الجهد لاطــلاق سراح الاسرى الانجليز الذين فى المغرب ـ وعاد الى انجلترا رفقة القائد المغربي (جؤدر بن عبد الله) الذي ارسله محمد الشيخ سفيرا عنه لانجلترا فى عام 1637 ـ وقد بذل قصارى جهده لتدعيم مركز انجلترا السيـاسـي والاقتصادي فى بلاد المغرب .

وقد كتب بلاك مذكراته بعنوان :

« An account of an agency to the King of Morocco 1638 — A true Copy of my Journal during the tyme of my agency to the King of Morocco — 1639 » (24)

وروبرت بلاك له مذكرات اخرى وتقارير ـ ركز فيها بالذات على مـا يلاقيه الرعايا الانجليز على أيدي من سماهم (قراصنة سلا) ، وقد كتبها تحـت عنـوان :

« The manifold wrongs and callamities which his majesties subjects have been subjected unto by the piarates of Saly — 1641 »

وهذه المذكرات الاخيرة مقدمة الى اعضاء مجلس اللوردات البريطاني

(To the Right honourable the Lords assembled in the high Court of parlyament) (25)

---

(23) Melbourne Hall (Derbyshire) — Coke papers lease 41

(24) Public Record Office — State papers Foreign Barbary States XIII

(25) House of Lords papers — Lease 63

8 ـ مذكـــرات الكابتـــن باديلــــي (R. Badiley) :

كان الكابتن باديلي قائدا لسفينة بريطانية ، وقد برز على الخصوص أثناء الحرب ضد اسبانيا فى عام 1656 ـ اذ كان فى هذه الاثناء فى الاسطول الذي كان يقوده بلاك (Blake) وادوارد مونطاكي (E. Mountagu)

وفى يومياته التي كتبها عن أحداث هذه الفترة يعطي على الخصوص معلومات وافية عن ثغر (تطوان) الذي زاره بعد وفاة الفقيه العياشــــي ، وكانت السلطة فى ذلك الوقت به في يد عبد الكريم النقسيس عامل الامير عبد الله الدلائي ، وقد أبرز أهمية هذا الميناء المغربي للانجليز ، وتفاوض مع السلطات المغربية فى الميناء لتمنح انجلترا امتيازات خاصة ، وبناء على نصحيته سعت انجلترا لعقد معاهدة سلم وصداقة مع الامير الدلائي ، وعينت نثنائيــــل لوك (Nathaniel Luke) مندوبا لها فى (تطـــوان) والثغور المغربية الاخرى (26) .

رابعـــا ـ الكتـــب المعاصـــرة :

يوجد عدد كبير من الكتب المنشورة ، واغلبها يرجع تاريخ طبعه الى نفس هذه الفترة الزمنية ، وان كان البعض منها قد طبع متأخرا او اعيــد طبعه ـ وتعتبر هذه الكتب من المراجع الهامة لهذه الفترة ، وبالطبع ليست هذه الكتب متداولة ، وقد نفذت طبعاتها ، اما لغتها فهي اللغة العاديـــة المتداولة في ذلك الوقت (فى القرنين السادس عشر ، والسابع عشر ،)

وتعطي هذه الكتب عادة ارقامـــا خاصــــة (Press Mark) بخلاف الوثائق الاخرى الرسمية غير المطبوعة .

ومن امثلة هذه الكتب :

I — Ro. G. : A True Historicall Discourse of Muley Hamets rising to the three Kingdomes of Moruecos, Fes and Sus (Londres — 1609) (27)

---

(26) Public Record Office — Sate papers — Domestic Interregnum — vol. CLIII No. 107.

(27) British Museum — Printed Books — Press Mark 1198 C. 20

ومؤلف هذا الكتاب لم يذكر اسمه بصراحة ـ لكنه رمز له بالحروف
Ro. G. ـ والكتاب مقدم الى :

« The Right worshipful Sir Robert Cottington of Cunnington Knight »

ويقع الكتاب فى 74 صفحة بالاضافة الى اربع صفحات غير مرقمة .
وقد تناول الكتاب عدة مواضيع سياسية واجتماعية تتعلق بالمغرب فى هذه الفترة مثل :

— كيف وصل السعديون الى الحكم ، والظروف التي انتهى فيها حكم الوطاسيين

— فترة حكم مولاي أحمد المنصور

— الحروب التي نشبت بين أولاد المنصور ، وما تبعها من اضطرابات فى المغرب

— المجتمع المغربي ؛ وبعض التقاليد والعادات المنتشرة فيه (الاسلام ـ الاعياد الاسلامية ـ الصلاة ، وكيف تؤدى فى المساجد وخارجها ـ عادات الزواج ـ العادات الجنائزية)

— النظام الاداري بالمغرب ـ الجيش ـ العدالة ـ المحتسب وعمله .

— الاقتصاد المغربي

— كيف يقضي المغاربة أوقات فراغهم (فى المدن ، والسواحل ، وفى المناطق الجبلية) .

ولا شك فى ان الكتاب يحتوي الكثير عن المجتمع المغربي فى هذه الفترة ـ من وجهة نظر هذا الكتاب الاجنبي .

II — Wilkins, George : Three Miseries of Barbary : Plague, Famine, Civil warre - with a relation of the death of Mahamet, the Late Emperour and a brief report of the now present wars betweene the three brothers. (28)

(28) British Museum — Printed Books ; Press Mark 1046 D. 24

والكتاب موجه الى شركة التجارة البريطانية التي أسست للتجارة مـــع المغـــرب
(To the right worshipfull, the whole Company of the Barbary Merchants)

ولعل ما ذكره الكاتب فى مقدمة كتابه يكفي لاعطاء فكرة سريعة عـــن موضوع الكتاب والهدف منه ، فهو يذكر انه قد مر على هذه البلاد ـ بلاد المغرب ـ بسبب ما أصابها من أمراض ، وقحط ، بالاضافة الى الحروب الاهلية ـ الكثير من النوائب ، وهو يعرض هذه الاحداث فى كتاب ليس كبير الحجم لكنه ـ كما يذكر ـ ممتع ، وهو لا يجد من يهمه الوقوف على حالة هذه البلاد افضل من الشركة البريطانية للتجارة مع الثغور المغربية ، ولذا فهو يقدم الكتـــاب لها .

III — Smith, John : The true travels and adventures and Observations (Londres, 1704)

ومؤلف هذا الكتاب ـ جون سميث ـ انجليزي ، ودخل فى خدمة الجيش الفرنسي كجندي مرتزق فى الفترة من 1596 الى 1600 ـ لكنه بعد ذلك عاد الى وطنه انجلترا ، وكان يهوى الرحلات فقام بعدة رحلات زار خلالها معظم بلاد اوربا ، وقد وقع فى قبضة الاتراك العثمانيين لكنه نجـــح فى الهرب ، وفى عام 1604 زار المغرب ومنه عاد فى عام 1605 الى انجلترا ثم الى امريكا ومنها عاد بالتالي الى انجلترا حيث عكف على كتابة مشاهداته، وكان فى كتاباته يهدف لتشجيع بلاده لبسط نفوذها الاستعماري ، على اكبر رقعة ممكنة من العالم .

وفى كتابه عن المغرب تحدث عن الثغور المغربية الهامة بالاضافة الى ثغور الشمال الافريقي الاخرى كتونس والجزائر ، ووهران .

واهتم على الخصوص بأعمال القرصنة فى هذه الثغور ، فقد وصف حياة القراصنة ، ووسائلهم واعمالهم ، بل وصف سفنهم التي يستخدمونها والتي تتميز بالسرعة ، وذكر اسماء الكثيرين من القراصنة من عـــرب ، واجانب مثل تومسون (Tompson) ، وهـــريس (Harris) وولســـــون (Wilson) ـ ويدعي أن هؤلاء الاجانب نزحـــوا الى

المغرب لمزاولة أعمال تجارية وغيرها ، لكن القرصان اغروهم للانضمام الى صفوفهم ـ ويذكر ان القرصنة اضفت على المنطقة صبغة عسكرية حربية ـ وفى النهاية نجده ينصح الدول الاوربية بأن تضع ايديها على الثغور الهامة فى الشمال الافريقي لضمان سلامة الملاحة فى هذا الشريان الحيوي .

IV — « The Tragical Life and death of Muley Abdela Melek (29), the Late King of Barbarie ; with a proposition or petition to all christian princes annexed there unto, written by a gentleman employed into these parts (30) »

ويهدي المؤلف ـ الذي لم يذكر اسمه ـ كتابه الى الامير شارل (To the most illustrious and hopeful young prince, Charles, prince elector palatine of the Rhyne) (31)

والكتاب يهدف فى جملته الى اثارة الحكام الاوربيين لوضع أيديهم على الثغور المغربية (32) .

V — Dunton, John : Atrue journal of the Sally fleet, with the proceedings of the voyage — with a list of Sally captives'names and the places where they dwell, and a description of the three towns in a card. (Printed by John Dawson for Thomas Nicholas — London 1637).

ومؤلف هذا الكتاب ـ جون دنتون (John Dunton) من رجال البحرية البريطانية ، وكان قائدا للسفينة (The Leopard) ويركز الكاتب اهتمامه على القرصنة فى (سلا) ، وعلى الاسرى المسيحيين الذين يقعون فى ايدي القراصنة ومصيرهم لدرجة انه نجح ـ كما يقول ـ

(29) المقصود (عبد الملك ابو مروان) ـ والكتاب يتحدث عن الاحداث التي ترتبت على ثورة أخوية احمد الذي استقل بفاس والوليد الذي اقتحم مراكش عام (1040هـ ـ 1630م) وقتل اخاه عبد الملك ، وبويع باسم ابي يزيد الوليد بن زيدان

(30) المؤلف ـ كما تستنتج من اسلوبه ومعلوماته التي يدلي بها ـ هو جون هاريسون

(31) المقصود شارل لويس (Charles Louis) ابن فردريك الخامس

(32) British Museum — Printed Books — Press Mark 1198 C. 2 :

فى الحصول على بيانات كاملة عن الاسرى الانجليز فى الثغور المغربية وأماكنهم والظروف التي يعيشون فيها (33) .

وقد ضمن كتابه معلومات وافية عن ذلك (34)

VI — Sa. Backir : The arrival and entertainments of the Ambassador Alkid Joudar Ben Abdella with his associate Mr. Robert Blake — London 1637 (Printed by I. Okes, dwelling in Little Saint Bartholomeus — 1637) (35)

أعطى هذا الكتاب وصفا تفصيليا دقيقا للرحلة التي قام بها السفير جودر بن عبد الله الذي أرسله محمد الشيخ بن زيدان عام 1637 لانجلترا صحبة روبرت بلاك ـ وقد قدم الكتاب نبذة عن تاريخ حياة السفير المغربي ، ثم تتبع رحلته منذ مغادرته المغرب ، ومن غضون الحديث استطرد لاحداث هامة فى تاريخ المغرب ـ فتحدث عن معركة وادي المخازن التي قتل فيها الملك البرتغالي دون سبستيان (Don Sebastian) ، كما تحدث عن ظهور الفقيه العياشي وعلاقاته بانجلترا ، وعن قراصنة سلا ، واعطى وصفا تفصيليا عن مدينة سلا (موقعها ـ تحصيناتها ـ حدائقها) ، ثم تحدث عن مدن مغربية أخرى (أسفي ، فاس ، مراكش) ، وتطرق للحياة الاجتماعية والسياسية فى المغرب ، فذكر بعض التقاليد والعادات المتبعة عند سكان مراكش والسوس ، وشرح نظام التقاضي المعمول به فى المغرب ، بل وأشار الى بعض المعتقدات المرتبطة بالدين .

وهكذا نرى انه بالرغم من أن هدف الكاتب هو تسجيل احداث رحلة

(33) كانت عمليات القرصنة فى حقيقتها وسيلة من وسائل الجهاد بين المسلمين والمسيحيين، وكانت تتطور حسب علاقات الدولة السياسية بحكام المغرب ، وأصحاب النفوذ فى الثغور المغربية ـ فقد هدات حين توطدت علاقات انجلترا مثلا أيام الملكة اليزابث والسلطان أحمد المنصور ـ لكنها عادت بعد ذلك لتتسم بسمة العنف حين ساءت العلاقات بين حكام المغرب والدول الاوربية وقد كتب أكثر من كاتب اوربي فى موضوع القرصنة فى ذلك الوقت .

(34) British Museum — Printed Books — Press Mark 1943 C 12

(35) British Museum — Printed Books — Press Mark 1434, 1 — 2

السفير المغربي لانجلترا لكنه تطرق لاعطاء بيانات عن المغرب وجوانب متعددة من الحياة فيه من وجهة نظر الكاتب

VII — Carteret, George : The Barbary Voyage of 1638, now first printed from the Original manuscript of Sir George, Carteret « Philadelphia — 1639) (36).

كان القائد كارتيريه (Carteret) قائدا للسفينة البريطانية (The Convertive) ضمن ثلاث سفن حربية ـ أرسلت بناء على طلب مولاي محمد الشيخ الصغير لمعاونته لقمع حركة الخارجين على سلطانه ـ وقد كتب مشاهداته وملاحظاته خلال هذه الرحلة ، وطبعت بعد ذلك فى الكتاب المشار اليه الذي نشر فى عام 1639 .

خامسا ـ المعاهدات والاتفاقات الرسمية :

عقدت عدة معاهدات واتفاقات بين انجلترا من ناحية ـ وحكام المغرب أو اصحاب السلطة فى الثغور والمناطق الهامة فيه من ناحية أخرى ـ واغلب هذه المعاهدات محفوظة ضمن مجموعة خاصة بها ـ (State papers — Foreign Treaty papers) ـ وعادة تفوض انجلترا احد ممثليها فى المنطقة للتوقيع عنها على الاتفاقية على أن تعرض بعد ذلك على البرلمان ـ ولا شك فى ان الدراسة التفصيلية لبنود (Acts) هذه المعاهدات ، بل وللصيغة التي كانت تكتب بها تلقي أضواء على اهتمامات السياسية البريطانية واتجاهاتها فى هذه الجهات وتوضح الخطوط الاساسية للعلاقات التي كانت قائمة بين البلدين .

ومن أمثلة هذه المعاهدات :

1 ـ المعاهدة المعقودة فى 10 مايو 1627 بين اصحاب النفوذ فى سلا وجون هاريسون (J. Harrison) (37) :

وكان هاريسون فى هذه المعاهدة ممثلا للملك شارل الاول ـ ولا

(36) Petworth House (Sussex), Lord Leconfield MSS. 73

(37) Public Record Office — State papers, Foreign, Treaty papers, Barbary States I.

يتسع المجال هنا لتحليل هذه المعاهدة ، أو غيرها من المعاهدات المماثلة ودراستها ـ لكن لا شك فى ان هذه الدراسة تعطي صورة عن النظام الذي كان متبعا فى ذلك الوقت فى صياغة المعاهدات والاتفاقات الرسمية بالاضافة الى توضيح الاهتمامات التي كانت تشغل بال السلطات الرسمية فى الدولتين فانجلترا مثلا كان اهتمامها مركزا على ضمان مصالح رعاياها الاقتصادية فى المغرب وضمان سلامتهم وحريتهم فى هذه البلاد .

2 ـ المعاهدة المعقودة بين مولاي الوليد بن زيدان ، وشارل الاول (38) :

وقعت هذه المعاهدة فى مراكش فى 16 نوفمبر 1631 وتتعلق بفك أسرى الانجليز الذين فى أيدي السلطات المغربية ، ولضمان حرية الملاحة للسفن الانجليزية فى الموانيء المغربية ـ على ان يعامل الانجليز الرعايا المغاربة بالمثل .

3 ـ المعاهدة المعقودة بين سيدي محمد العياشي ، وشارل الاول (39):

وقعت هذه المعاهدة ايضا فى سلا فى 18 ذي الحجة 1046 الموافق 5 مارس 1637 ، وقد وقعها عن انجلترا القائد البحري رينسبورو (Rainsborough) ـ وفيها تتعهد انجلترا بامداد العياشي بما يحتاجه من أسلحة لمحاربة أعدائه ، بينما يتعهد هو من جانبه بضمان حرية الملاحة للسفن الانجليزية ، وسلامة رعايا انجلترا فى الموانيء التي تحت امرته ، وأن يفك أسر جميع البريطانيين الذين فى هذه الموانيء او البلاد الاخرى التي تقع تحت سلطانه .

وهذه المعاهدة تعتبر نموذجا آخر للمعاهدات التي عقدتها انجلترا فى ذلك الوقت مع اصحاب النفوذ فى الثغور المغربية ـ حتى ان كانوا من غير أصحاب السلطات الشرعية .

---

(38) Public Record Office — State papers Foreign, Barbary States — XII fol. 221 — 222.

(39) Melbourne Hall (Derbyshire), Coke Papers Lease 42

4 ـ المعاهدة المعقودة بين مولاي محمد الشيخ الاصغر ، وشارل الاول(40):

وقعت هذه المعاهدة فى مراكش فى 2 جمادى الاول 1047 الموافق 22 سبتمبر 1637 ، والنص الانجليزي للمعاهدة محفـــوظ فى الارشيف البريطاني ـ وهي وان كانت لا تخرج فى مضمونها عن المعاهدات المماثلـة التي كانت انجلترا تهدف من ورائها الى ضمان سلامة رعاياها فى الموانـــي والمدن المغربية ، وضمان مزاولة نشاطهم التجاري بالذات فى حريـــة كاملة ـ فانا أيضا تعطي فكرة عن حرص السلطات المغربية على الا يترتـب على حرية التجارة الممنوحة للاجانب امداد اعدائها الخارجين عن طاعتهـــا بالسلاح ـ فقد نص على أنه يحظر على الرعايا البريطانيين الاتجار مع اعداء الحاكم المغربي فى (سانتاكروز ، وماسة) وغيرهما فى السلاح ـ ومـــن يضبط مخالفا يعامل كما يعامل الاعداء .

ولا شك فى ان الكثير من مواد هذه المعاهـــدة وامثالها تـــدل على الدقة والحرص على تخير اللفظ الدقيق المناسب ، ويتضـــح هذا مـــن الدراسة التحليلية الدقيقة للمعاهدات نفسها .

ولنضرب مثلا لذلك بما جاء فى المـــواد 19 ، 20 ، 21 من هـــذه المعاهدة (41) .

فقد أشارت المادة 19 ـ الى انه قد يقع بالصدفة غبن لاحد رعايا أي من الطرفين ، فلا يعني هذا نقض المعاهدة ، لكن يجـــب اعطاء الفرصـــة لتصحيح الخطأ او ازالة الغبن .

بينما أشارت المادة 20 ـ الى انه قد يظهر لاى من حكـــام البلدين فيمـــا بعد ـ اضافة مواد اخرى لهذه الاتفاقية ، فلا مانع من ذلك باتفاق الطرفين أما المادة 21 ـ فتقضي بأن تعلن نصوص هذه الاتفاقيـــة فى الاماكـــن الرئيسية الهامة فى كل من البلدين ليحاط رعاياهما علما بما جاء فيها

(40) نفس المرجـــع السابـــق
(41) المعاهـــدة من 21 بنـــدا (مادة)

5 ـ المعاهدة المعقودة بين سيدي محمد الحاج الدلائي وانجلترا (42) :

عقدت هذه المعاهدة فى 19 اغسطس 1657 بين حاكم تطوان (عبد الكريم النقسيس) ممثلا لسيدي محمد الحاج الدلائي ، وبين جون ستوكس (John Stokes) القائد البحري البريطاني ممثلا لانجلترا (للورد اوليفر كرومويل Olivier Gromwell).

وهذه المعاهدة رغم انها لا تختلف كثيرا عن مثيلاتها من المعاهدات التي عقدت بين الحكام الانجليز ، واصحاب النفوذ والسلطة فى المغرب ـ لكنها فى الحقيقة تدل على ادراك الانجليز لاهمية التحكم فى مداخل البحر المتوسط ، ولعل اعلان الحرب على اسبانيا فى فبراير 1656 فتح عيون انجلترا أكثر لاهمية التحكم فى مدخل البحر المتوسط من الغرب ، ولذا اتجهت أنظارهم الى (طنجة) فى المغرب ، كما اتجهت الى (جبل طارق) الصخرة التي تتحكم هي و (سبتة) فى مدخل هذا البحر ـ وقد ظلت هذه من أهم معالم السياسة الانجليزية فى هذه المنطقة لفترة طويلة .

هذه جولة سريعة بين المصادر والمراجع البريطانية المتعلقة بتاريخ المغرب وعلاقاته ببريطانيا فى هذه الفترة ـ وهي تدل بلا شك على أهمية هذه المصادر والمراجع المعاصرة للكشف عن علاقات المغرب الخارجية فى هذه الفترة من تاريخه .

الرباط   د. شوقي الجمل

(42) النص الانجليزي للمعاهدة موجود فى :
Public Record Office — State papers, Foreign, Treaty papers 1.

ياأسامة

د. نذير العظمة

عندمـــا عبـــأت قلبـــى بالصـــبـــاح

يـــــا أســـامـــــة

أصـــبـــح الجـــرح ابـــتـــســـامـــة

أصبـــح الصـــدر جـــنـــاح

مـــن مـــدار الـــشـــوق جـــئـــت

اكتـــب الـــشـــعـــر على مـــاء وراح

وبـــروح الارض والبحـــر امتـــزجـــت

سفـــرة ، ســـارية ، هب ريـــاح

فامـــنـــح الـــريـــح غـــمـــامـــة

وعـــد الافـــق جنـــاحين وهـــامـــة

* * *

يـــقـــظـــة أنـــت بـــروحـــى

نلغـــم القـــبـــر اذا شئـــنـــا

ونـــعـــلـــو الـــمـــوت قـــامـــة

نحـــن أرز الحب فى لبنـــان والصـــدر السمـــاح

نحـــن فى الاردن آردن الكفـــاح

وبـــوجـــه الـــشـــام شـــامـــة

فلنكن ما شاءنا الحب وما تبغـــى الكرامـــة

يـــا أســـامـــة .

* * *

هـــات ازمـــيـــلك نضرب فى الحـــجـــر

خلنا نطلع حقلا بيدرا

خلنا نهدر نبعا .. قنبلة

من ضياء وفتون وفدى

خلنا نرفع منا أحدا ، نفجر بدرا

خلنا نزرع روح السنبلة

خلنا نطلع شمس الجلجلة

تترك الموت سطوعا فى البشر ! !

* * *

كيف صار السور فى قلبى شراعا

كيف صار السيف فى خاصرتى ضوءا يراعا

كيف صار النبض شعرا والشرايين شعاعا

كيف صار الحلم فجرا ومدى الارض التماعا

فجعلنا الشوق بحرا والمناخات سراعا

ومضينا أفقا يبحر .. والارض علامة

يا أسامة

اطمـــر الجمـــر بقلبى ثمـــرا خلف الرمـــاد

وأرأم النجم بهدبى كاشفا سر الســـــواد

عانقـــتـــنا الريـــح حلمـــا لا رفـــات

فـــاذا الـــريـــح أغـــــان

والصـــدى نبـــع وحقـــل وغـــلال

واذا الـــمـــوت فـــــرات

لمعـــت فى وجهـــه ألـــف ابـــتـــســـامة

يـــــا أســـامـــــة ! !

* * *

خـــذ يـــدى وامـــش على درب الـــســـلامـــة

حـــول الـــصـــحـــراء غـــابـــــا

وامـــلأ القلـــب عبـــيرا

واسفـــح الـــعـــتـــم بـــخـــورا

واتـــرك اللـــيـــــل غـــرابـــــا

طــار فى الافــق وغــابــا

واطـــلــق الــضــوء حــمــامــة

يــا أســـــامــــة ! !

الــربــاط **د نذير العظمة**

فجر الأدب الأندلسي

د. عبد السلام الهراس

ان فترة الولاة بالاندلس كانت تتسم بالعمل الحربي بين استمرار الفتح واستعادة ما فتح ثم ضاع بعد من يد الحكم الاسلامي ، وبين مجابهة المقاومة المحلية والفتن الداخلية التي كانت تنشب بين مختلف الفئات من القبائل العربية او بين البربر والعرب او بين البلديين والشاميين اي بين تلك الاحزاب التي نشات خلال الفتح العربي للاندلس . ولهذا ، ولعوامل اخرى لم يتح للحياة الثقافية والاجتماعية ان تستقر فى هذه الفترة وتنشط نشاطا كبيرا كما نشهد ذلك فى افريقية (تونس) وان لم تخل اذاك من انتاج ادبي لهم ، اذ لم تكن الاندلس مفتقرة الى العناصر البشرية العربية التي يمكن لها ان تنشىء ادبا عربيا : شعرا ونثرا ، فلقد استقرت هناك اعداد عربية كبيرة تكون بيئة ومناخا عربيا كفيلين بتغذية ثقافية فى مستوى العصر ، وان كانت اضعف من الاقاليم الاخرى المتصلة اتصالا وثيقا بالارض العربية وكان فى مقدمة الجيوش والطوالع الفاتحة شخصيات

عربية من كبار القواد والتابعين والفقهاء والحفاظ والابطال ، وهؤلاء كانوا اصحاب لغة ورجال علم وشريعة قادرين على الكلمة العربية البليغة ، ومنذ الفتح ، والاوساط الاندلسية مهتمة بالعلوم الشرعية وباللغة والادب قبل قيام الدولة الاموية (1) .

وليس يجمل بالباحث ان يتسرع فينكر وجود ادب عربي فى هـــذه الفترة المبكرة فى الحياة العربية الاسلامية بالاندلس او ان يشك فى الآثار الادبية التي أفلتت من الضياع والاندثار اذ لا يستغرب ان ينشىء العرب ادبا كما انشاوه في غيرها وهو وعاء افكارهم وعواطفهم وهواجسهم واداة تعبيرهم الفني ، وقد كانوا يمثلون عدة قبائل عربية تكاثرت وتناسلـــت وحافظت على عروبتها وعربيتها ، وتوارثت تراثها الادبي ، كما حافظت على دينها وعقيدتها ، وكان حالهم كالعرب المهاجرين اليوم فى أمريكا واوربا الا ان الاندلسيين فى أول امرهم لم يعتنوا اعتناء كبيرا بادبهم وعلمهم ، فقد شغلهم عن ذلك اهتمامات اخرى والفتن والحروب ، فهذا يحيى بن معين يسال محمد بن وضاح ((هل جمعتم حديث معاوية بن صالح)) ؟ فيجيبه بالنفي ، فيقول : ((وما منعكم من ذلك)) فيجيبه : ((قدم بلدنا لم يكن اهله يومئذ اهل علم)) فيتاسف ابن معين قائلا : ((اضعتم والله علما عظيما))(2)

وقد كان اهل العراق يهتمون بعلم معاوية ورواياته . والمشارقة هم الذين نبهوا الاندلسيين الى قيمة هذا الرجل ومكانته العلمية وكانوا يودون لو يدخلون الاندلس فيفتشون عن اصول كتبه ، وقد حاول ذلك ابن ايمن (توفي 330) المحدث الاندلسي اثر رجوعه من العراق فوجدها قد ضاعت بسقوط همم اهلها (3) .

ومما يدلنا ايضا على ضياع التراث الاندلسي فى بلاده ، هذا النص الذي اورده الخشني بمناسبة عهد القضاء لمهدي بن مسلم : ((قال احمد بن فرج : فقلت لاحمد بن عيسى لقد عظمت همتك اذ حفظت مثل هذا وشبهه من الاخبار القديمة . فقال : حفظت هذا زمن الصبا عن جد لي عمر نحو عمري ، وكان من احفظ الناس لاخبار المغرب وافتتاحه واخبار بني امية عندكم ولقد كان عندي من كتبه اخبار حسان غريبة فذهبت بحريـــق كان

في منزلي ولم يكن الاندلسيون يسمعون باسم القاضي مهدي بن مسلم وقد درس خبره من ذاكرتهم)) .

فاخبار القاضي وعهده سجل في تونس في حين درس اسمه وخبره من ذاكرة الاندلسيين حتى اصبح عهده ينسبه بعضهم لغيره ، ولذلك لم يبق محفوظا من اسماء ادبائهم وعلمائهم الا القليل ، ومن آثرهم الا النزر اليسير الذي تناقله الخلف عن السلف حتى سجل ايام التفات الاندلسيين الى انفسهم واعتزازهم ، بعض الاعتزاز بثقافتهم ، غير ان عواصف الفتن والاهوال والنكبات المتلاحقة والاهمال اتلف الكثير من ذلك ((الاقل)) الذي كان قد دون وحفظ .

وعلى قلة المصادر فان لدينا اسماء لمجموعة من الشعراء والبلغاء تجاوزت شهرة بعضهم حدود الاندلس والمغرب الى المشرق وان كانت الآثار الادبية لهذه المجموعة ضئيلة جدا . فمن هؤلاء :

1 ـ طارق بن زياد : له الخطبة الشهيرة التي سنفردها ببحث خاص، وبعض الابيات الشعرية التي يقول فيها : (4)

ركبنا سفينا بالمجاز مقيرا   على ان يكون الله منا قد اشترى

نفوسا واموالا واهلا بجنة   اذا ما اشتهينا الشيء فيها تيسرا

ولسنا نبالي كيف سالت نفوسنا   اذا نحن ادركنا الذي كان اجدرا

ويعلق ابن سعيد على هذه الابيات بقوله : ((وهذه الابيات مما يكتب لمراعاة قائلها ومكانته لا لعلو طبقتها)) .

2 ـ مغيث الرومي مولى الوليد بن عبد الملك الذي قام بدور مهم في الفتح ثم في النزاع الذي حدث بين قادة هذا الفتح ، ولعله اثر على الخليفة كي يعدل عن تولية طارق شؤون الاندلس وكان شاعرا ناثرا ، يقول عنه الحجازي :

« لمغيث من الشعر ما يجوز كتبه ، فمن ذلك شعر خاطب به موسى ابن نصير ومولاه طارق ويكفي منه هنا قوله : (5)

اعنتكم ولكن ما وفيتـــم فسوف أعيث فى غرب وشرف

ويستدل الحجازي على عنوان طبقته فى النثر عندما تحدى موسى ابن نصير فى محفل من الناس حينما قال له : « كف لسانك » ، فرد عليه قائلا : « لساني كالمفصل ما آكفه الا حيث يقتل » .

3 ـ مهدي بن مسلم ، كان من ابرز الشخصيات العلمية خلال عهد الولاة وبخاصة فى ايام حكم البطل المجاهد عقبة بن الحجاج السلولي الذي تولى حكم الاندلس من شوال سنة 116 ـ صفر 123 . وقد امتاز حكمه فى الاندلس بحسن دعوته الاسرى للاسلام مما عزز المجتمع الاندلســـي المسلم بكثير منهم .

والغريب ان مهدي بن سلام لم يكن عربيا اصيلا بل من ابناء اولئـــك الذين اسلموا من الاهالي حيث نشا فى بيئة أعجمية وتعلم العربية والعلوم الاسلامية واستطاع ان يبرز فى هذا الميدان ، وقد نال بصلاحـــه وتقواه وعلمه وبلاغته تقدير الخاصة والعامة مما لفت الانظـــار اليه فاستخلفـــه الوالي على قرطبة وولاه القضاء بها . وكان هذا القاضي معروفا بالبلاغـــة والبيان ، ولكن ليس لنا اي انتاج ادبي له سوى عهد توليته القضاء كتبـــه نيابة عن الوالي بنفسه لنفسه ولاهميته المبكرة نثبته برمته . قال مهدي:

« هذا ما عهد به عقبة بن الحجاج الى مهدي بن مسلم حيـــن ولاه القضاء . عهد اليه بتقوى الله وايثار طاعته واتباع مرضاته فى سر امـــره وعلانيته مراقبا له مستشعرا لخشية الله ، معتصما بحبله المتين وعروته الوثقى موفيا بعهده متوكلا عليه واثقا به متقيا منه « فان الله مع الذيـــن اتقوا والذين هم محسنون »

وامره ان يتخذ كتاب الله وسنة نبيه محمد صلى الله عليه وسلم اماما يهتدى بنورهما وعلما يعشو اليهما وسراجا يستضيء بهما ، فان فيهمـــا

هدى من كل ضلالة ، وكشفا لكل جهالة ، وتفصيلا لكل مشكل ، وابانة لكل شبهة ، وبرهانا ساطعا ، ودليلا شافيا ، ومنارا عاليا ، وشفاء لما فى القلوب ، وهدى ورحمة للمؤمنين .

وأمره ان يعلم انه لم يختره لمصالح العباد والبلاد وتوليه القضاء الذي رفع الله قدره واعلى ذكره وشرف أمره الا لفضل القضاء عند الله جل جلاله ، لما فيه من حياة الدين ، واقامة حقوق المسلمين واجراء الحدود مجاريها على من وجبت عليه ، واعطاء الحقوق من وجبت له . ولما رجا عنده فيما يمضيه ويتقدم فيه ويحكم به من ايثار حق الله عز وجل وطلب الزلفى والقربى اليه وان يحاسب نفسه فى يومه وغده فيما تقلد من الامانة الثقيل حملها الباهظ عبؤها فانه محاسب وموعد . وأمره ان يواسي بين الخصوم بنظره واستفهامه ولطفه ولحظه واستماعه ، وان يفهم من كل أحد حجته وما يدلي به ، ويستانى بكل عي اللسان ناقص البيان،فان استقصاء الحجة ما يكون به لحق الله تعالى عليه قاضيا،وللواجب فيه راعيا ، فقد يكون بعض بعض الخصوم الحن بحجته وابلغ فى منطقهوأسرع فى بلوغ المطلب حيلة فى المذهب ، وأذكى ذكاء ، واحضر جوابا من بعض،وان كان غير الصواب مرماه وخلاف الحق منهاه ، فان لم يتعاهد القاضي مثل هذا ويجعله من القربات الى الله عز وجل بالتحفظ والتيقظ والاسترابة والاحتراس من اهل الخب واللدد والعناد والتبلس بشهادات الزور ، وتحيف الحقوق ، اهلك القوي الضعيف ، واقتطع حقه وغلب عليه ، وفى تقدم القاضي فى النظر فى ذلك والمراعاة له واحتساب ثواب الله فى اثبات الحق وازهاقه الباطل « ان الباطل كان زهوقا » وامره ان يكون وزراؤه واهل مشورته والمعينون له على امر دنياه وآخرته اهل العلم والفقه والدين والامانة ممن قبله ، وان يكاتب من كان فى مثل هذه الحال المرضية ممن فى غير ناحيته ويقابل آراء بعضهم ببعض ويجهد نفسه فى اصابة الحق . فان الله جل ثناؤه يقول فى كتابه الناطق على لسان نبيه الصادق محمد عليه السلام : « وشاورهم فى الامر ، فاذا عزمت فتوكل على الله » وان يكون حجابه واعوانه ومن يستظهر به على ما هو بسبيله اهل الطهارة والعفاف والطلب لانفسهم والبعد من الدنس فان افعالهم منسوبة

اليه ومنوطة لديه فاذا اصلح ذلك لم يلحقه عيب ولم يعلق به ريـــب ان شـــا ءالله .

وامره ان يديم الجلوس والقعود لمن استرعاه الله أمره وقلده شانه ، واسند الحكم له وعليه ويقل السآمة منهم والتبرم بهم ويصرف اليهم قلبه وذهنه وشغله وفكره وفهمه ولسانه بما يوسعهم به عدلا وانصافا واصلاحا واستصلاحا ، فان في ذلك قوة لمنتهم واحياء لتاميلهم وتحقيقا لجميـــل ظنونهم وثقة منهـم بورعـــه ونزاهتـــه وطيـــب طعمتـــه فان فيهـــم الضعيف عن التودد والزمن الثقيل (؟) . وعليه في كل وقـــت التعهـــد ووهنا لاهل التلدد والفجور والتقحم في ملتبسات الامور وان يكون قعوده لهم وتصرفه في النظر بينهم بنشاط وقلة فتور ، ليكون ذلـــك اقوى لـــه واتقن لما يحكمه ويبرمه من سياستهم وتدبيرهم ان شاء الله ، وامـــره ان يسمع من الشهود شهادتهم على حقها وصدقها ويستقصيها حتى لا يبقى عليه شيء منها ، ومن المزكين تزكيتهم ويكثر البحث والفحص عن امورهم اجمعين ، ويسال عنهم اهل الصلاح والدين والامانة والثقة والدعة ممن يعرفهم ويبطن احوالهم ولا يعجل بامضاء حكم حتى يستقصي حجج الخصوم وبيناتهم ومزكيهم ويضرب لهم الآجال ويوسع فيها عليهم حتى تتجلى لـــه حقائق امورهم وتنكشف له اغطيتها ، فاذا اتى عليها علما وايقنها ايقانا لـــم يؤخر الحكم بعد اتضاحه وظهوره وثبوته عنده وعند من يشاوره من فقهائه. وامره ان يطالع بكتبه في الحوادث التي يحتاج فيها الى المؤامرات فيمـــا اشكل عليه واستغلق له واحتاج اليه في النوازل : ابراهيم بن حرب القاضي ليرد عليه منه ما يعمل به ويمتثله ويقتصر عليه ويصير اليه لتكـــون موارد اموره ومصادرها ومبتدا فواتحها بالتسديد مقرونة خواتمها بالتاييـــد ان شـــاء الله .

هذا عهدي وامري اياك واسنادي اليك ما اسنده ، وتفويضي اليك ما فوضت فان تعمل به مؤتمرا لرضا الله وطاعته قائما بالحسبة ، مؤيـــدا حق الامانة يكن بين يديك ، وظهيرا لك ، وان لم تعمـــل به يكن حجـــة

عليك ، واذن اسال الله أن يعينك ويقويك ويرشدك ويوفقك ويسددك ،انه خير موفق ومعين وصلى الله على محمد » .

ان هذا العهد دستور دقيق للقضاة يعكس العقلية الاندلسية الاسلامية فيما يتصل بتنظيم السلطة القضائية ولكنه فى نفس الوقت يبين عن مدى تمكن العربية وتغلغلها فى الاوساط الاندلسية الحديثة العهد بالاسلام ، فلغة العهد لغة أديب أصيل متأثر باسلوب وروح القرآن الكريم وبمدرسة السلف الصالح كعمر بن الخطاب صاحب الرسالة القضائية المشهورة .

4 ـ واكبر شاعر مبكر لهذا العصر : ابو الاجرب جعونة بن الصمة الكلابي (7) ، كان مداحا للصميل بن حاتم بن شمر زعيم المضرية ، فقد افنى فيه قوافيه واشاد بذكره وكان شديد الارتباط به . ولشدة اعجاب الصميل بشعره وطرب له اغلظ القسم على نفسه الا يراه الا اعطاه ما حضر لديه،فكان الشاعر جعونة يحاول ان يتقي لقاءه،فاغب الزيارة حتى لا يحرجه، فكان لا يزوره الا مرتين فى السنة وذلك فى العيدين . ولم تكن العلاقة بين الشاعر وهذا الزعيم علاقة ود ووفاء وصفاء دائما ، فقد حدث بينهما ما عكر صفوها ، فتوترت لاسباب نجهلها وانقلبت الى عداوة شديدة التجأ فيها الشاعر الى سلاح الكلمة ، فهجم على الصميل وهجاه وقومه . غير ان فكر السياسي ودهاء السيف كان اقوى من حدة الكلمة وغضبة القافية،فاستطاع ان يقبض عليه ويقدر على الانتقام منه ، غير انه صفح عنه واغضى عن اساءته ، فما كان من الشاعر الا ان نسخ هجوه السابق بغرر من المدح ، انست الناس لواذع الهجاء واستلت من نفس الصميل وقومه بقايا الالم والضغينة .

وفى ميزان تقويم ابن حزم لشعره فان مكانته لا تقل عن مكانة جرير والفرزدق المعاصرين له ، بل ان الانصاف كان يقتضي الاستشهاد بشعره « لانه جار على مذهب الاوائل لا على طريقة المحدثين » .

وقد تخطت شهرته حدود الاندلس والمغرب اذ كان شعره معروفا ببغداد حيث انشده عباس بن ناصح ابانواس فيما انشده من شعر

الاندلسيين في رحلته لبغداد ، ويبدو ان شعره ظل متداولا الى عصر ابن حزم الذي قرأه وتذوقه واصدر حكمه ذاك ولكننا لم يصلنا منه الا بيتان لا يناسبان مكانته ، اذ تعوزهما القوة الشعرية التي حدثونا عنها فيقول فيها:

ولقد أراني من هواي بمنزل عال ، ورأسي ذو غدائر افرع
والعيش اغيد ، ساقط أفنانه والماء أطيبه لنا والمرتع

وكان الى جانب شاعريته الفذة فارسا شجاعا ، ولذلك كان يدعى « عنترة الاندلس » وكانت وفاته قبل قيام دولة الامويين بالاندلس وقبل وقعة المصارة التي انتصر فيها عبد الرحمن الداخل على يوسف الفهري سنة 138 هـ .

5 ـ أبو الخطار الحاسم بن ضرار الكلبي الشاعر الفارس (8) كان يعيش في تونس وكان يؤلمه ان يرى بني امية قد تجاهلوا دور قومه في مرج راهط فبعث الى دمشق بقصيدة قال فيها :

أفأتم بني مروان قيسا دماءنا وفي الله ، أن لم تنصفوا ، حكم عدل
كأنكم لم تشهدوا مرج راهط ولم تعلموا من كان ثم له الفضل
وقيناكم حر القنا بنحورنا وليس لكم خيل سوانا ولا رجل
فلما بلغتم نيل ما قد اردتم وطاب لكم منا المشارب والاكل
تعاميتم عنا بعين حليلة وانتم كذا ما قد علمنا لنا فعل
فلا تامنوا ان دارت الحرب دورة وزلت عن المرقاة بالقدم النعل
فينتقض الحبل الذي قد فتلتم الا ربما يلوى فينتقض الحبل

وكانت الاندلس اذاك تتخبط في فتنة عمياء ، ظلمات بعضها فوق بعض ، تسبح في بحر من الدماء وتعاني تمزقا . لا سيادة الا للسيف والنزعات الجاهلية والقبلية . ففي هذا الجو المشحون بالتوتر والتربص والتناحر وصل ابو الخطار الى قرطبة واليا عليها « وكان رجلا من خيار أهل الشام من اهل دمشق فرضي به الشاميون والبلديون وأطلق الاسرى والسبي فسمى ذلك العسكر « عسكر العافية » ، ثم حاول ان يظهر

الاندلس من رؤوس الفتنة الذين نفاهـم منهـا عبـر طنجـة وفـك « الارتباط » بين الاحزاب المتقاتلة ففرق العـرب الشاميين فى الكـور خارج قرطبة . وكانت نهاية محزنة وذلك عندما جرفته الاحداث فانغمس فى العصبيات « فآل به الامر الى الخلع والفرار الى جهة باجـه فى غرب الاندلس فى قصص طويلة وذلك سنة ثمان وعشرين ومائة بعد اربع سنين وتسعة اشهر من ولايته » .

وليس لنا من شعره فى الاندلس سوى ابيات ثلاثة خاطب بها عدوه المضرى الصميل بن حاتم الكلابي يقول فيها :

ان ابن بكـر كفاني كـل معضلـة   وحط عن غاربي ما كان يؤذينـي

اذا اتخذت صديقـا او هممت بـه   فاعمد لذي حسب ان شئت او دين

ما يقدر الله فى مالي وفى ولـدي   لا بد يدركني لو كنت بالصيـن

6 ــ الصميل بن حاتم الكلابي ابو جوشن زعيم المضرية فى الاندلس وشريك يوسف الفهري فى تدبير الولاية بهذا القطر (9) . وصف بالشجاعة والنجدة والجود ، وقد عرفنا بعض اخباره مع الشاعر جعونة ، الا انه كان اميا لا يقرأ ، وقبليا شديد التعصب لقبيلته وعلى اعدائه اليمنية ، ويبدو انه كان بعيداً عن الروح الاسلامية ، فلقد ثار عندما سمع مؤدبا يتلو قول الله تعالى : « وتلك الايام نداولها بين الناس » قائلا : « نداولها بين العرب » ، قال المؤدب «بين الناس» فناداه : « يا هناه ! كذا نزلت هذه الآية ؟ » ، قال المؤدب : « نعم » ، قال الصميل « والله ان سيشركنا فى هـذا الامـر العبيد والاراذل والسفلة » ولم يبق من شعره الا بيتان اوردهما ابن الابار، قالهما عند اغارة الطائيين على داره بشقندة يوم المصارة عند انهزام يوسف الفهري واستخلاف عبد الرحمن ، وهما :

الا ان مالـى عند طـي وديعـة   ولا بد يوما ان تـرد الودائـع

سلوا يمنا عن فعل رمحي ومنصلـي   فان سكتوا اثنت على الوقائـع

7 ـ يوسف بن عبد الرحمن الفهري آخر ولاة الاندلس ، قتله عبد الرحمن الداخل سنة 139 هـ كان معدودا في الفصحاء وكذلك ولد، ابو الاسود الا ان ادبهم لم يصل لنا منه شيء (10) .

8 ـ الحصين بن الدجن بن عبد الله (11) ، كان قائدا مع يوسف الفهري الى آخر معركة المصارة ثم اصبح من رجالات عبد الرحمن الداخل، وقد وصفه ابن الابار بانه فارس أهل الشام باسا ونجدة وكان شاعرا الا ان شعره لم يصل لنا .

9 ـ واكبر كاتب لهذا العصر هو : خالد بن زيد الكاتب الذي برز بشخصيته وأدبه على مسرح النزاع بين يوسف الفهري وصقرقريش .

ان دور خالد في الصراع بين الداخل وآخر ولاة الاندلس هو الفرصة الوحيدة التي اتاحت لنا ان نتعرف على جوانب ضئيلة من حياتـه وعلى بضعة سطور من نثره ، اما قبل هذا الصراع فلا نعرف عنه شيئا لحد الان.

اسمه خالد بن زيد (12) ، وفي بعض المصـادر ابن يزيـد (13) ، ولعله تحريف ، وهو علج مولى . ونفهم من هذا انه من ابناء الاسبان الذين أسروا في الحرب خلال الفتح ، وقد يكون جده هو الذي اسلم لان والده يسمى زيدا وهو اسم عربي .

وارتبطت اسرة خالد باسرة يوسف الفهري بالولاء وقد يجـوز ان نفترض ان جد خالد او اباه كان مولى لعبد الرحمن بن حبيب ، والد يوسف، وذلك عندما غزا الاندلس مع حبيب بن ابي عبيـدة الفهـري (14) ، ولا يستبعد ان تكون اسرة خالد صحبت سيدها لافريقيا عندما عاد اليها وان صح هذا فان نشاة خالد كانت في جو عربي اسلامي وفي اسرة مجيـدة عريقة ، وقد استطاع هذا المولى ان يستاثر باعجاب سيده يوسف فارتبط به ارتباطا قويا ورجع معه للاندلس وذلك لرجاحة عقله ، وروعة بيانه ، وجم أدبه وشدة اخلاصه مما جعله يتخطى رقاب العرب الاقحاح الى مكانـة الكتابة الخاصة بالامير يوسف وهكذا اصبح كاتبه الاثير ومن اقرب الناس

اليه واشدهم اخلاصا وحماسا لنصرته ومشاركة فى تخطيطه وأمـــوره وتحبيذا لمواقفه ومقتا لاعدائه ، والصقهم به فى حله وترحاله . ويبدو أن خالدا كان ، على اخلاصه ، لبقا فى الحديث مع سيـــده ، يعرف كيـــف يدغدغ آماله ويعلل مطامعه فيتسرب بذلك الى اعماقه ويشعره بشــــدة الحاجة اليه والاعتماد عليه ، فتراه يؤاكله ويشاربه صحبة وزيره الصميل، وذات يوم قال خالد لسيده بمحضر الصميل ، وقد فرغ الامير من مؤاكلتهما، واثر القضاء على بعض اعدائه من العرب : ((هنيئا لك أيها الاميـــر اكتمال سعدك ، قد قتل الله لك كاشحك ابن شهاب وفلانا وفلانا ـ يعد الاشراف من العرب المقتولين فى غزوهم الروم ـ ووفقك لقتل أنفلهم ضميرا هذا العبدري ـ يعني عامرا وابنه ـ فمن ذا يعارضك بعدهم ، هي والله لـــك ولولدك الى الدجال)) (15) .

ويبدو أن خالد بن زيد كان يشارك فعليا فى التخطيط للقضـــاء على الزعماء العرب الذين كانوا ينافسون يوسف ويحاولون الانقلاب عليـــه او هكذا كان يتراءى ليوسف ويزين له ذلك كل من الصميل وخالد ، ولكن ما يكاد هذا الكاتب العلج ينتهي من كلامه ذاك ، وقد اغرته النهاية المفجعة لاعدائه واعداء سيده ، حتى يفاجأ المجلس بنذير شر مستطير : ان أمويا سليل الخلافة اسمه عبد الرحمن بن معاوية بن هشام قد حـــل بأطراف الاندلس يدبر انقلابا ويدعو الناس اليه . انها غصة جديدة تزعـــج يوسف المنتصر ، فيتشاور مع وزيره الصميل لمواجهة هذا الخطـــر الداهـــم ولما تتلاش بعد انغام التهنئة الجميلة التي زفها اليه كاتبه خالد . وبدون تقدير سليم للموقف يشير الصميل على الامير الاصلع بأن يبعث وفدا الى ابن معاوية ليتصل به ويعرض عليه ان يصاهره على ابنتـــه ويوسع عليـــه ويبادره بالهدايا ، وبذلك يأمن جانبه ويضمه اليه . ولعلها كانت خطوة لايقاع هذا الشاب الاموي الطموح فى الشرك للقضاء عليه وعلى انصاره بعـــده . ويتالف الوفد المفاوض برئاسة خالد بن يزيد ومن عبيـــد الله بن علـــي وعيسى بن عبد الرحمن ، ويصحب الوفد معه رسالة من الامير كتبها خالد ابن زيد ، وهدايا ثمينة (16) لتقدم الى عبد الرحمن ويبدو ان الوفد قرر تقديمها بعد نجاح المفاوضات وقبول ابن معاوية عروض يوسف . ولكـــن

خالدا كان مكلفا بمهمة اخرى غير المفاوضة فقد حدد له أميره هذه المهمة بقوله : ((اعرف امره ـ اي امر عبد الرحمن ـ واي جند عنده وتأمل اخباره واخبار من معه)) (17)

ويخرج الوفد ليلا (18) وفى ((ارش)) يتخلف عيسى ابن عبد الرحمن بالهدايا خشية ان يستولى عليها عبد الرحمن قبل ان يحقق لهم مهمتهم (19) ويتابع خالد وزميله السير نحو معسكر عبد الرحمن وعند ما وصلاه وجداه محاطا بكثير من الانصار الذين يزداد عددهم ومن اولئك الانصار قواد كان يوسف ينتظر وصولهم للسير معه لبعض معاركه الحربية ظانا انهم لا يزالون من حزبه .

مثل خالد ورفيقه امام الطارق الجديد ، فالقى عليه خطبة باسم يوسف الفهري : دعاه فيها الى الالفة ورغبه فى مصاهرة الامير الذي لن يالو جهده فى الاحسان اليه ، وعند انتهائه من القائها،اخرج رسالة سيده فناوله اياها، ولكن عبد الرحمن دفعها لوزيره وأهم انصاره أبي عثمان عبيد الله بن عثمان ـ وهو من زعماء العرب بالاندلس ومن انصار الصميل السابقين الذين اجابوا عبد الرحمن وحاولوا اسمالة الصميل نفسه ـ فلم يكد يتناول ابو عثمان الكتاب حتى ابتدره خالد فى غرور وعجب قائلا (20) :

((يا ابا عمثان لتعرقن ابطاك قبل ان تحير فيه جوابا)) فتجرح هذه الكلمة المغرورة كرامة أبي عثمان فتفجر غضبه ((وكان ـ كغيره من كبار عرب الاندلس ـ يكره خالدا ولا يرتاح اليه ، اذ كان خالد مولى اندلسيا اصطنعه يوسف وصعد بمكانه ...)) (21)

فلم يتمالك ان فاه بشتائم خبيثة وعيره يابن الخبيثة العلج ! ..
وفى البيان المغربي ان خالدا تكلم بكلام غليظ لابن معاوية اذ ابى التزويج (22) وهي رواية مخالفة لما فى اخبار مجموعة التي تسترسل فى بيان موقف ابي عثمان الذي ضرب بالرسالة وجه خالد ، وامر بالقاء القبض عليه ، فاخذ وكبل من ساعته ، وسيق الى السجن رغم احتجاج رفيقه عبيد الله بن علي بكونه رسولا ، وهكذا وضع رئيس الوفد خالد رهن

،سجن ، وتحت حراسة رجلين من رجال بني امية وقد امرهما عبد الرحمن بضرب عنق هذا الاسير عندما ينتقل الناس من هذا المكان! فكان خالـــد يقول في محبسه : (23) ما آليت على الدعوة لنفسي قط الا يومئذ ، كنت اقول : اللهم انصر يوسف ! ثم اقول : في نصره قتلي ، وفي نصـــر ابن معاويـــة هلكـــي » .

ويظل خالد في سجن عبد الرحمن الى صفر سنة 139 هـ حين اتفق الطرفان على الصلح وتبادلا الاسرى فكان من اغرب ما وقع في هذا التبادل ان اطلق عبد الرحمن سراح خالد بن زيد مقابل تسريح يوسف لابي عثمان عامل الداخل على قرطبة الذي سبق ان شتم خالـــدا وضـــرب وجهـــه بالرسالة وامر بسجنه (24) .

وينتصر عبد الرحمن ويتغاضى عن خالد بل يضمه اليه فيصبح من كتابـــه حينا (25) .

ولعل تلميذه امية بن زيد كاتب عبد الرحمن ومولاه حال دون الانتقام منه من قبل اولئك الذين كانوا يريدون تصفيـــة الحساب معه يـــوم القي القبض عليه ، وما كان ابو عثمان لينسى له وقاحتـــه ، الا ان المواقـــف الكريمة التي اتخذها عبد الرحمن من اعدائه بالامس كبحت جماع الرغبة في الانتقام ، وفثات من غلواء الغضب الجاهلي الذي كان يدفع بعضهـــم للانضمام لعبد الرحمن كي يثار لنفسه وعشيرته من يوسف وحزبه .

ويبدو ان خالدا لم يطمئن في عمله مع عبد الرحمن ، ولعل اخلاصه ووفاءه لسيده المهزوم ، او خوفه من ان يتهم بعلاقته ببعض اولاد يوسف المتمردين ، لعل ذلك كله ، او بعضه جعله يقرر الخـــروج من الاندلـــس نهائيا ، فيسال الامير عبد الرحمن ان ياذن له بالخروج الى المشـــرق ، فاستجاب لالحاحه وامر كاتبه ومولاه امية بن يزيد ان يكتب لاستاذه كتاب سراح فابى امية ذلك واعتذر قائلا : (26)

« معلمي وولي الاحسان قبلي يكون اول شيء يجري له على يـــدي الكتاب بخروجه عن اهله وماله !! » .

ولعل الامر «بالجواز» كان لا يتعدى السماح لخالد بالمرور وحده فقط دون ان يصحب معه اهله او ماله كما يفهم من الاعتذار السابق لامية بن يزيد،وقد يجوز لنا ان نفهم من هذا ان الامير عبد الرحمن كان حريصا على ابقاء خالد بالاندلس كاتبا معه ، ولاجل ذلك حاول ان يثنيه عن الذهاب الى المشرق عندما اذن له بالخروج دون اهله وماله ، حتى اذا أصر على الذهاب فانه يضطر للاياب ، غير ان خالدا كان صريحا مع الامير عبد الرحمن اذ كانت رغبته مغادرة الاندلس باهله وماله دون ان تكون له نية في العودة ، وعلى الرغم من المصادر التي تحدثت عن خروجه من الاندلس لم تشر صراحة وبتفصيل الى هذا ، فان كتاب سراح او « الجواز » الذي كتبه خالد لنفسه بامر عبد الرحمن بعد ان امتنع أمية من كتابته يدلنا بوضوح على ذلك ، فقد كتب على لسان الامير عبد الرحمن لعامل الجزيرة الخضراء ما يلي : (27)

« اما بعد فاخرجنا خالدا بقضه وقضيضه فانها الراحة له والراحة منه والسلام » . ومن هذا الكتاب نرى ان خالدا كان صريحا .. اذ ينص على السماح بالخروج بكل ما لديه من أهل وحشم ومال ، دون ان يصانع او يخفي الهدف من الهجرة من الاندلس ، فهو يريد ان يريح ويستريح .

والى جانب هذا الاثر الفني الرائع فقد افلت من ايدي العفاء أثر آخر او بعض الاثر ، جزء من الرسالة التي كتبها باسم يوسف الفهري موجهة لعبد الرحمن الداخل مع الوفد الذي كان خالد رئيسه وكاد يلقي حتفه بسبب باوه وتطاوله على ابى عثمان ، ويبدو ان هذه الرسالة كانت طويلة ، لان ابن عذاري يقدم لها بقوله : « وكان يوسف كتب الى ابن معاوية كتابا وهذه فصول منه » .

ونص هذه البقية ما يلي : (28)

« ... اما بعد فقد انتهى الينا نزولك بساحل المنكب وتابش من تابش اليك ونزع نحوك من السراق واهل الختر والغدر ونقض الايمان المؤكدة التي كذبوا الله فيها وكذبونا ، وبه جل وعلا نستعين عليهم ولقد كانوا معنا في ذرى كنف ورفاهية عيش حتى غمضوا ذلك واستبدلوا

بالامن خوفا وجنحوا الى النقص ، والله من ورائهم محيط . فان كنـــت تريد المال وسعة الجناب فانا اولى ممن لجات اليه آكنفك واصل رحمـــك وانزلك معي ان أردت او بحيث تريد ، ثم لك عهد الله وذمته بي الا اغدرك ولا امكن منك ابن عمي صاحب افريقية ولا غيره .. » .

وليس لنا من الآثار الادبية لهذا الكتاب الاندلسي غير هذين النصين وهما ـ كما نرى ـ يتعلقان بالفترة التي تتمثل فى انهيار حكم الولاة وقيام الدولة الاموية ، ولسنا ندري عن مصير خالد شيئـــا بعـــد مغادرتـــه الاندلس ولعل قطع علاقته بالحياة السياسية جعله ينـــزوي بعيـــدا عن اهتمـــام التاريـــخ (29) .

ويهمنا فى الاخير ان نشير الى اننا امام اول نثر فني بقلم كاتب اندلسي اصيل وليس لنا من مثل هذه الآثار الادبية المبكرة الا نزر يسير ويسير جدا . ومن المعقول ان تكون للكاتب آثار ادبية اخرى لكنها ضاعت كما ضاع غيرها وبالاخص فى هذه الفترة المضطرة . وان وصف هذا النثر الفني الاندلسي وبيان خصائصه اعتمادا على ذلك النزر اليسير يجب ان يلتزم الحذر ويتوقى المجازفة .

وعلى كل ، فنحن امام كاتب فنان مبدع يعاني ويحتفل ويجهد الفكر . وان قطعته الموجزة لتدلنا على قدرته على التعبير الفني الذي يتجلى فى الدقة وجمال التنسيق واحكام الصياغة وتكثيف المعنى وانتقـاء الالفاظ والوضوح والسلاسة دون اي تكلف او تصنع . وفى القطعة الاخرى او على الاصح فى البقية منها تبدو بساطة التعبير ووضوحه واسترساله وتأثره بالقرءان وليس فى القطعة محاولة لاظهار براعة الزخرف والحلي اللفظـي ولا نستبعد ان تكون البقية الضائعة من الرسالة قد سبكت سبكا فنيـــا جميلا وصيغت صياغة قوية والا ما كانت هذه القطعة لتصلـــح وحدهـــا اساسا للتحدي والغرور .

ان مكانة خالد فى النثر الفني تبدو من خلال تلك الرسالة الموجزة من ناحية ، ومن اعجاب عبد الرحمان الداخل بفنه واتخاذه كاتبا له رغـم انه كان خصما سياسيا له يشايع يوسف الفهري وكفى بصقر قريش شاهدا ومعجبـــــا .

كان خالد شيخ الكتاب بالاندلس في عصره وقد تخرج على يديه امية ابن يزيد الكاتب الذي استمرت الكتابة في عقبه من بعده . وتولوا بالقلـــم مناصب هامة لدى الامويين كما سنرى .

10 ـ اميـــة بن يزيـــد (30)

دخل الاندلس في طالعة بلج القشيرى سنة 123 هـ وابوه كان مولى امويا ، وعند ما حل امية بالاندلس بعد ان افلت من الحصار المميت الذي كانت طالعة بلج تعانيه في سبتة وجد في خالد بن يزيد الكاتـــب استاذه الذي يربيه على الكتابة والادارة ، ويبدو أن امية كان اذ ذاك شابا يانعـــا ، وعندما تغلب عبد الرحمن الداخل على يوسف الفهري واصبح امير الاندلس وحاكمها الاعلى اتخذ امية كاتبا له ووزيرا فادرك عنده حظوة كبيرة ، يقول ابن الخطيب : « كان في عداد من يشاوره من خاصته ونقباء دولته ويفضل آراءه ثم توارث عقبه شرف الكتابة للمروانيين بالاندلس واتصلت النباهة فيهم دهرا طويلا (31) ومع اخلاصه لامويته فقد كان وفيا لاستاذه عندمـــا تنصل من امر عبد الرحمن الداخل بان يكتب لاستاذه خالد كتاب سراح وخروج من الاندلس متذرعا بقوله : « معلمي وولي الاحسان لي يكون أول شيء يجري له على يدي الكتاب بخروجه عند اهله وماله ؟ »

ورغم ما عرف عن عبد الرحمن الداخل من قساوة وصرامة فانه كان لينا مع كاتبه فلم يرغمه على تنفيذ امره او يعاقبه على رفضه ، وانما امر خالدا ان يكتب لنفسه كما سبق القول .

وليس لدينا اي اثر ادبي لامية ، وان كنا نظن ان بعض الكتابات التي نسبت لعبد الرحمن الداخل قد تكون بقلم كاتبه الاثير . ؟! وقد خلف امية مدرسة كبيرة من ابرزها ابناؤه واحفاده الذين توارثوا الكتابة لبني امية الى اواخر القرن الثالث . وقد كان هناك كتاب وبلغاء آخرون لـــم تحتفظ لنا المصادر بآثارهم وان اشارت الى اسمائهم واشادت باقتضاب ببلاغتهم مثل عبد الرحمن بن حبيب الفهري الذي التجا الى الاندلس مع بلـــج ثم اضطر لمغادرتها الى تونس بعد تولية ابى الخطار حكم الاندلس ، فقد كان

مع باسه وبسالته خطيبا مفوها . وعامر بن عمرو بن وهب القرشي (32) الذي كان احد رجالات قريش بل مضر بالاندلس شرقا ونجدة وادبا ، وكان ثائرا يطلب الامارة لنفسه وله حروب مع الصميل ويوسف الفهري وانتهت ثورته باعدامه مع ابنه وهب وذلك صدر سنة 138 (33) ، ونعثر ايضا على اسم كاتبين مغمورين توليا الكتابة لعبد الرحمن الداخل حينا قبل ان تسند الكتابة الى امية بن زيد وهما : عبيد الله بن عثمان مولى عثمان بن عفان وعبد الله بن خالد (34) .

وعرضا نعثر ـ بمناسبة الحديث عن بلاغة عبد الرحمن الداخل ـ على جندي برز في ميدان الكلمة وكان سيظل مهملا لولا الاهتمام باخبار الامير . فقد انتصر جيشه في سرقسطة واقبل الخواص يهنئونه فاندس بينهم هذا الجندي وهناه بصوت عال فقال عبد الرحمن وقد استبد به الغضب :

والله لولا ان هذا اليوم يوم اسبغ علي فيه النعمة من هو فوقي فاوجب علي ذلك ان انعم فيه على من هو دوني لأصلينك ما تعرضت له من سوء النكال . من تكون حتى تقبل مهنئا رافعا صوتك غير متلجلج ولا متهيب لمكان الامارة ولا عارف بقيمتها حتى كانك تخاطب اباك او اخاك ؟ وان جهلك ليحملك على العود لمثلها فلا تجد مثل هذا الشافع في مثلها من عقوبة »» فرد عليه الجندي :

«« ولعل فتوحات الامير يقترن اتصالها باتصال جهلي ودنوبي فتشفع لي متى اتيت بهذه الزلة ، لا اعدمنيه الله تعالى »» فخفف هذا الجواب من غضبة الامير فقال له : «« ليس هذا باعتزاز جاهل نبهونا على انفسكم اذا لم تجدوا من ينبهنا عليها »» ورفع اذاك من مكانته وزاد في عطائه (35) .

يعلمنا هذا النص انه كان هنالك ادباء ما بين خطيب وحائك للكلام ناثرا او شاعرا الا ان آثارهم ظلت متداولة شفاهيا دون الاهتمام بتدوينها او ربما دونت ولكنها ضاعت بضياع امهات الاصول الاندلسية .

مما سبق نستطيع ان نقول : بان الادب الاندلسي فى هذه الفترة لم يكن سوى صدى خافت ، ولكن متصاعد ، للادب العربي فى المشرق يسير فى نفس الاتجاهات ويطرق نفس الموضوعات وان كانت الظروف الاندلسية هي التي اقتضتها ، ويتخذ نفس الاساليب ولحد الان لم يكن قد تهيئت للاندلس العوامل التي تجعلها تبرز شخصيتها المتميزة فى الادب العربي مضمونا وحكلا مما يجيز لنا القول بان الادب الاندلسي فى هذه الفترة كان ادبا مشرقيا وجزءا منه وان كان اندلسيا باعتبار البيئة التى وجد فيها ، وان اغلب المنشئين له كانوا لا يزالون مرتبطين بالمشرق وطارئين على الاندلس ، ومنهم من خرج منها عائدا الى تونس او المشرق ، ولكن مع ذلك فان منهم من نشا نشأة اندلسية بحتة اذ كانوا من مواليدها ومن اصول اعجمية .

د. عبد السلام الهراس

المصـــــادر :

(1) طبقات الامم ص 71 ط. علي محمد ابو طالب ـ القاهرة
(2) قضاة قرطبة للخشني ص 15 ط. الدار المصرية للتاليف والنشر ـ القاهرة 1966
(3) نفســـه ص 16
(4) نفـح الطيـب 1 / 265
(5) نفســـه 3 / 14
(6) قضـاة قرطبـة ص 8 ـ 12
(7) جـذوة المقتبس ، للحميـدي ، ص 177 ـ 178 . بغيـة الملتمـس ص . طبقـات النحويين ، للزبيـدي 286 . المغـرب لابن سعيـد 1 / 131 ـ 132 . نفـح الطيـب 177 ـ 225 .
(8) اخبار مجموعة 45 ـ 46 ـ 56 ـ 61 . ابن القوطية 43 ـ 45 . الحلة السيراء 1 / 61 ـ 66 . البيان المغرب 2 / 33 ـ 34
(9) ابن القوطية 63 ـ 64 . الحلة السيراء 1 / 67 ـ 68
(10) الحلـة السيـراء 2 / 349 ـ 351
(11) نفســه 2 / 354 ـ 355
(12) اعتاب الكتـاب 71 ، تحقيـق د. صالـح الاشتـر . الحلـة السيـراء 2 / 346 . الاحاطة ورقة 11 مخطوط . اخبار مجموعة ص 39 . وهذه الترجمة منشورة بدعوة الحق عدد 6 سنة 1389

(13) اخبـــــار مجموعـــــة 79

(14) نفـــح الطيـــب 3 / 25

(15) الحلة السيراء 2 / 346 . اخبار مجموعة 76 ـ 79 ، وينسب هذا الكلام للصميل 0 وما بين عارضتين من كلام الراوي

(16) اخبار مجموعة 29 ـ 80 . البيان المغرب 2 / 45 ، وهنا بعض المخالفة لما فى غيره والانظر نفح الطيب 3 / 33 ، 51 ، وفى ص 23 منه ان الصميـل اشار على يوسـف بمبادرة عبد الرحمن بالحرب قبل ان يستفحل امره .

(17) البيان المغرب 2 / 45 ط . دار الثقافة

18) نفســـــه

(19) اخبار مجموعة نفس الصفحات السابقة

(20) نفســـه ، والبيان المغرب 2 / 45

(21) فجر الاندلس ص 679 . تاليف الدكتور حسين مؤنس

(22) البيان المغرب 2 / 45

(23) اخبار مجموعـــة ص 90

(24) اخبار مجموعة ص 93 ـ 94

(25) اعتـــاب الكتـــاب ص 71

(26) نفســـــــه ص 71

(27) نفســـه والاحاطة الورقة 11 خ الاسكوريال

(28) البيـــان المغرب 2 / 45

(29) انظر اشارات لهذا الكاتب فى كل من كتاب الدكتور احمد هيكل الادب الاندلسي ص61، وعبد الله عنان ، دولة الاسلام بالاندلس 1 / 151 ، ورسالة الدكتوراه للدكتور محمود مكـــي .

Ensayo sobre las aportaciones orientales en la Espana musulmana

فصلة من مجلة المعهد المصري بمدريد ، العددان : 9 ، 10 سنة 1961 ـ 1962 .

(30) انظر الحلة السيراء 2 / 373 ـ 374 . اعتاب الكتـاب 71 . النفـح 3 / 3 46 . المقتبـس لابن حيـان جـزء القرويين بتحقيـق الدكتـور محمـود مكـي ، ص 277 وتعليق المحقق 128

(31) الحلـة السيـــراء 2 / 341 ـ 342

(32) نفسهـــــــا 2 / 244

(33) نفـــح الطيـــب 3 / 46

(34) نفـــــــــه 3 / 42 .

البَحْـر

علي الصقلي

الام تـظـل كالمجـنـون تـجـرى
صبـاح مسـاء ، فى كـر وفـر ؟ !

فهـل يـا بحـر أنت تغـذ سـيـرا
لتـغـرق فى مـيـاهك كـل بـر ؟ ؟

فتقبـل هـادرا كالرعـد ، تـرغـى
وتـزبـد ، كالمـهيـج لأخـذ ثـأر

بمـوج قـد تـرامـى اثـر مـوج
كخـيـل فـك عنهـا قـيـد أسـر

عــلا كالطــود ثــم هــوى اندـيــامــا
كطــود الــثــلــج منــداحــا بقــفــر

وآنــــا ســاكــن كــحــشــاخــلــى
كــأن ماجشــت قبــل جيــاش قــدر

لعــلــك من لــغــوب أنــت شـــاك
لــذلــك شــافــع مـــدا بــجــزر !

* * *

سمــاء أنــت فى الارض استــقــرت
تعــانــق أختهــا مــن ألــف دهــر

تحاكــيــهـا سكــونــا واضطــرابــا
وفى خــيــر تــضــاهــيــهــا وشــر

دراريـــهــا كــريــم الــدر مــمـــا
حــوت دنــيــاك من مــكــنــون در

وحلــتــهــا تــرى ــ والجــوروق ــ
نســيــج زمــرد بــســواه يــزرى

* * *

هويتك ساجيا ، والليل زاه
بما أهداك من نجم وبدر

وللصمت الرهيب لسان سحر
به أربى على شعر ونثر

خريرك قد يدغدغه لكيما
يضاعف ما له من آى سحر

وللأنسام فى اذنيك همس
شهى ، كم يهزك حين يسرى

يبثك من هموم هوى معنى
فتحتمل الهموم برحب صدر

* * *

عظيم أنت فى سلم وحرب
عظيم أنت فى سر وجهر

وليس كمثل كنزك أى كنز
ولا كثمين ذخرك أى ذخر

وحسب الكون قطرك خير قوت
وهل ترجى الحياة بدون قطر ؟

وما غنى الورى بسواك غيثا
وشلالا وعينا أو كنهر

* * *

ألا يا ليت شعرى أى شىء
يرى عجبا عجابا مثل بحر ؟ ! !

الرباط — على الصقلى

يحيى بن حكم البكري الغزال

(156 هـ - 250 هـ) = (772 م - 864 م)

عبد القادر زمامة

عرف عهد الامارة الاموية فى قرطبة (138 ـ 156) عددا من الشعراء ورواة اللغة والادب . منهم اندلسيون ومنهم وافدون على الاندلس. كانوا على صلة وثيقة بالحياة الادبية والفكرية والسياسيـة . الا ان المصـادر التاريخية والادبية المتعلقة بالاندلس لا تمدنا عنهـم الا بمعلومـات دون المستوى المطلوب والمرغوب فيه لدراسة شخصيتهم وآثارهـم . ففى تراجمهم لا نجد منها الا جوانب سطحية ومعلومات مقتضبة لا تكفى للعلم بمكوناتهم وعناصر شخصياتهم وثقافاتهم . وفى انتاجهم لا نجد الا النزر اليسير الذى لايكفى للحكم على مواهبهم ومميزاتهم والآفاق التى حلقوا فيها ابتكارا او تقليدا .

ومن اشهر هؤلاء يحيى بن حكم البكري الجياني الملقب بالغزال الذي كان يعرف في العصور الاولى عند الاندلسيين وعند غيرهم بشاعر الاندلس لما ترك وراءه من شهرة ذائعة في المشرق والمغرب . ينسب هذا الشعر الى مدينة جيان الشهيرة الواقعة في وسط الطريق بين غرناطة وقرطبة . ولا ندري اصل ذلك . هل ولد الشاعر بها وانتقل منها الى قرطبة ام ان اصل اسرته كان من جيان فلذلك نسب اليها ؟ والبكري نسبة الى القبيلة العربية المتفرعة عن ربيعة . وهي بكر بن وائل بن قاسط . وقد اشار ابن حزم الى بطون هذه القبيلة (1) فهو عربي الدم جياني الاصل قرطبي الدار .

ويعين الحافظ الحميدى لميلاد الغزال سنة 156 هـ ــ 772 م لكنه لا يعين مكان هذه الولادة(2)أيام امارة عبد الرحمن الداخل.وقد توفي هذا الامير سنة 172 هـ وعمر الغزال ست عشرة سنة وامتدت الحياة به فشاهد امارة هشام بن عبد الرحمن . وامارة الحكم الربضي وامارة عبد الرحمن الاوسط ومات في امارة محمد بن عبد الرحمن سنة 250 هـ ــ 864 م وهو ابن أربع وتسعين سنة (3) .

وفي هذه المدة المتطاولة شاهدت الاندلس عدة تطورات وتحركات سياسية وفكرية وأدبية وحضارية تبلورت فيها الحياة العامة . وتكونت الشخصية الاندلسية في ميادين الحكم والمذهبية الفقهية والثقافة الادبية والفكرية . وذلك لعدة عوامل واسباب داخلية وخارجية .

منها رحلات الاندلسيين الى المشرق لطلب المعرفة وربط السند والاتصال بأعلام اللغة والشعر والفقه والحديث . ورحلات المشرقيين الى الاندلس لطلب الشهرة والحظوة والعيش في ظلال الدولة الناشئة ، ومنها طبيعة العملية التي تم فيها لقاء عناصر من السكان ، عرب وبربر واوربيين ووافدين من اقطار شتي . وكل عنصر ياخذ ويعطي ويؤثر ويتأثر ويسهم في الحياة العامة حسب مواهبه ومطامحه .

ومنها حرص الامراء الامويين على حمل مشعل الحضارة العربية والثقافية الاسلامية في الاندلس كما حمله خصومهم العباسيون في العراق وأقطار المشرق الاخرى .

ونظرة عامة الى كتب التاريخ ، والتاريخ الاندلسي ، تعطينا امثلة لما كان يجرى فى هذه الحقبة من اتصال اهل الاندلس بتيارات المشرق الدينية والمذهبية والحضارية . زيادة على ما يحمله الوافدون معهم من كتب ومعلومات وثقافات .

ويحيى بن حكم الغزال كان يعيش فى هذه الاجواء وينال منها ما يناله الاخرون ، وتكيفت حياته وثقافته ونظرته الى الحياة بالتيارات الجارية فى عصره ومصره . وان كنا لا نملك معلومات عن سني طفولته وشبابه ومراحل تكوينه الثقافى والفكرى . وانما نقدر أنه كان فتى يتوقد ذكاء ويفيض نشاطا وعزما وقد حباه الله من جمال الصورة وسلامة الجسم وقوة الشخصية ما جعله مرموقا بين طلبة الادب وعشاق المعرفة فى عاصمة قرطبة الحافلة بالمواهب والكفاءات والعبقريات .

ويحدثنا ابن سعيد نقلا عن ابن حيان(4) ان الشاعر الاندلسي الرحالة عباس بن ناصح الثقفى الجزيرى شاعر الحكم الربضي وقاضي الجزيرة الخضراء وقد مر على قرطبة فى عهد الحكم فجاءه ادباؤها للاخذ عنه فمرت عليهم قصيدة :

لعمرك ما الوى بعار ولا العدم اذا المرء لم يعدم تقى الله والكرم

فلما انتهى القارىء الى قوله :

تجاف عن الدنيا فما لمعجز ولا حازم الا الذى خط بالقلم

فقال له يحيى الغزال ـ وهو حدث ـ ايها الشيخ . وما الذى يصنع مفعل مع فاعل ؟ فقال : وكيف تقول انت ؟ فقال

– تجاف عن الدنيا فليس لعاجز

فقال عباس : والله لقد طلبها عمك ليالى فما وجدها ...

فهذا الخبر الذى رواه ابن سعيد عن ابن حيان افادنا ان يحيى الغزال اخذ الادب عن عباس بن ناصح الشاعر الرحالة الذى رحل الى العراق واتصل بالشاعر ابى نواس وأنشده شعره ورجع الى الاندلس مملوء الوطاب من ثقافة المشرق وأدبه(5) ولكن هذا الخبر يثير فى نفسنا علامة استفهام وهى : اذا كان الغزال ولد سنة 165 هـ فكيف يكون ـ حدثا ـ على عهد امارة الحكم الربضى الذى تولى الحكم من سنة 180 هـ الى سنة 206 هـ ، فهب ان عباس بن ناصح زار قرطبة سنة 180 هـ وهي السنة الاولى من حكم هذا الامير ، فان عمر الغزال اذ ذاك يكون أربعا وعشرين سنة . والانسان فى مثل هذه السن شاب متكامل الشخصية لا حدث .

وعلى كل فان هذا الخبر هو اول معلم من معالم اخبار الغزال ـ فيما نعلم ـ حيث اننا لم نعثر فى المصادر التى بين ايدينا على خبر آخر يتعلق به على عهد هشام بن عبد الرحمن .

ويلفت النظر ان الاستاذ عبد الله عنان فى كتابه دولة الاسلام فى الاندلس ذكر ان يحيى الغزال مدح الحكم الربضي بهذين البيتين : (6)

كأن الملوك الغلب عندك خضعا   خواضع طير تتقى الصقر لبد

تقلب فيهم مقلة حكيمة   فتخفض اقواما وقوما تسود

وان الغزال كان من اعلام عهد الحكم . كثير التعريض بفقهاء عصره حتى سقطوا عليه ورموه بالزندقة وقد قال فيهم :

لست تلقى الفقيه الاغنيا   ليت شعرى من اين يستغنونا

تقطع البر والبحار طلاب الـر   زق والقوم ههنا قاعدونا

ان للقوم مضربا غاب عنا   لم يصب قصد وجهه الراكبونا

ونفس هذا او قريب منه كتبه الاستاذ عنان فى ترجمة يحيى الغزال من كتابه تراجم اسلامية شرقية واندلسية (7) الا انه لم يعين لنا مصدره فى هذه النقطة بالذات . نعم ذكر فى مصادر كتابه : دولة الاسلام فى

الاندلس : مجموعة اوراق مخطوطة فى السفر الاول من تاريخ ابن حيان تشتمل على حوادث سنة 180 هـ - 231 هـ عثر عليها ليفي بروفنسال ونقل منها الاستاذ عبد الله عنان ثم ضاعت الآن . فلعل هذه الاوراق الفريدة من تاريخ ابن حيان هي مصدر الاستاذ فى المعلومات التى سطرها عن الغزال ونشاطه على عهد الحكم .

فاذا صح هذا - والقرائن كلها تدل على صحته - فان الغزال يكون مسايرا لحملة الحكم على فقهاء قرطبة الذين شهروا به وألبوا الرأى العام ضدا عليه وحدثت بذلك فتن شهيرة فى ربض قرطبة الجنوبى المسمى - شقندة - فى رمضان من سنة 202 هـ - 818 م . (8) وأبيات التعريض بالفقهاء ليست غريبة عما اشتهر به الغزال من حدة اللسان كما نص على ذلك ممن كتبوا عنه(9).

وعلى عهد عبد الرحمن الاوسط (206 هـ - 238 هـ) نبدأ فى العثور على بعض اخبار الغزال ومقطعاته وقصائده وبعض الاعمال التى قام بها . وكانت شخصيته قد برزت فى قرطبة واشتهر عند رجال الحكم والسياسة وخاض معارك لاثبات الذات والظفر بالشهرة والجاه وأخذ مكانته بين اعلام العصر بصفة كونه شاعرا فلكيا منجما واسع الثقافة يجد الحكام فيه رغبتهم من سعة الحيلة وحسن التدبير والقيام بالمهمات وخوض الغمرات .

يحدثنا ابن دحية الكلبي(10) ان عبد الرحمن الاوسط ولاه قبض الاعشار واختزانها فى الاهراء لكنه استغل بعض ظروف انحباس المطر فباع المذخرات بالسعر المرتفع ، ثم نزل المطر ورجعت الاسعار الى معتادها فاشترى ما يماثل تلك المذخرات بالثمن المنخفض وربح الفرق. وقد تعرض لسخط الامير وكبل وسجن . ثم وقع العفو عنه بعد ان توسل بشعر قدمه الى عبد الرحمن .

من مبلغ عنى امام الهدى ... الوارث المجد أبا عن أب

أنى اذ اطنب مداحه ... قصدت فى القول فلم اطنب

لا فك الله عنى ان لم تكن ... اذكرتنا من عمر الطيب

واصبح المشرق من شوقه	اليك قد حن الى المغرب
منبره يهتف من وجده	اليك بالسهل وبالمرحب
أطربه الوقت الذى قد دنا	وكان من قلبك لم يطرب
هفا به الوجد فلو منبر	طار لوا فى خطفة الكوكب
الى جميل الوجه ذى هيبة	ليست لحامي الغابة المغضب
لا يمكن الناظر من رؤية	الا التحام الخائف المذنب
ان تـرد المال فانى امرؤ	لم اجمع المال ولم اكسب
اذا اخذت الحق منى فلا	تلتمس الربح ولا ترغب
قد احسن الله الينا معا	ان كان رأس المال لم يذهب

ويظهر ان الامير عبد الرحمن كان لا يستغنى عن الغزال وآراءه فى تدبير الحكم وتصريف السياسة وانه ضمه الى رجال دولته ليكون قريبا منه عند الحاجة ، وكانت دولة هذا الامير حافلة برجال المعرفة . وكان هو نفسه واسع الآفاق في تكوينه وثقافته يحب الحكمة والتنجيم ويقرب رجالهما . وعلى عهده دخل زرياب الاندلس كما دخلت نفائس العراق والمشرق وخطت البلاد خطوات حضارية وثقافية نلمس آثارها فى كتب المصادر المختلفة .

ونعرض الغزال لسخط الامير عبد الرحمن مرة ثانية حينما هجا ضيفه زريابا هجوا مقذعا تحرج ابن دحية من روايته في كتابه (11) وشكا زرياب أمره الى الامير فامر بنفي الغزال عن الاندلس ثم تشفع فيه اكابر الدولة فتركه .

ويزيدنا ابن دحية ان الغزال لم يطب نفسا بالمقام بالاندلس فرحل الى العراق بعد موت الحسن بن هانى بمدة يسيرة فوجدهم يلهجون بذكره ولا يساوون شعر احد بشعره : فنظم قصيدة من شعره وعرضها عليهم منسوبة للحسن بن هانى ـ ابى نواس ـ فلما استحسنوها اخبرهم انها له..

وانه اقام فی رحلته مدة يتجول فی ديار الشرق . وما انفك فی كل قطـــر منه من غريبة يطلعها . وطريقة يبدعها . وانصرف الى الاندلس وهو قـد ترك شرب الخمر وتزهد فی الشعر وشارف الستين (12) .

فاذا صحت رواية ابن دحية فان الغزال يكون قد استفاد من المشرقين وأفادهم وعرف ما جد من فنون ادبية وطريقة شعرية . وحيث اننا لا نملك عن هذه الرحلة واخبارها الا ما جاء فی كتاب المطرب لابن دحية فينبغی نتحفظ فی الاستنتاج الى ان يظهر ما يثبتها او ينفيها.(13) من النصوص القديمة .

على انه مما يثير الاستفهام فی هذه الرواية هو ان ابن دحية يقول : ان الغزال دخل العراق بعد موت ابي نواس ـ بمدة يسيرة ـ ومعلوم ان ابا نواس توفی سنة 198 هـ ـ 814 م وأن زريابا دخل الاندلس سنة 206 هـ ـ 821 م .

فلو فرضنا ان الغزال هجا زريابا فی نفس السنه التی دخل فيها الى الاندلس . وأنه رحل الى العراق فی نفس السنة . فيكون بين موت ابی نواس وبين رحلة الغزال الى العراق ثمان سنوات . وثمان سنوات ليست مدة يسيرة .

وتعرضت الاندلس على عهد عبد الرحمن الاوسط الى غزو النورمان (14) وهم الذين يسميهم مؤرخو الاندلس بالمجوس وقد زرعوا الرعب فی شواطیء البلاد واحتاج ايقاف شرهم الى مجهودات برية وبحرية عظيمـــة وذلك سنة 230 هـ ـ 844 م.

كما وفد عليها سفراء بيزانطة موددين لبلاط قرطبة بعد ما تعرضت بلادهم لغزوات العباسيين ولا سيما الغزوة الكبـرى التی تم فيهـا فتـح عمورية وتدميرها ، وخلد ذلك الشاعر ابو تمام فی بائيته التی مدح بها المعتصم العباسی(15) :

السيف اصدق انباء من الكتب   فى حده الحد بين الجد واللعب

وذكر الامبراطور توفلس بقوله :

لما رأى الحرب رأى العين توفلس   والحرب مشتقة المعنى من الحرب

غدا يصرف بالاموال جريتها   فعزه البحر ذو التيار والحدب

ووقع اختيار عبد الرحمن الاوسط على كاتبه المقرب اليه يحيى الغزال ليكون سفيره المعبر عن رأيه السياسى لما يعهده فيه من ذكاء ومعرفة وحسن تدبير، فارسله الى بيزنطة صحبة شخص آخر يسمى يحيى ابن حبيب وحملهما رده السياسى على عرض الامبراطور(16) وتمت الرحلة بطريق البحر وشاهد الغزال فى بيزنطة معالمها الحضارية ونظامها السياسى والاجتماعى وتهيأت له مناسبات ليسجل ارتساماته وعواطفه ، وقد ذكر ابن دحية الكلبى فى كتاب المطرب عند ترجمة الغزال عددا من المقطعات التى نظمها فى هذه الرحلة وفى الشخصيات التى اتصل بها ولا سيما الامبراطورة ونجلها .

وقد نجح الغزال فى سفارته ورجع الى قرطبة فذاعت اخباره وأشعاره عن رحلته واختلطت فيها الحقائق بالاساطير . ثم ارسله عبد الرحمن بعد مدة فى سفارة اخرى الى بلاد المجوس ـ النورمان ـ الذين كانوا يسكنون البلاد السكندنافية وما حولها .

وخطر النورمان كان عظيما وشديدا بسبب غاراتهم المتعددة على الشواطىء الاوربية وضمنها بلاد الاندلس . وكون عبد الرحمن يرسل اليهم سفيرا للمهادنة والصلح امر تمليه المصالح السياسة والعسكرية لدولة الاندلس فلذلك ارسل يحيى للقايام بهذه المهمة بعد نجاحه فى سابقتها .

وابن دحية الذى ذكر هذه الرحلة كان يهمه قبل كل شىء ان يذكر النصوص الادبية التى رواها للغزال ولا يهمه ان يفصل خبرها لانه اديب

محاضر ليس من منهاجه التحقيق والتدقيق فى الاخبار والحوادث . ومن اجل ذلك اختلطت فى كلامه رحلة القسطنطينية برحلة بلاد النورمان وهذا ما حمل بعض الباحثين على الشك فى رحلة الغزال الى بلاد النورمان(17) بينما اثبتها وأيد وقوعها آخرون(18) .

هذا ما استطعنا معرفته عن نشاط الغزال على عهد عبد الرحمن الاوسط، اما عن نشاطه فى دولة ابنه محمد بن عبد الرحمن ، فاننا نجده يهنئه ببيتين رواهما ابن حيان هما :

ان سميى النبى فضله الله ... على كل من مضى وبقي

مد له الملك ساعديه لدن ... أقبل للحب مد معتنق

كما نجده يروي له قصيدة نهى فيها ابن اخته ابراهيم عن لعبة الشطرنج التي كانت قد انتشرت فى قرطبة بين الخواص والعوام (19) .

وودع الغزال هذه الحياة على عهد هذا الامير سنة 250 بعدما عاصر خمسة امراء على حد قوله :

ادركت بالمصر ملوكا اربعة ... وخامسا هذا الذى نحن معه

ويلفت النظر ان الحافظ الحميدى فى الترجمة التى كتبها للغزال من كتاب جذوة المقتبس نعته بالرئيس ، ولا ندري مراده بهذا اللقب .

فهل كان الغزال رئيس الكتاب فى عهد عبد الرحمن الاوسط ؟

أم لقب بذلك لرئاسته قبض الاعشار والسهر على امر المذخرات ؟ أم لرئاسته لسفارتي بيزانطة وبلاد النورمان ؟

اما عن شعر الغزال فان الحافظ الحميدي يحدثنا(20)ان حبيب بن أحمد الشطجيرى ـ وهو شاعر من اهل قرطبة ادرك ايام الحكم المستنصر وبلغ سنا عالية رآه الحميدي فى أيام صباه ولم يسمع منه شيئا ـ جمع

ديوان شعر يحيى بن حكم الغزال ورتبه على الحروف . وهذا الديوان لا نعرف عنه خبرا ولا مستقرا ـ فيما نعلم ـ لحد الآن.

والذى امكننا الاطلاع عليه من شعر الغزال لا يعدو تلك المقطعات والقصائد والابيات المبعثرة فى المصادر المختلفة التي تحدثت عن الادب الاندلسي .

ـ كالعقد لابن عبد ربه المتوفى سنة 328 هـ ـ 842 م.

ـ وبهجة المجالس للحافظ ابن عبد البر المتوفى سنة 429 هـ ـ 1076 م . (21)

ـ والمقتبس لابى مروان ابن حيان المتوفى سنة 469 هـ ـ 1076 م.

ـ وجذوة المقتبس للحافظ الحميدى المتوفى سنة 488 هـ ـ 1095 م.

ـ وبغية الملتمس للضبى المتوفى سنة 599 هـ ـ 1202 م.

ـ والمغرب لابن سعيد المتوفى سنة 685 هـ ـ 1294 م.

ـ والمطرب لابن دحية الكلبى المتوفى سنة 633 هـ ـ 1235 م.

ـ ونفح الطيب للمقري المتوفي سنة 1041 هـ ـ 1631 م .

وغيرها من المصادر التى اشارت الى هذا الشاعر بوجه ما ويتكون من ذلك مجموعة شعرية لا باس بها وان كانت لا تستوعب كل ما نريد معرفته من عناصر شخصيته وابعاد شاعريته .

واطول القصائد التى عثرنا عليها للغزال ثلاث قصائد احتفظ لنا بها ابن عبد ربه فى العقد وهذا نصها(22) .

كتبت وشوق لا يفارق مهجتى ... ووجدى بكم مستحكم وتذكرى

بقرطبة قلبى وجسمى ببلدة ... نايت بها عن اهل ودى ومعشرى

سقى اللـه مزن السحائـب ثرة ديارکم اللائـى حوت كل جؤذر
بحق الهوى اقرأ السلام على التـى أهيم بها عشقا الى يوم محشرى
لئن غبت عنها فالهوى غير غائب مقيما بقلـب الهائـم المتقـطـر
كأن لم ابت فـ ى ثوبها طول ليلة الى ان بدا وجه الصبـاح المنور
وعانقت غصنا فيه رمـان فضـة وقبلت ثغرا ريقه ريـق سكـر
انسى ولا انسى عناقك خاليـا وضمي ونقلى نظم درر وجوهـر
فواحزنى ان فرق الدهـر بيننـا وكدر وصلا منـك غيـر مـكـدر
لقد غررت نفسي بحبـك ضلـة ولو علمت عقبى الهوى لم تغرر
بكيت فما اغنى البكا عند صحبتى وشوقى الى رئيم من الانس احور
سلام سلام الف الـف مكـرر ويا حاملا عني الرسالـة كـرر
الا يانسيم الريـح بلـغ سلامنـا وصف كل ما يلقى الغريب وخبر
وقل لشعاع الشمس بلغ تحيتى سميك واقرأها علـى آل جعفـر

* * *

اقرأ السـلام على الف كلفـت بـه قد رمت صبرا وطول الشوق لم يرم
ظبى تباعد عن قربى وعن نظرى فالنفس والهة مـن شـدة الالـم
كنا كروحين فى جسم غذاؤهمـا ماء المحبـة من هـام ومنسجـم
الفين هـذا بهـذا مغـرم كلـف لا واحد فى الهوى منـا بمتهـم
لله تلك الليالي والسـرور بهـا كأنما ابصرتها العيـن فى الحلـم
ففرق الدهر شمـلا كان ملتئمـا منا وجمـع شمـلا غيـر ملتئـم
ما زلت ارعى نجوم الليل طالعة ارجو السلو بها اذ غبت عن نجمى
نجم من الحسن ما يجري به فلـك كأنه الدر والياقوت فى النظـم

ذاك الذي حاز حسنا لا نظير لـــه كالبدر نورا علا فى منزل النعم
وقد تناظر والنرجس فى شـــرف وقارن الزهرة البيضاء فى تـوم
فذاك يشبهه فــى حسن صورتـه وذا يزيد بحظ الشعـــر والقلم
أشكو الى الله ما القـى لفرقتـه شكوى محب سقيم حافظ الذمـم
لو كنت أشكو الى صم الهضاب اذن تفطرت للذى ابديه مـن الـــم
يا غادر لم يزل بالغـــدر مرتديـــا اين الوفاء ابن لى غيـر محتشـم
ان غاب جسمك عن عيني وعن نظري فما يغيب عن الاســرار والوهـــم
اني سابكيك ما ناحـت مطوقـــة تبكى اليفا على فرع من النشـم

* * *

لعمري ما ملكت مقـــودى الصبـــا فأمطو للذات فى السهل والوعر
ولا انا ممن يؤثر اللهـــو قلبــــه فامسى فى سكر وأصبح فى سكر
ولا قارع باب اليهـودى موهنـا وقد هجع النوام من شهوة الخمر
واوتقه الشيطان حتـــى اضـــاره من الغي فى بحر اضل من البحـر
اغذ السرى فيها اذا الشرب انكرو ورهني عند العلج ثوبي من الفجـر
كانـى لم اسمـع كتـاب محمـد وما جاء فى التنزيل فيه من الزجز
كفانى من كل الذى اعجبـوا بـه قليلة ماء تستقى لى مـن النهـر
ففيها شرابى ان عطشت وكل ما يريـد عيالـى للعجين وللقـدر
بخبز وبقل ليـس لحمـا واننـى عليه كثير الحمـد لله والشكـر
فيا صاحب اللحمان والخمر هل ترى بوجهي اذا عاينت وجهي من ضـر
وبالله لـو عمـرت تسعين حجـة الى مثلها ما اشتقت فيها الى خمر
ولا طربت نفـي الى مزهـــر ولا تحنن قلبي نحو عود ولا زمـــر

وقد حدثوني ان فيها مرارة	وماحاجة الانسان فى الشرب للمر
اخى عد ما قاسيته وتقلبت	عليك به الدنيا من الخير والشر
فهل لك فى الدنيا سوى الساعة التي	تكون بها السراء او حاضر الضر
فما ساق منها لا يحس ولا يرى	وما لم يكن منها عمى عن الفكر
فطوبى لعبد اخرج الله روحه	اليه من الدنيا على عمل البر
ولكنني حدثت ان نفوسهم	هنالك فى جاه جليل وقدر
وأجسادهم لا ياكل الترب لحمها	هنالك لا تلبى الى آخر الدهر

وفى نطاق المعروف من شعر الغزال لحد الآن. يبدو شاعرنا شخصية متوثبة فى التفكير والتعبير والخيال والنظرة السطحية الى الحياة والاحياء. يحاول اثبات ذاته بما يجرى على لسانه جدا وهزلا ومدحا وذما وواقعية ومثالية .

واذا كان الغزال قد حباه الله من جمال الصورة ما صحبه طول عمره المديد ، فان بعض شعره لم يصاحبه هذا الجمال لا فى الاسلوب ولا فى رونق الديباجة ولا فى عمق النظرة والفكرة ، لان وثباته كانت تدفعه الى نظم ما يريده . وكأنه يلقى خبرا ويرسل سهما او يشيع حلما او ينفث آهة . وكأن الينابيع الوجدانية كانت تشح عليه احيانا ، وتجود عليه اخرى .

نعم تمده شاعريته المشبوبة بالسخرية اللاذعة والحكاية المشوقة والاشارة المصيبة والحكمة المثيرة ، ويعمل الزمان عمله فى هذا الانسان الغريب فيشاهد تناقضات الحياة والاحياء ويرجع الى نفسه ليحاسبها ويتذكر مصيرها المحتوم فى اطار من التشاؤم وكأنه موكل بمصير الانسان يكتشفه لاول مرة .

فالغزال – من خلال شعره الذى بين ايدينا – شاعر الخاطر الموهوب لا يتكلف ولا يتصنع يهمه ان يقول . وربما كان لا يهمه كيف يقول ... ثقة منه باصالته وشاعريته وشخصيته وتجربته الطويلة .

وفي هذا النطاق من السذاجة والتوثب تدور نظرات الغزال التي يلقيها على الحياة والاحياء والمرأة والرجل والعدو والصديق والاغنياء والفقراء . ففي جده وهزله ولذته وألمه يظهر انه كان يدرك تفاهة ما يرى وما يعرف وما يشاهده على مسرح هذه الحياة .

لا ومن اعمل المطايا اليه   كل من يرتجي له نصيبا

ما ارى ههنا من الناس الا   ثعلبا يطلب الدجاج وذيبا

او شبيها بالقط القى بعينيه   الى فارة يريد الوثوبا

فاذا اراد الوصف او الحكاية انتقل الى اسلوب السرد المشوب بالخيال والسخرية فيبدو وكأنه شعر تعليمي .

قال لي يحيى وصرنا   بين موج كالجبال

وتولتنا رياح   من دبور وشمال

شقت القلعين وأنبتت   عرى تلك الحبال

وتمطى ملك المو   ت الينا عن حيال

فرأينا الموت رأي العين   حالات بعد حال

لم يكن للقوم فينا   يا صديقي رأس مال

فالبيت الاخير يصور شعورا بسيطا ساذجا الا ان الشاعر اخرجه مخرج التهكم والسخرية وكأنه يتكلم بكلام العوام .

وكذلك الشأن في هذه القطعة التي يصور فيها اختيار فتاة :

وخيرها ابوها بين شيخ   كثر المال او حدث فقير

فقالت خطتنا حسف وما ان   ارى من خطوة للمستخير

ولكن ان عزمت فكل شيء   احب الي من وجه الكبير

لان المرء بعد الفقر يثرى   وهذا لا يصير الى صغير

وقد ذكر ابن حيان ذلك الهجو الذى هجا به شاعرنا هذا القاضى يخامر وقد جاء فيه هذا البيت :

فسبحان من اعطاك بطشا وقوة   وسبحان من ولى القضاء يخامرا..

كما جاء فيه هذه القطعة :

قد سمعت عجيبا   من آبدات يخامر
قرأ عليه غلام   طه ، وسورة غافر
فقال من قال هذا   هذا لعمرى شاعر
اردت صفع قفاه   فخفت صولة جائر
اتيت يوما بتيس   مستعبرا متحسرا
فقلت قومو اذبحوه   فقال انى يخامر(23)

وينبغى ان ننبه فى الاخير الى تلك النغمة التى نجدها فى بعض شعر الغزال والتي تدل على انه عانى العزوبة . او اختارها لنفسه حيث يقول :

أنا شاعر اهوى التخلي دون ما   زوج لكيما تخلص الافكار
او كنت ذا زوج لكنت منغصا   فى كل حين رزقها امتار
كم قائل قد ضاع شرخ شبابه   ما ضيعته بطالة وعقار
اذ لم ازل فى العلم اجهد دائما   حتى تاتت هذه الافكار
مهما ارم من دون زوج لم اكن   كلا ورزقى دائما مدرار
واذا خرجت لنزهة هنيتها   لا ضيعة ضاعت ولا تذكار(24)

وهذه النغمة تناقض ـ فى الغالب ـ تلك النغمة التي نجدها فى القصيدة التى جاءت فى العقد لابن عبد ربه والتى قدمناها سالفا وقد جاء فيها على الخصوص :

كفانى من كل الـذى اعجبـوا به   قليلة ماء تسقي لي من النهـــر

ففيها شرابي ان عطشت وكل مـــا   يريـد عيالـى للعجيـن وللقـدر

فهل نحمل ما جاء هنا على انه اخبار عن طور من اطوار حياته ، وأن ما جاء هناك عن طور آخر هذا ممكن . الا اننا رغم ذلك ما زلنا نعتقد إن كثيرا من اخبار الغزال وآثاره محجوبة عنا الى الآن .

ولا نودع شعر الغزال دون ان نشير الى ان ابن عبد ربه مؤلف العقد حاول ان يذكر شيئا من شعر الغزال ، لكن الذين اشرفوا على طبع هـــذا الكتاب وتحقيقه عمدوا في داخل الكتاب الى ضبط كلمـة الغزال وشـددوا الزاى وشذلك ظنوا ان صاحب الشعر هو واصل بن عطاء زعيم المعتزلة وكان يلقب بالغزال بتشديد الزاى كما هو معلوم .

وفى الفهارس الموضوعة للاعلام ذكروا الغزال وأحالوا مراجع فهرس الاعلام على واصل بن عطاء كما جاء ذلك فى فهرس العقد من الطبعة التـى اشرف عليها المرحوم الاستاذ سعيد العريان . وشبيـه بذلك حـدث فـى الطبعة التي اشرف عليها المرحوم الاستاذ احمد امين ومن معه من الاساتذة المحققين .

والواقع ان الشعر الذى اثبته ابن عبد ربه في العقد هو ليحيى بن حكم الغزال ـ بتخفيف الزاى ـ لا لواصل بن عطاء الغزال ـ بتشديد الزاى كما يظهر من صنيع ابن عبد ربه .

فـاس   عبد القادر زمامة

---

1) الجمهرة، تحقيق عبد السلام هرون ص 469 وانظر النفح ج 2 ص 254 من طبعة بيروت 1968 م
2) جلوة المقتبس ص 252
3) المصدر السابق
4) المغرب لابن سعيد ج 1 ص 324 ويلاحظ ان عباس بن ناصح نسبه فى كتاب نبذ تاريخية من مفاخر البربر ص 62 الى مصمودة القبيلة البربرية الشهيرة ، وانظر تاريخ ابن الفرضي ج 1 ص 341

5) طبقات النحويين للزبيدي ص 285
6) دولة الاسلام فى الاندلس ص 250 الطبعة الثالثة
7) انظر ص 160 من الطبعة الثانيـــة
8) الحلة السيراء لابن الابار تحقيق مؤنس ج 1 ص 44
9) المقتبس لابن حيان تحقيق محمود مكى ص 64 بيروت 1973 م
10) المطرب ص 136 القاهرة 1954 م
11) المصدر السابق ص 147 م
12) المصدر السابق ص 148 ـ 149
13) جعل المقري فى الباب الخامس من النفح ، الغزال من الراحلين عن الاندلس الى المشرق ، ونقل دخوله الى العراق عن ابن دحية ، انظر ج 2 ص 260
14) البيان المغرب لابن عذارى ص 87 ـ 88 ج 1
15) الاسلام فى المغرب والاندلس ليفى بروفنسال ص 97 ـ 98 من الترجمة العربية
16) المصدر السابق ص 115
17) المصدر السابق ص 112
18) دولة الاسلام فى الاندلس ص 282 وكتاب تراجم اسلامية شرقية واندلسية لعبد الله عنان ، الطبعه الثانية ص 162
19) المقتبس تحقيق محمود مكي ص 134 و ص 181
20) جلوة المقتبس ص 186
21) طبعة بهجة المجالس بتحقيق محمد مرسى الخولى
22) انظر العقد ج 5 ص 352 ط لجنة التاليف والترجمة بالقاهرة ويلاحظ ان كلمة الغزال وردت هناك مشددة الزاي
23) المقتبس لابن حيان ، تحقيق محمود مكي ص 64 ـ 65 ط. بيروت 1973 م
24) ظهر الاسلام ج 3 ص 112

قصة

فتاة عصرية

قاسم الزهيري

ـ انتبهوا من فضلكم .. الطائرة رقم 501 التابعة للخطوط الملكية المغربية المتوجهة الى باريس ستقلع بعد قليل . فالمرجو من السادة المسافرين أن يتوجهوا من الباب رقم 3 .

ماكاد مكبر الصوت ينتهى من اعطاء هذه الاشارة ، حتى قام عشرات المسافرين والمسافرات واخذوا حقائبهم وأمتعتهم اليدوية وودعوا مشيعيهم ، وقصدوا الباب . فانتظم صف طويل أخذ يتناقص بسرعة كلما أدلى المسافرون باوراقهم للمضيفة المكلفة بفحصها . وما لبثوا ان اخذوا يقطعون المسافة الفاصلة بين الباب وبين الطائرة رفقة مضيفة اخرى .

كان من بين المسافرين « الهام » . ومن حولها أبوها « عبد الجليل » وأمها « حليمة »واخوتها ، وثلاثة من اخوالها وأعمامها وبعض ابنائهم ، واثنان

من اصدقاء العائلة كانت دموع « حليمة » تنهمر وهي تقبل ابنتها ، بينما كان « عبد الجليل » متجلدا يخفف من لوعة زوجته ويوصي ابنته بالمواظبة على الكتابة ، وكانت عينا « الهام » محمرتين مبللتين . سرعان ما اندفع المسافرون نحو الطائرة ، كان بعضهم يلتفت الى الوراء أحيانا فيلوح أهله ومعارفه بأيديهم . أقفلت الطائرة وتحركت ثم اختفت وراء الهضبة وما ان حلقت وغابت عن الابصار حتى اتجهت عائلة « الهام » نحو الباب ، وكانت « حليمة » تكفكف الدمع ولا تطيق الصبر على فراق ابنتها .

سافرت « الهام » الى باريس لمتابعة دراستها العالية في الصيدلية ، بعد نجاحها في الثانوى باحدى مدارس الدار البيضاء في الصيف الماضي . وكانت متحمسة لمواصلة الدراسة وشق الطريق نحو حياة لاتكون فيها متوقفة على الغير. لقد هداها التفكير الى ان المرأة تبقى مستعبدة للرجل، مالم تتوفر على تكوين او مهنة تجعلها في مأمن من سيطرته أو من العوز . ثم ان المرأة العصرية غير قرينتها في الماضي ، لقد تحررت فكريا واجتماعيا هونا ما . واصبحت لها حاجات لا مندوحة لها من ارضائها بنفسها . والحياة العصرية باتت من التشعب بحيث تستلزم تضافر جهود الزوجين لمواجهتها . صح العزم من « الهام » على التخصص في الصيدلية يقينا بأنها تتناسب مع مزاجها ، وقد تدر عليها مكاسب تحقق من ورائها ما تنشده من حياة خالية من كل تبعية .

بقي عليها أن تقنع والديها بمشروع ، ولم يكن بالامر اليسير . فالعائلة من وسط تقليدى صرف ، لاتكاد تتصور مكان المرأة في غير البيت ، في كفالة والديها مالم تتأهل ، ثم في رعاية زوجها وبين ابنائها ، وأخيرا تحت كفالة هؤلاء وبين أحفادها في طور الشيخوخة . كان « عبد الجليل » تاجرا في الأقمشة وله عقارات تدر عليه ارباحا اضافية وكان كسبه فوق كفاية أسرته المتركبة من ثلاثة ذكور ، « والهام » التي كانت تكبرهم وعمرها اذ ذاك تسعة عشر ربيعا . كانت الاسرة متلاحمة ، بين أفرادها كثير من التعاطف والحنو ، شأنها شأن مثيلاتها من العائلات المحافظة ، يشعر الابناء بمزيج من الاحترام والرهبة حيال والديهم ، فبينما يعى الوالدان مسؤوليتهما قبلهم ويحنوان عليهم . الى ما قبل خمس سنوات

كانت الام متحجبة ، ثم احتفظت باللباس التقليدي والجلباب بعدما أماطت اللثام . ولو لم تجتح موجة التطور البلاد منذ عقدين ، لحذت « الهام » حذو امها . ومع ذلك ، لم تكن من المراهقات اللائى يبالغن فى التجمل والتبرج ، بل ظلت منجذبة الى التربية التى نشأت عليها .

بينما كانت « الهام » تفكر في مستقبلها ، كانت أمها تفكر في زوجها . كانت تتطلع الى ابنائها بابن عمها « كريم » . كان يكبرها بخمس سنوات ، وكان يشتغل موظفا فى مصالح السياحة . لكن ما كان يقلق « حليمة » هو ان « كريم » لم يكن يعير انتباها لـ « الهام » ، ولم تكن هى كذلك تشعر بأى ميل اليه . ومع ذلك بقيت الام تعلل النفس بالامانى .. فان لم يكن « كريم » ، فسيأتيها نصيبها . كلما كانت تفاتح « الهام » تلاحظ منها عزوفا عن الخوض فى الموضوع . ومع مر الايام بدت الام أكثر عصبية . فما ان اتمت « الهام » دراستها الثانوية حتى رأت أمها الفرصة سانحة لمفاتحتها بالموضوع صراحة .

لشد ما كانت دهشة الام حين أطلعتها ابنتها على ما قررته . وازداد جزعها حين أخبرتها بأنها تنوى السفر الى الخارج لفقدان التخصص فى الصيدلية بالجامعة المغربية . لم تكن تتصور مطلقا أن تعيش ابنتها فى غير بيت أبيها أو زوجها ، فاحرى أن تغادر البلد لتعيش وحدها فى ديار الغربة .. شىء لا يقبله عقلها بحال من الاحوال . فتاة فى ريعان الشباب .. امرأة كيفما كانت وضعيتها .. تترك لنفسها ان تعيش بمفردها فى بلد أجنبى ! .. كادت « حليمة » تصعق من كثرة ما قامت فى ذهنها من الاخيلة المزعجة وما توقعته من الاخطار على ابنتها .. لا انها لا تصدق ما تسمع ... لا ، أن «الهام» غير جادة .. هى التى لم تعش يوما واحدا خارج البيت ، لا ، انها لن تجرؤ على مواجهة ابيها بمثل هذا المشروع .. فلم يتفق لاحد من عياله ان حاد عن الطريق الذى رسمه للاسرة كلها .. وهب «الهام» فاتحته بالامر .. فلن يقبله مطلقا .

ــ كيف خطر ببالك مثل هذا المشروع يا « الهام » ؟ وهل فكرت فى عواقبه ؟ لا لا اخالك جادة .

ـ بل انى جادة كل الجد .. يا أمى . لقد امعنت النظر فى مستقبلى طويلا ، وصح مني العزم على بنائه بنفسي. والسبيل الى ذلك هو مواصلة التعليم العالى والحصول على مكانة اجتماعية محترمة . العواقب .. اى عواقب ؟ .. عواقب تكويني ستكون محمودة فى النهاية .. وهذا هو المهم .. يا أماه !

ـ لا أتصور فتاة فى مثل سنك تكون فى بلد أجنبي دون ان تتعرض ..

ـ دعي عنك هذه الاوهام . لا فرق بين الفتى والفتاة .. لم تعد المرأة كما كانت فى الماضى جزءا من اثاث البيت .. أو بعض متع الرجل .. ليس لها تفكير او احساس أو وجود ذاتي متميز عن وجود زوجها او من يعولها . فتاة اليوم غير فتاة الامس متعلمة .. واعية .. مقدرة لمسؤوليتها . المخاطر التى قد تتصورينها .. انما هى من نسج الخيال و .. التقاليد البالية يا أماه !

ـ قد يكون .. وربما لا اشعر بما يشعر به جيل فتيات العصر من ثقة بأنفسهن . لكنهن من نفس طينة أمهاتهن . لهن نفس الاحساس والغرائز والاهتمامات مهما بلغن من التعلم والتفكير .. ثم ان المغريات متنوعة ، متعددة .. ولست آمن على واحدة منهن من الوقوع فى شركها .

ـ كنت اخالك ـ ياأماه ـ أكثر ثقة .. واحسب ما لقنته من تربية فى بيتنا ادعى الى حسن الظن . لكن مع غاية الأسف اشعر بغير ذلك .. بل اشعر بفارق عظيم في طرق تفكيرنا .. وهو الفرق بين جيلكم وبين جيلنا .. هو الفرق بين المرأة التي كانت تعتبر بعض متاع الرجل .. والمرأة التى أصبحت قائمة الكيان . صدقيني ـ يا أماه ـ ان الفتاة العصرية .. الفتاة المتعلمة ليس لها نفس احاسيس وغرائز واهتمامات أمها أو جدتها . انها تنشد قبل كل شيء وفوق كل شيء بناء حياتها دون تبعية .. ولها من اراداتها وتربيتها حصن ضد المغريات .

ـ لا انكر الفروق بين جيلنا وجيلكم . ولا انكر فضل التعليم . وهذا ماحدانى وأباك الى تزويدك بالقدر الذى يكفل لك عيشا رضيا محترما وسط

اخدانك من المتعلمات. لا اجادل فى هذا مطلقا انما نختلف في ما تنوين القيام به من مغامرة .. باغترابك فى بلد اجنبي وما اخشاه عليك يا ابنتي.

ـ ان السفر فى طلب العلم لم يعد مغامرة فى عصرنا هذا . فوسائل المواصلات طوت المراحل . « والدار البيضاء » ليس بينها وبين باريس الا بضع ساعات ثم ان الهاتف يصل بين البلدان فى مثل لمح البصر. ماذا تخشاه علي ـ ياأمي ـ وأنا من تعرفين لا انساق للمغريات ، ولا اندفع وراء النزوات ؟ ارجوك ان تبددى كل ما قد يساورك من مخاوف، وتساعديني لاقناع ابي كى انتهز الفرصة المتاحة .. فرصة العمر .

ـ نفسى لا تطاوعني ياابنتي . تذكري انك ما خرجت قط من هذه المدينة ، ولم تفارقينا فى يوم من ايام . فكيف اطمئن عليك .. وانت غريبة فى بلد الناس ؟ . كيف آمن عليك الغوائل ؟ لا .. لا .. نفسى تحدثني ..

ـ خلى عنك هذه الوساوس .. لست أول فتاة مغربية توجهت للخارج . هناك العشرات .. بل المآت فى شتى جامعات فرنسا وغيرها .. يتعلمن كالآلاف من مواطنيهم لم تعد المعرفة وقفا على الذكور . اترضين ان تبقى ابنتك خاملة بينما تتقدم قريناتها . أماه أتوسل اليك ان تكفى عن معارضة مشروعى حتى يتسنى أن أتوجه برضاك ورضا والدى ..

قالت هذه العبارة الاخيرة فى تأثر ظاهر وقامت لضم والدتها وتقبيلها واضعة حدا لهذا الحديث . تلته احاديث كثيرة بينهما . وحصلت ازمة شديدة فى العائلة لما علم « عبد الجليل » بما قر عليه عزم ابنته . رفض رفضا باتا .. وبعد الحديث العنيف الذى تم بينه وبينها وما ابدته من اصرار على الرحيل ورد جميع الاسباب التى تعلل بها ، قاطعها مدة أسبوع . فكانت « الهام » تنزوى فى حجرتها وتضرب عن الطعام والظهور فى المنزل . واصبحت امها فى الم ممض من الجو الخانق ، وما انفكت تستعطف زوجها حتى وضع حدا لمقاطعة ابنته التى ظلت على اصرارها . خلال هذا الاسبوع وما تلته من ايام اختمر المشروع فى ذهن والدي « الهام » . بحثاه بحثا

دقيقا مقلبين اياه على جميع الوجوه . واستعلما عن الفتيات اللائى يتابعن دراستهن فى الخارج . فلم يعد المشروع مرفوضا من ناحية المبدا لديهما . واخيرا قبلا المذاكرة فى انجازه .. على كل حال ليست « الهام » ـ كما قالت هى نفسها ـ اول فتاة مغربية تتوجه للدراسة فى الخارج !.. وضعا معها الترتيبات اللازمة لاقامتها فى دار الطالب بفرنسا ، وخصص لها ابوها مبلغا شهريا يكفيها لنفقات الاقامة . ثم جهزت للرحيل فودعها ابوها متجلدا ، بالرغم عما كان يحسه من لوعة الفراق . اما امها فلم تقو على امساك دموعها .



ما ان حطت « الهام » فى باريس حتى شعرت بوطأة هذه العاصمة الكبيرة تمحقها .. أحست كما لو كانت تسبح فى خضم لا أول له ولا آخر .. وذراعاها لا تقويان على السباحة . شعرت بفراغ عظيم .. بهوة سحيقة حولها وعند قدميها . لم تكن تعرف أحدا . وكان انطواؤها على نفسها بحكم نشأتها لايشجع الطلبة على التجرؤ عليها. فى الاسابيع الاولى، بينما كان الطلبة والطالبات يركنون الى بعضهم فى المطعم والمقهى ويخرجون معا فى المساء وايام الاجازات ، كانت هى تنزوى فى ركن من اركان النادى او حجرتها. واحست بالفراغ.. بثقل هذه الحياة الرتيبة المملة .. كانت تكتب الى والديها مرة فى الاسبوع ، وتخاطبهما بالهاتف فى مناسبات الاعياد ، وكانت تخفي مشاعرها وتتعمد الظهور بمظهر السعيدة مع التاكيد على مواظبتها على التحصيل

وبعد شهرين من اقامتها بباريس، خف للاجتماع بها طالبتان «بديعة» و « وفاء » كانتا تعرفانها فى الاقسام الاولى من الثانوي ، ثم غابت اخبارهما عنها بعد انتقالهما رفقة اسرتهما الى الرباط . وكانتا تسكنان فى شقة بالمقاطعة الخامسة .

سبقتها الى باريس بسنة فحصلتا على خبرة لا باس بها . خرجت الهام بفضل هذه المصادفة من عزلتها. كانت الفتاتان مرحتين ولهما معارف

كثيرون ، فقدمتاها اليهم ، مما ساعد الهام على قضاء أوقات ممتعة في العاصمة الفرنسيـة .

لم تكن الهام تعنى بالتحصيل ، بل كانت تستزيد من تكوين نفسها وتنمية ثقافتها العامة في شتى فنون المعرفة . وجدت في باريس مناخا صالحا لازدهار شخصيتها ونمو مداركها وارهاف حسها ، فأقبلت على الحياة الجديدة التي تهيات لها اقبال المتلهف ، ساعدها في ذلك قدومها من وسط يختلف في جوهره وفي جل مظاهره عن الوسط الباريسي . كانت دقيقة الملاحظة مرهفة الحاسة النقدية . تسجل ذاكرتها كل ما يقع تحت حسها فتقارنه وتحلله وتستقريه . ومع الزمان تغيرت مفاهيمها في شتى الشؤون بعد ما طرحت معظمها على محك التمحيص والنقد في خلواتها ومع خليلاتها ومعارفها . اصبحت حتى القضايا البديهية والمعتقدات التي ترسبت في عقلها الباطن وتحولت الى مواقف ثابتة بتراكم صورها في عهد الطفولة وفي مجتمع يختلف تمام الاختلاف عن المجتمع الباريسي محل النقد والشك . وادى تراكم الصور في هذا المجتمع الى خلق آراء جديدة في فكر «الهام» ما لبثت ان تحولت الى اقتناع شخصي ثابت . اعتملت في نفسها صور الحضارة التي نشات فيها مع صور الحضارة التي قذفت بها الظروف في حظيرتها فخلقت منها شخصا ثانيا بمفاهيمه ، بنوازعه ، باقتناعه . كان لامعان الفكر حظ كبير في ما آلت اليه ، وكان للوعي الباطني وللاشعور الحظ الاوفى. أخذ يتجلى هذا التطور في سلوك «الهام» كلما عادت الى بلدها وغشيت من جديد اسرتها ووسطها الاجتماعي فلاحظت المفارقات بينه وبين المجتمع الغربي . عادت سنتين على التوالي ، فكانت حفاوة الاسرة والاقارب والاصدقاء تتبادل واياهم المعلومات والرأى في شتى القضايا . كانت تلاحظ كل مرة تطورا في المجتمع المغربي وفي افكار اقرانها وقريناتها، بينما لا ترقب اى تقدم في نمو حياة والديها. وكان التقدم الذى ترصده فيوسط الشبان والشابات من جيلها تقدما لا يتعدى المظاهر والمحاكاة . يبدون في هيأتهم نسخة طبق الاصل من الشباب الغربي .. هنداما ولباسا ورطانة باللغات الاجنبية . أما اهتماماتم فهزيلة لا تتعدى اشباع الشهوات . تطور جيل الشباب المتعلم كان يتراءى لالهام طلاء سطحيا لا يخفي الا الفراغ والضحالة .. ادركت ان المجتمع يجتاز مرحلة

انتقالية تتفاعل في اعماقه شتى اتيارات الوافدة . فقد توازنه القديم بفقدان الجيل الطالع الاحترام للقيم والمثل المعنوية التي كانت اساس الاجيال السابقة واستسلام الآباء امام ابنائهم، مما احدث تفسخا وفوضى في جميع مظاهر الحياة. كانت تنعى على شباب جيلها الوقوف عند ظواهر القضايا دون النفاذ الى عمقها.. والاخذ بالتافه والمبتذل . حاسبين كل ما يلمع جوهرا اصيلا !

كانت تتبرم من هذه الحالة وتكاد تختنق من الجو الذي يغمر شباب جيلها . عدت الهام في السنة الثالثة الى باريس وقد اصبحت تعرفها وتعرف خباياها . كانت صديقتاها بديعة ووفاء قد غادرتا العاصمة الفرنسية في الصيف بعد انهاء دراستهما . لم تكن بحاجة اليهما بعدما اصبحت كاحدى مواليد باريس ولها العديد من المعارف كانت تركن اليهم ويركنون اليها في جو خال من اى تعقيد.. يقضون اوقات الفراغ جميعا خارج العاصمة وفي قاعات السينما والمقاصف والملاهي .. بينما كانت تزور المتاحف وكبريات دور الآثار ولا تضيع فرصة المسامرة في العلوم الانسانية ما وجدت الى ذلك سبيلا .

بعد شهرين قل إجتماع الهام بمعارفها. نادرا ما اصبحت تشاركهم السمر وترتاد واياهم النوادي واماكن اللهو . يتفقدونها في حجرتها او المنتديات التي الفت ارتيادها فلا يجدونها . حتى اذا لقوها بمحض الصدفة تعللت بشتى المعاذير . كانت هذه السنة سنة امتحان لتتخرج صيدلية وتعود بشهادتها الى البلد ويئس الصحاب من رفقتها موقنين انها في شغل شاغل من أمر دراستها فتركوها لحالها . وقلت المراسلات بينها وبين اهلها . حتى اذا عثروا عليها بواسطة الهاتف في دار الطلبة، تعللت بالانصراف الى دروسها في هذه السنة الاخيرة . وكان والداها مطمئنين عليها .. فبخططا لعودتها في آخر السنة : ابوها يفكر في شراء مخزن بأحد الاحياء الآهلة او اقتناء مفتاح احدى الصيدليات الاجنبية بالدار البيضاء مهما كلفه الامر . وامها .. امها كان شغلها الشاغل تزويج ابنتها بشاب يناسبها .. كانت تلك أغلى امنيتها في الحياة .. الهام .. عزيزتها الهام أشرفت على الثانية والعشرين . من الضروري ان تبنى

بيتها .. ان تتمتع بحياة زوجية سعيدة .. ان تنجب أطفالا يتفتحون كزهرات في بيت الهام .. يضيئون كمصابيح في بيت والديها عبد الجليل وحليمة .. ذلك البيت الذي دخل في طور الشيخوخة . وبذلك تتجدد الحياة في الاسرة كلها .. وتستضيء باشراقه جديدة . عاشت حليمة زمنا بهذا الحلم .. تستلذ بقرب تحقيقه . اما ابناؤها الثلاثة الآخرون فاخذون في التقدم بدراستهم الثانوية ولا تدخر هي وعبد الجليل اى مجهود لضمان نجاحهم . كانت تتوقع شيخوخة سعيدة وتحمد الله . لم تعد تطمع في اختيار قرين لالهام ، فبنات اليوم أصبحن يتكفلن بالاختيار ، وما على آبائهم — مهما كان رأيهم — الا المصادقة في الاخير. كل ما كانت ترتجيه حليمة ان تتوفق ابنتها في التقاء واحد من هؤلاء الشباب المتخرجين ممن هم على شاكلتها .

* * *

ذات صباح في أواخر يناير .. وبعد غيبة طويلة حمل ساعي البريد رسالة من الهام وكانت العائلة في أشد الشوق الى اخبارها . كان عبد الجليل يتهيأ للفطور بعد اداء صلاة الصبح ، في حين كانت حليمة تهيء الوجبة . بالرغم عن شوقها الى اخبار وحيدتها الهام. انتظرت حتى يطلع زوجها على مضمون الرسالة . وما هي الا لحظة ، واذا بصرخة مدوية تنبعث من غرفة النوم .. يعقبها وقع جسم على السرير في جلبة موجعة . هبت حليمة موقنة ان زوجها اصابته نوبة خطرة. فرأت عبد الجليل ممددا على السرير .. عيناه جاحظتان .. لونه في منتهى لامتقاع .. شفتاه مزبدتان.. شعره الذى خالطه الشيب اشعث.. ممزق القميص .. في شبه غيبوبة .. وفي السرير وفوق السجاد اوراق رسالة الهام مبعثرة .

— باسم الله عليك .. ماذا اصابك . سادعو الطبيب حالا .. خذ .. اشرب هذا المصير الذى هيأته لك .

امال عبد الجليل رأسه قليلا ثم اجهش بالبكاء ، مشيرا الى الاوراق .. الى رسالة الهام .

ـ ابنتي .. حبيبتي الهام ! ماذا أصابها ؟ طمئني .. هل هي مريضة ؟ وقاها الله كل ســـــوء .

القى عبد الجليل بهامته على الوسادة .. وظل في غيبوبة .. لم ينبس ببنت شفة ، بينما كانت حليمة تصلح من حاله . جمعت الاوراق بسرعــة وخرجت من الغرفة لتستدعي الطبيب الذي كانت عيادته على مسافة قريبــة مــــن البيــت

اصبح الآن فحوى الخطاب الذي وجهته الهام الى أبيها معروفا وسط الاسرة فقد جاء فيه بعد سوق أخبار عن حياتها الدراسية مايلي :

« ابــي الحبيـــب

« اود ان أحدثك في موضوع بالغ الاهمية . وقد ترددت طويلا قبــل الافصاح لك عنه . وأشفقت عليك وعلى والدتي الحبيبة مـــن المفاجأة . ولكن .. ما حيلتي؟ لابد انكما ستطلعان عليه طال الزمان او قصر. والاولى ان يبلغكما خبره مني ، وان تفهما دوافعي وتفهماها . سيكون مفاجأة لك .. وقد تكون صدمة . آثرت لن اكاتبك راسا يقينا بقوة جاشك .. بدلا مـــن التوجه راسا الى امي علما برقة وجدانها ، ورجاء ان تمرر المفاجأة عليهـــا بما عرف عنك من الحزم والرفق في آن واحد .

« لا اريدك ان تظن الظنون بابنتك . ولا ان تحسبني اتقلب او انساق مع الاهواء . لقد اتخذت قراري الذي سافصح لك عنه ، بعد تفكير طويل .. طويل ، وبعد أن قلبت الموضوع من جميع الوجوه ، ونظرت في عواقبــه . فاتخذت مسؤوليتي كاملة مع ما يستتبعها .. اتخذت القرار بمفردي لانــه يخصني ويتعلق بمستقبلي .. ولا أحد يمكنه أن يتخذه نيابة عني ..

« هذا الموضوع هو ارتباطي باحد الطلبة من أصل بلجيكي وعزمي على التزوج منه . اسمه لويس «دوبوا» وهو شاب تخرج هذه السنة في الطب ويكبرني بثلاث سنوات ، وأبوه من كبار ارباب الاعمال فــــي مدينة لييج . عرفته منذ ثلاثة شهور واعجبت باخلاقه وسلوكه وتفكيره . ولم ازدد مـــع

مرور الايام الا تقديرا له . وبادلني اعجابا باعجاب .. ثم قويت آصرة الحب بيننا . ذهبت واياه في عطلة الميلاد الاخيرة عند عائلته .. وهي اسرة عريقة في الجاه وكريم الخلق . وهناك .. وبعد امعان التفكير قررنا أن نرتبـط بآصرة الزواج.

« أبي العزيــــز .

« ها انذا اطلعتك على جلية الامر .. أرجو الا اكون قـــد صدمتك ، واتمنى أن تتلقى الموضوع وتتلقاه امي العزيزة بمزيد التفهـم .. وتباركا هذه الرابطة الصادرة عن حب مكين وتفكير عميق .

« ولكما من ابنتكما كل محبـــــة ... »

كانت مأســـاة ..

عبد الجليل ظل طريح الفراش .. كاد ان يصيبه مس يحرك رأسه ويضرب كفا بكف . يهذى حينا بعد حين دون ان يعي ما يقول . ســاءت حالته الصحية ، ولم يعد يغادر البيت منذ اسبوع او يفكـر في متجـره وأعماله . تعتريه نوبات عصبية لا يستريح منها الا بمسكنات تفضى به الى الاغفاء .أما حليمة ، فبدت بعد أسبوع وكأن عمرها زاد عشر سنـوات . تخدد وجهها واصفر لونها . اشتعل راسها شيبا . كانـــت لاتفتأ تذرف الدموع وترسل الآهات الموجعة . استحالت حياتها جحيما بين زوج تشفق على حياته وابنة حطمت احلامها اصبحت تتوارى من الفضيحة بعد شيوع الخبر في وسط الاسرة . لم يدر أحد كيف يواسيها . مجرد الخوض في الحديث يثير الشجون ويلهب اللوعة . تدهورت صحتها هي كذلك . خيـم على البيت جو من الحزن ، من الكآبة ، من الأسى .

ذهبت كل المحاولات التى بذلت من جانب الاسرة لعدول الهام عـن مشروعها سدى . رفضت حتى العودة بعدما وصلها من اخبار والديهـا واخيرا ندب عبد السميع احد أعمامها نفسه للشخوص الى باريس ومحاولة التأثير عليها . كان قوى الحجة شديد العارضة ، ذا مهابة وشكيمة . لم يتفق

ان تساهل في ما يعتقده من مبادىء ، او اسلس القياد للاحداث ممن يعتبرون العالم ملكهم الخاص يستطيعون تكييفه حسب اهوائهم .

كانت مقابلته لالهام في شقة صغيرة بحي سان ميشيل، حيث انتقلت منذ شهرين ، كانت الشقة متواضعة كجل الشقق التي يسكنها الطلبة . الاثاث هش في معظمه ، والكتب منثورة هنا وهناك بين الاطباق والكؤوس الوسخة والفراش المبعثر . كانت الهام تبدو غير منسجمة مع هذه الشقة في ترتيب هندامها واناقة لباسها ورقة انوثتها. اكسبتها السنوات التي قضتها بباريس كثيرا من الذوق ، ولطف الزمان ملامحها .

أدرك عبد السميع لاول وهلة أن مهمته ستكون شاقة ، ولاغاية ترجى من التذرع بالحجج الخلقية والدينية وما اليها لاقناع الهام حيث تختلف المفاهيم وتنعدم المقاييس فيستحيل وجود نقط التقاء للحوار . فارتأى الجنوح الى جدل عصرى مع كبت جماح نفسه بغية الوصول الى حل للمشكلة المعقدة .

ــ انى جد متألمة لما حصل لوالدى .. لم اكن أتوقع أن يكون لحادث بسيط مثل هذا الوقع فى نفسيهما .. مع انى أفضحت لابى عن الدوافع والتمست منه تفهمها .

ــ ولكنك تعرفين يالهام ما يكنه لك أبوك من محبة .. كان من اللائق قبل اتخاذ قرارك ان يتم برضاهما .. خاصة وهو قرار يقيد حياتك.

ــ انا متاكدة من حبهما وابادلهما نفس المشاعر . ثق ياعمى ، انني متألمة جد التألم لما وصلنى من اخبار سيئة عن صحتهما.. لقد فكرت طويلا قبل اتخاذ قرارى . كنت اتمنى آن احصل على رضاهما قبل كل شىء . لكننى أيقنت باستحالة الوصول الى هذه الغاية لاختلاف طرق تفكيرنا. فآثرت ان ابدأ بالتقرير، خاصة وانني مالكة امرى.. والمتحكمة فى مستقبلى وتوجيه حياتى كيف أريد .

ــ لا جدال فى انك مالكة امرك والمسؤولة عن مستقبلك لكن ..

لا اخالك تنكرين ان قرارك يخرج عن المالوف في مجتمعنا .. وهذا ما سبب المأساة التي يعاني منها ابواك .

ـ اظنك تقصد اختيار اجنبي شريكا لحياتي . هل في ذلك ضير ؟ لا .. لافرق عندي بين المواطنين والاجانب .. مادامت السعادة الزوجية هي المبتغى لقد تبدلت المفاهيم في كثير من القضايا ، ولم يعد محل في عصرنا هذا للتحجر والتزمت . قد تسعد المرأة مع أجنبي وتشقى مع مواطن . والامثلة على ذلك لا حصر لها .. على كل ، لقد تعرفت على لويس وتعرف علي وتفاهمنا وقويت آصرة الحب بيننا واني موقنة بان سعادتي بجانبه .. مادام أبواي ينشداني سعادتي ، فكل ما اتمناه أن يبديا بعض التفهم .. وسوف يفهمان أن المسألة عادية ولا تدعو للاهمية التي أولاها اياها .

أمسك عبد السميع اعصابه وهو ينصت الى الهام .. اثبت كفيه على الطاولة خوفا من ان تلاحظ ما اعتراهما من اضطراب .. حاول الا يبدو على سحنته اثر لما يضطرب في نفسه .. ماذا يستطيع ؟.. وهو انما جاء لحل المشكلة بطرق الاقناع .

ـ ألا تعين ما في زواج مواطنة بأجنبي من أخطار ؟ من تفكك في في المجتمع ؟ من قطع الاوصال بين أبوين وابنتهما بل بينها وبين عائلتها التى تحنو عليها وتحيطها بكل محبة؟ هل فكرت يا الهام في ذلك؟ وهل فكرت في الاولاد الذين ستنجبهم ؟ في مصيرهم ؟ في القطيعة المحققة بينهم وبين مجتمعهم ؟

ـ مرة أخرى لقد فكرت ، ياعمي ، في كل ذلك . واتخذت قراري عن روية وامعان نظر . الاخطار التي قد تتصورها انما هي ضرب من الاوهام . ما هو الداعي لانتثار عقد المجتمع ، وقطع صلة الرحم بين الاسرة المتحابة ، اذا توفر التفهم وحسن الارادة ؟ اما الاولاد فسيتكلفون بتكييف مستقبلهم ويتولون مصيرهم بانفسهم . الحقيقة انى أرى في الزواج المختلط اثراء للمجتمع والاسرة ، اذ تلتقي بواسطة حضارتان ، الا تشاهد عدد المواطنين المتزوجين بأجنبيات ؟..

ـ لكن الامر يختلف تمام الاختلاف ..

ـ لماذا يختلف ؟ لماذا يسمح للفتى بما لا يسمح به للفتاة ؟ هذه ايضا من الافكار المتزمنة .. نحن اليوم فى عصر يختلف عن العصور السابقة.. فى عصر المساواة بين الرجل والمرأة. المرأة اليوم لم تعد ذلك المخلوق الجاهل القابع في البيت لا تملك امرها وتتبع بعلها او اولادها في كل شيء .. حتى فى اللقمة التى تتبلغ بها . لقد اصبحت متعلمة وهي تطمح لمزيد من الحرية لتتصرف بمحض ارادتها .. لا أن تبقى سليبة الارادة .

ـ هكذا يخيل لك يا الهام .. الواقع خلاف ما تتصورين . للرجل وظيفته فى الحياة .. وللمراة كذلك . لا اتطرق الى قضية المساواة . فقد أكون على رايك . لكننى أخشى ان يكون الملوحون بهذا الشعار يستعملونه عن وعي أو غير وعي للتغرير بالفتيات . انهن مخلوقات مرهفات الاحساس سريعات التأثر. يحسبن احيانا انهن يتخذن مواقف عن روية وتفكير . وكثيرا ما تكون صادرة عن نزوة عابرة .. لا تلبث أن تتبخر تحت وهج الواقع .. المرير ، حين يفوت الاوان وما قد يحسبن حقائق تتكشف عن أوهام تختلف وراءها مآسى عائلية واجتماعية .

أناشدك ـ يا الهام ـ ان تعيدى رايك فى هذا الموضوع الخطير .

طال الحديث بين الهام وعمها على هذه الوتيرة . وعاودها ثلاثة أيام متتاليات فلم تقتنع . ولم تقبل اى حل من الحلول التى عرضها عليها ، ومن جملتها العودة الى البلد للحصول قبل ابرام أى شيء على موافقة ورضا والديها . ظلت مصرة على رأيها .. وسواء حصلت الموافقة أو لم تحصل ، فقد تواعدت الهام ولويس على عقد قرانهما فى الصيف المقبل .. لم ير عبد السميع بدا من العودة من حيث اتى .. بخفي حنين .

* * *

زادت صحة عبد الجليل سوءا .. وانهارت أعصاب حليمة .. كانت لا

تفتأ تذكر الهام فتذرف العبرات وأصبحت لا تقوى على علاج زوجها وتحمل تبعات البيت .. ظلت الهام لائذة بالصمت على الخطابات التى كانت ترد عليها من اهلها لافتين نظرها الى ما يعانيه ابواها وناشدين اياها بالعودة للتخفيف عنهما . واخيرا .. كتب لها اخوها الاكبر يخبرها بعدم موافقة اهلها على الزواج والتفكير فى القطيعة المحققة التى قد تنجم عنه .

وفيما كانت الهام تتأهب للزواج فى أواخر ماى ، كان أبوها مختل العقل لا يعى ما حوله، وأمها منهكة القوى تعانى غصة الفراق وتردد بمزيد من اللوعة والاسى الهام حبيبتى الهام !

الرباط　　　　　　　　　　　　قاسم الزهيرى

في أدب الأطفال

الطفولة

محمد الصباغ

« الطفولة » :

هذه الكليمة الفلذة ، لعلها أصغر أخواتها المترادفات وأجملهن .

عهدنا بها على الورق ، طفلة ، تلعب بأناملها فى نصاعة الورق ، ورقرقة المداد ، وهى فى عمر الحفيف ، تتحرك وتغفو على ترنيمة حنين ، داخل سرير البراءة ، والنعومة ، ودهشة الحلم ، ولا تبارحه .

(*) بمناسبة صدور اول عدد من مجلة « مناهل الاطفال » عن وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية .

طفولة من لدنة الفجر ، وهينمة النسيم ، تتجدد مع كل ملاوة صباح . على طراوتها يكتهل الورق ، ويتجعد المداد ، لم تصب بخريف في حدودها يتوقف الأوان وقفة نغوة على امتداد تأريخ الورق ، وجرية الريشة

شاب الزمن في عوالى الجبال ، وهي ما زالت تلعب بأناملها في نصاعة الورق ، طفلة من ماء

* * *

« الطفـولـة » :

أسلها من نزهة الورق . أجفف أناملها من رقرقة المداد أتفقد حرير نعومتها ، ومرآة براءتها أضمها في قبلة أحملها على ظهرى ، على ساعدى ، على سبابتى أجرى وراءها ، أطيش معها في أرجوحة ضوء ، أنثرها في نجمة ، أعلمها الرسم بالحلم ، والكلام بالوردة ، والتزلج على مقلة الربيع .

وفي الليل ، أغيب معها في بياض قصة ، فتغفو على ساعدى ، نثرات حلم .

* * *

« الطفــولــة » :

لها اسم آخر مضمرا يبقى ، ما دام مهملا

نسمعه من بعيد ، يرفع ابتهالا فوق كف ، ورجــاء فــوق أشــــفــــــار .

انه دوما فى طلب غيث ، ومعول جهد ، وأصابــع تشـذيـــب وتهذيب ، وتحرير الى المدى النضير .

فاذا تم له ذلك ، انبثق من وثبة الومضة ، وأعلن عن نفسه :

أنا : « المعجزة » ، وتمضى هذه الخارقــة ، تحــوك على نولها بارقات مجد ، وأشرعة مد ، نحو قيامــة ، ونهضة مصير أمة ، فى حديقة ورد ، ومختبر يا للتمنى ! وعمر « المغــرب » شميم ، ينعت بالورد والمختبر .

* * *

« الطفولــة » :

لعلها أخطر كلمة فى فقه كل أمة ، انها مصيرها :

تبنى أمة أو تدمرها ، ترفعها أو تزلزلها أنقاضا وخرابا

وطفولتنا العربية ؟

يا للسؤال المعضل . أطرحه وأتوارى من الخجل

وقد أجيب عنه فى احدى المعارك الادبية أخيرا بهذه الجرأة :

ــ « هزيمة فلسطيننا ، مهدت لها هزيمة طفولتنا ، على طول الخريطة العربية وعرضها » (!) .

* * *

« الطفولة » :

وفاء وفاء بها ، مدت هذه « الوزارة » أجنحة أمومتها على زغاليلها الاطفال ، وضمتهم اليها ضمة وجد وحنين ، فى سبيل بناء وطن اهم فى زخرفة كتاب ، يفتح ويطوى على الرائعة ، والشوق الى الغد الكبير السعيد ، وتلمس الجمال والمعرفة بأصابع مصير ممرع .

من تخطيط ذلك الوطن الناغى ، تلك « المناهل ــ الصغيرة » ، وما سيشيد حولها من عمارات ، ومشارف ، وأراجيح ، وأعشاش : لا يغيب عنها قمر الاطفال .

ما أحلى . « صغيرتنا ــ المناهل » ، وقد طرزت بندواتها دروب أطفالنا وبعثتها :

دمى ، وشخوصا ، ونجوما ، وزهورا ، وعصافير ، وأحلام غد كبير ، كقصائد من ماء ، وحفيف ، وأريج ، وضوء معرفة لمصير مغربي مشرق .

فببناء هذا الوطن ، سنواجه التأريخ ، ومصيرنا الكبير الكبير ، في عهد تمسى فيه « الطفولة » معجزة متقادمة مسنة ، يعجز الموت عن ادراكها .

الرباط **محمد الصباغ**

الأسرة ومسؤولياتها

أمام عوارض التنمية الاقتصادية والاجتماعية

د. رشدي فكار

غني عن التعريف أن موضوع الاسرة ، من الموضوعات التي درست فى اطار لقاءات وندوات دولية متعددة ، من ندوة المركز الوطني للبحث العلمي فى فرنسا « السوسيولوجيا المقارنة للاسرة المعاصرة » سنة 1955 ، الى مؤتمر الرباط عن « الاسرة ومستقبل الشباب فى الحياة » سنة 1962 ، الى ندوة بروكسل سنة 1965 عن « إسرة اليوم » ، قد طبعت اعمالها سنة 1968 ، الى جانب الندوات الهامة ، التي تمت بفضل منظمة « الاسرة والعمل الاجتماعي الدولية » ، سواء فى باريس سنة 1968، او لاهاي سنة 1970 او تونس سنة 1971 او فى الرباط 1973 (1) .

وغني عن التعريف أيضا ، ان موضوع الاسرة ، يعد من الموضوعات التي حظيت باهتمام المتخصصين على اختلاف انتماءاتهم من مشرعين

(1) وقد ساهمنا فيها بعناصر من هذا العرض فى جلسة 5 يوليو سنة 1973 .

وتربويــــن ، الى اقتصاديـــن و وديمغرافيــــن ، الى انتربولوجيــــن وسوسيولوجيين ، حتى شكل ما كتب عن الاســـرة وما حولها نظريـــات متشعبة ، واتجاهات عريضة ، مجرد الاستيعاب لها يعتبر تخصصا فى حد ذاته . كمثال فقط ، فى اطار الدراسات الانتربولوجية خصوصا لــدى الانجلوسكسون ، ومنذ نهاية الحرب العالمية الثانية ، تجاوز الانتاج مئات الدراسات المتخصصة ، والابحاث المتعمقة ، فان كنا نشيـر ولمجـــرد الذكرى للدراسات الاولى فى حقل البحث الاجتماعي الحديث كدراسات ((فيتسير مـــارك « Westermarck » عن ((تاريخ الزواج الانساني)) فى 3 مجلدات سنة 1891 ، ودراسة ((ديركايم « Durkheim » عن ((الاسرة الزوجية)) سنة 1921،ودراسة ((جورج دافي « G. Davy ». عن ((الاسرة والقرابة عند ديركايم)) سنة 1931 ، وانطباعـــات ((ليفـــي ستــراوس « Lévi-Strauss » عن ((البنيات المبدئية للقرابة)) سنة 1947 ، نخص بالذكر كمثال من الدراسات التي تمت منذ الخمسينات : الدراسة القيمة ((لتاكوت بيرسنس « T. Parsons » عن ((الاسرة والتنشئة ، وعمليات التفاعل الاجتماعي)) سنـــة 1955 ، ودراســـة ((شومبـــاردي لـــوف « Chambard de Lauwe » عن ((الاسرة والاسكان)) سنـــة 1959 ، ودراسة ((مشيل « A. Michel » عن ((وظائف وبنيات الاسرة)) سنة 1960 ، ودراسة ((شيلدن وقلوك « Shelden and Clueck » عن ((الاســـرة وتلوث البيئة والانحراف)) سنة 1962 ، ودراسة ((قوديمية Gaudemet » عن ((المجتمعيات الاسرية)) سنة 1963 ، وكذا البحث الذي نشر فى اطار سوسيولوجية الاسرة سنة 1963 — 1964، كخلاصة لدراسات عملية عن ((عوارض العمران والصناعة على الاسرة)) ودراســـة ريمـــي « Rémy » عن ((مقاومة الاسرة المنتشرة فى وسط صناعي عمراني)) سنة 1967 ...

والنائمة تطول بنا لو توخينا التفصيل والحصر (2) ... نقول انطلاقا من هذه الدراسات وما حولها ، وعلى ضوء ما تم فى اللقاءات الدولية التـــي اتخذت كهدف وغاية ، الأسرة والتعرف على قضاياها ومشاكلها وامكانية وضع حلول لها ، يمكننا أن نعطي بعض التحديدات الاساسيـــة بالنسبـــة لمدلول الاسرة أولا ، ولعوارض التنمية الاقتصاديـــة والاجتماعيـــة على مستوى المسؤولية فيها بالتالي :

الاسرة ، نظرة فى النشأة والتطور :

من المسلم به أنه من بين البنيات الاسرية المتعددة التـــي عرفهـــا التاريخ الانساني فى مسيرته الطويلة ، تغلب الان ، ان لم تســـد بنيـــة الاسرة الزوجية « La Familie conjugale » فى مجتمعاتنا المعاصرة.

أما كيف نشأت البنيات الاسرية ، وكيف تطورت فى الفترات المختلفـــة للانسانية على تعدد مشاربها ، وكيف تطور نظام القرابة والنسب ، مـــن

---

(2) الدراسات التي أوردنا عناوينها مترجمة الى العربية هي على التوالي :
Westermarck E.Al.), **History oh human Marriage**, 1891 rééd. 3 val. 1921. —) Durkhein (E.) **la famille conjugale in Rev. Internat. de philo.**, XCI, 1921. —) Davy (G.), **la famille et la parenté chez Durkheim**, in **sociologues d'hier et d'aujourd'hui, 1931.** —) Levi-Strauss (C.) Les **structures élémentaires de la parenté**, P.U.F. 1947. —) Parsons (T) **Family, Socialzation, and Interaction Process**, Glencoe, 1955. —) Chambard de Lauwe (P.) **Famille et habitation** éd. C.N.R.S. 1959. —) Michel (A.), **Fonctions et structures de la famille**, in **Cah. Internat. de Sociologie** n. 29, 1960, —) Sheldon and Glueck (F.) **Family Environment and délinquency**, London, 1962. —) Gaudemet (J.), **Les communautés familiales**, Rivières, 1963. —) **La sociologie de la famille des incidences de l'urbanisation et de l'industrialisation sur la famille**, in **Current Sociology** London, XII-I (1963-1964). —) Rémy (J.), **la Résistance de la famille étendue dans un milieu industriel urbain**, in **Rev. franç. de Sociologie**, Julliard, 1967... etc...

البداية حتى يومنا هذا ؟ فقضية اخرى نعتقد ان التطرق لها ، قد يتجاوز بنا اطار هذا العرض المحدد .

ومع هذا ، نشير ـ حتى لا يؤخذ علينا أننا تعرضنا لقضية الاسـرة من خلال عوارض التنمية ، دون ان نمهد ولو بفكرة موجـزة عن مدلـول الاسرة ـ ان الدراسات الحالية عن الاسرة ، قد أكدت انه ليس هنـاك موقف موحد متفق عليه بين المختصين فى هذا الموضوع ، بالنسبة لنشاة الاسرة ، وكيف تطورت عبر العصور ، ابرز هذا الباحث « موجى Mogey » فى دراسته التحليلية عن « التغيرات فى البنيات الاسرية سنة 1962 (3) كما نجد ملخصا مركزا لاهم الاتجاهات الرئيسية فى نشأة الاسرة وتطورها عند « قود Goode » سنة 1964 (4) . وقد تجاوزت الاثنى عشر اتجاها ومدرسة . كل مدرسة واتجاهها يتحفظ او يفند اتجاه مدرسة اخـرى . كمجرد امثلة من هذه الاتجاهات ، الاتجاه الديركايمي (نسبة لديركايم) ، الذي اعتمد على الملاحظات الاتنوغرافية والانتربولوجيـة ، وهو يرى ان المجتمعات فى بنيتها الاسرية ، انطلقت اساسا من العشيرة الطوطمية ، لتصل الى الاسرة الزوجية وذلك نتيجة لانهيار تدريجي لشيوعة العشيرة، وعليه فالنمط العشيرى سابق للنمط الاسري بمدلوله المحـدد (وقـد تحفظ على هذا الاتجاه كثير من علماء الاجتماع) ، بينما يرى اتجاه آخر ، وهو الاتجاه الكونتي (نسبة لكونت) وقد اعتمد على الاناجيـل وبعـض الوثائق القديمة ، ان الاسرة هي الخلية الاجتماعية الاساسية ، وقد دافع عن هذا الاتجاه ايضا « ليبلاى Leplay » كما تبنته بعد ذلك المدرسة الانتربولوجية الامريكية التراثية (خصوصا) « لوى Lowie » ، بل غالت المدرسة الانتربولوجية الامريكية فى تبنيه الى حد القول ان الاسرة ، دون نزاع ، سابقة بالتالي للعشيرة . اما الاتجاه الذي يمكن وصفه بالاقتصادي،

(2) ونعنـي بـه :

Mogey (J.), **Changements dans les structures familiales**, in **Rev. Internat. des Ss. Soc. XIV 3** éd UNESCO. 1962

(3) ونعنـي بـه :

Goode (W.J.), **The family**. NY. 1964

سواء عند ماركس موا حولـــه ، او ((ارنست قـــروس « A. Gross »
فيرى أن النشاة والتطور للاسرة مرتبط بانماط الانتاج وأشكاله الاقتصادية، ويشرح على ضوئها من نمط الرعاة الى نمط الصيادين الى نمط الـــزراع وما تلاه ، مركزا (اى هذا الاتجاه) ، على طبيعة الاستغلال فى بنية النمط خصوصا بالنسبة للمرأة . ومثال آخر الاتجاه الذي دافـــع عن نظريـــة الاباحية والاختلاط الجنسي في النشاة والتطور فى المجتمعات البدائية، وأسبقية ذلك فى البنية الاسرية ، مثل هذا الاتجـــاه ((جوهان جاكـــوب بتشيفـــــون « Johann Jakob Bachofen » ولويـــس مورجـــــان « Lewis Morgan » ، الا ان هذه النظرية عدل عنها الآن واستبعـدت . اتجاهات كثيرة كما ذكرنا ، قد يطول المقام فى عرضها ، فتخرجنا عـــن محتوى العرض الاساسي .

الا انه يجدر بنا ، ان نتساءل ونحن بصدد مسؤوليات الاسرة ، امام عوارض التنيمة وبصفة خاصة فى مجتمعنا العربي الاسلامي ، قبـــل ان نحدد هذه العوارض هل الاسرة العربية الاسلامية عرفـــت فى نشاتهـــا وتطورها خصائص مميزة ام يجري عليها فى نشاتها وتطورها قبل الاسلام على الاقل ، ما جرى على غيرها ، فى بقية المجتمعات آنذاك ؟

حاول ((وليم روبرتسن سميث « W. Robertson Smith »
سواء في دراسته عن ((الصداقة والزواج فى فجر جزيرة العرب سنـــة 1885 ، او دراسته عن اديان الساميين سنة 1890 (5) ، لن يبرز خصائص مميزة للبنية الاسرية عند العرب ، كامتداد للساميين ، على ان هذه البنية عرفتاختلاطا جنسيا ، ممثلا فى بنية زواج المشاركة ، وقد كان سائدا فى جزيرة العرب قبل الاسلام ، الى جانب بنيات اخرى كزواج الاستبضاع، وزواج الرهط ، وزواج الشغار ، وزواج المؤاجرة ، وزواج الاخـــوة ، وزواج الميراث ... كما ان البنية الاسرية العربية سواء أسرية رهطية ،

---

(5) نعنـــي :
Smith (W. Robertson), **Kinship and Marriage in early Asabia**, 1885. 2è éd. 1903. —) **Lectures on the Reégion of Semites**, 1890, 2è éd. 1894.

ام فصيلية ، هي تتكيف فى اطار العشيرة ، طوطمية او سكنية ، او عرقية، على مستوى الافخاذ ، او البطون او العمائر ... بمعنى أولوية العشيرة على الاسرة بمفهومها المحدد . ولا شك ان محاولة سميث رغم اجتهاده استبعد جانب منها بالعدول عن نظرية الاباحة من اساسها علميا ، كما ان العرب كانوا كما هو معروف يمتون الفحشاء ، ويعتزون بالانساب ويحرصون عليها . وعلى كل مهما كانت طبيعة الاجتهادات فى تقنينها لنشأة الاسرة وتطورها ، فمن المسلم به ان هذا التطور قد وصل بالاسرة نتيجة لعوامل متعددة الى بنية « الاسرة الزوجية » كبنية غالبة او سائدة حاليا كما ذكرنا .

المسؤولية الاسرية أمام عوارض التنمية :

هذه الاسرة الزوجية التي تعنينا اذن ، كيف تواجه عوارض التنمية الاقتصادية والاجتماعية ، على مستوى المسؤولية ؟

التنمية الاقتصادية والاجتماعية ـ ولن نغوص فى نشأتها وتطورها كما غصنا بعض الشيء بالنسبة للاسرة ، لان الاسرة هي التي تعنينا فى الصدارة ، اما التنمية الاقتصادية والاجتماعية فما يعنينا منها الا عوارضها. هذه التنمية للمجتمع ، سواء بدأت من اسعار الفرد لتنتهي باسعاد المجتمع ، تحت شعار ليبرالي ، او بدأت من اسعار المجتمع لتنتهي باسعاد كل فرد تحت شعار موجه ، ترتكز فى انطلاقها حاليا على دعامات رئيسية ثلاثة هي : العلم كاساس ، التقنية كمعرفة ، الصناعة كوسيلة ، وتعتمد فى حركيتها على وجدان معبىء بطريقة ما ، جماعيا وفرديا ، فى الاقناع والتعميم والدمج ، اما غايتها فهي تحقيق مستوى أفضل للحياة ، مغلفا فى مزيد من الرفاهية المادية . ولنا ان نتساءل أين انسانية الانسان من كل هذا ، واين الاسرة بالتالي ؟

*

هذا الانسان ، الذي بدوره تتحكم فيه ، وتسير قدرات انطلاقه مخلفات تكوينية اساسية ثلاثة ايضا « Les Résidus » مستعيرين المدلول من « باريتو « Vilfredo Pareto » دون ان نتبنى مع هذا جميع

معطياته (6) . هذه المخلفات التكوينيــة الثلاثــة ســي ((العواطــف « Les sentiments »)) والفرائــز « Les instincts » والمنافــع « Les intérêts ». . ومسؤولية الانســـان ـ كزوج ، أو زوجــة ، أو ابناء ، يكونون اسرة ـ كامنة فى خلق تعادل وتوازن بين هذه المكونـــات الثلاثة ، فى داخل كل فرد ، ثم فى داخل الاسرة كشمول وخلق أولوية في الاختيار حينما يفرض الاختيار بين هذه المكونات . جــاءت التنميــة بمفهومها المعاصر فطرحت اولوية الاختيار لتحقيق التقدم ، وقــد كان ، المنافع والمصالح متكاملة مع اشباع الفرائز الاستهلاكية ، ولكن فى اطار المسؤولية ، سواء بالنسبة للاسرة أم المجتمع . أما العواطف ، فبالنسبة لمجتمع العلم والتقنية والصناعة ، وعصــره الآلي ليس لها من مكـــان ، اللهم الا اذا اندمجت مقنعة تحت شعار المصالح أو الفرائز . اما بالنسبة للاسرة فقد عز الاختيار ـ ونسمح لانفسنا باستعمال هذا التعبير عــز الاختيار ـ الذي تبرره الابحاث والدراسات العلمية العريضة الواسعــة حول الاسرة واللقاءات الدولية المتتالية . ان انسان القرن العشريــن بعبقريته الناضجة ، وعقليته الواعية ، يبحث عن حل ، بفضله لا ترضــى المنافع والفرائز على حساب عاطفته كأب راع ، او كأم حنون ، أو بنت أو ابن بار . ومن هنا كانت الفيرة ، وكان الحرص على بنية الاسرة الزوجية ، ومن هنا يمكن أن يفهم نداء الانسان من أعلى منبر فى العالم ، حينما أعلنت على لسانه هيئة الامم المتحدة في ديسمبر 1948 ، أن الاسرة هي العنصر الطبيعي واساس المجتمع والدولة ، الاسرة والزواج أساس المجتمع تحت حماية الدولة ، حقوق الاسرة يصونها القانون ، حمايــة الام والطفــل والشيخــوخــة ...

ان التنمية الاقتصادية والاجتماعية بقدر ما تندفع الى الامام ، بقدر ما تزيد وتتضاعف مسؤولية الاسرة لتحمي نفسها من الاهتزاز والتصدع والانفصال . فعوارض التنمية تبدو واضحة فى العلاقـــات بين الـــزوج

---

(6) راجــع باريتـــو :

—) Pareto (V.), **Trattato di Sociologia generale**, Fiorance, 1916.

والزوجة بين البنت او الابن وابيه وأمه. فالام فى مجتمع التنمية بازدواج دورها الآن ، الأسري والمجتمعي ، كزوجة وكام ثم كعضوة عاملة في المجتمع ، بدات هي كطليعة للمعاناة ، عليها ان تحتفظ بتعادلها رغم ازدواجية دورها ، بل عليها ان تنجح فى كل الادوار . ولكل دور خصائصه، ومسؤولياته ومتاعبه . والابن والبنت بدورهما لحقهما شرار المعاناة ، وبدأنا نعيش جيل الرفاق لا جيل الابناء والآباء . الرفيق الصغير اقرب لرفيقه الذي لازمه ، وعانا معه من فقدان الحنان ، في دور الحضانة ، وفى الداخليات والمخيمات ، من هذا الاب وهذ ه الام ، هؤلاء الغرباء . ومن هنا يمكننا ان نقف على علية الكثير من ظاهرات العصر : كصراع الاجيال ، والهيبية ، والتمرد ، والجنوح ، وحتى الرفض . والزوج والاب بدوره بدا يجني الثمار ، ثمار ازدواجية دور الزوجة التي باتت ابعد اليه من رفيقته فى المعمل او كاتبته ، وثمار مجمتع الرفاق حينما يشعر بشبح الاغتراب بين ابنائه وفلذة اكباده ، وانعكست ظاهرة الاغتراب او الاستلاب فى جملتها وشمولها على المجتمع . كل يحاول ان يشعر بوجوده المستلب من خلال شيء يقتنيه ويستهلكه ، يسقط من خلاله ليشبع قدرة كبرى كامنة ومقنعة في اعماقه تريد ان تنفجر . هذا الاستلاب ، وهذا التشييء، وهذا الاسقاط ، بقدرات تغميضية ، بحث عن العزاء فى مضاعفة الانتاج ، وبالتالي فى مضاعفة الاستهلاك فى مجتمع التنمية ولكن علينا ان نحذر ان تتم هذه التنمية فى اطارها الاستيلابي على حساب الانسان ، وحساب الاسرة . فالتنمية ، والصانع لها الانسان ، هي من اجل اسعاده فى النهاية، كاسرة ، وام وابناء ، لا لاستلابه وضياعه . وهنا يحق لنا ان نطرح من خلال هذه الانطباعات كيف يحتفظ الانسان النامي المتقدم بتوازنه كاسرة امام هذه المواجهة الصارمة ؟

لا شك بفضل التوعية بالمسؤولية ، وحينما نقول مسؤولية نعني مسؤولية الاسرة كاسرة ، وامام المجتمع ، ومسؤولية المجتمع بالنسبة للاسرة ، مسؤولية ثنائية ، تربوية اقتصادية ، اجتماعية بصفة عامة ، ومسؤولية تشريعية . الاولى تتصدر فى تحملها الاسرة الى جانب المجتمع، خصوصا فى الاطار التربوي بينما يتصدر المجتمع فى تحمل مسؤوليته فى الاطار الاقتصادي والتشريعي . ويساهم بدور فعال فى تعميم الاطار

التربوي للمسؤولية . المسؤولية التربوية عليها ان تنطلق من التوعية بالمسؤولية ذاتها ، ونعني على مستوى العطاء الاسري ، والاجتماعي لا الاخذ . نخلق ونعبىء المواطن العطاء لاسرته كاب وكام ، وكابن وبنت والعطاء لمجتمعه . ولا يمكن لتوعية بمسؤولية ان تتم دون التزام بمثل غائية ، لا وقتية ولا نفعية ، ومن هنا تأتي اهمية الالتزام بالقيم الروحية والدينية المشتركة كقدرة وجدانية جماعية تنطلق منها التعبئة بطريقة واعية وعطاءة لا متكهفة ومترمتة .

اننا لنعتز باسلامنا المتطلع الذي هو اساس دعم الاسرة واكد استقرارها وحمايتها ، ودعم الوجدان الجماعي وعباه بطريقة واعية ، بفضل اجتهاد خلاق ومستمر مكنه وسيمكنه دائما من ان يلعب دورا اصيلا فى تثبيت المسؤولية التربوية وضمانها فى اطار الاسرة ، وذلك بما فيه من مبادىء سمحة تحقق لنا التعادل والتوازن بين العواطف والمنافع ، والغرائز ولا يمكن لشعور بالمسؤلية التربوية ان ياتي اكله دون ان ينتشر ويعمم ، وهنا يتصدر دور « وسائل التوصيل والاعلام » Mass Media » من راديو وتلفزة ، وصحف ، وسينما ، وحتى اسطوانات وتسجيلات وسائل التوصيل المجسدة لما نسميه بثقافة عامة الشعب ، وبها تتميز ايضا حضارتنا المعاصرة بعكس ثقافة النخبة المرتبطة بالتعليم والتهذيب المدرسي . يمكننا ، بفضل وسائل التوصيل « Mass Media » ان نقدم ، ابطالا ، ونجوما ، وقيما وافكارا ، ووعيا صحيا ونفسيا وانسانيا اكثر نقاوة وعطاء ، وايجابية من ابطال « صفر صفر سبعة 007 » وعصابات السطو ، ونماذج الحقد والرذيلة والاستهلاك . ان المسؤولية التربوية ، تطرح علينا فى اطار الاسرة والمجتمع كيفية الاستفادة من اوقات الفراغ والترفيه ، وكيفية دعم المواطن بمثل وقيم تجعل احتكاكه بقيم وافكار الآخرين متفاعلا بناء وايجابيا ، وكيفية امتصاص سلبيات عوارض التنمية ، بما فى ذلك سلبيات الاحتكاك الحضاري . ولا يمكن لمسؤولية تربوية فى اطار الاسرة والمجتمع ان تصل الى هدفها ان لم تصاحبها مسؤولية تشريعية . ان كان دور المسؤولية التربوية هو دور المعبىء والمقوى ، فدور المسؤولية التشريعية دور الحامي والواقي ، دور دفاعي . المسؤولية

التربوية تقف موقف المهاجم لسلبيات عوارض التنمية ، والممتص لهـــا ، بينما المسؤولية التشريعية تلعب دور المصين لايجابيات التنمية والمدعـــم لها . وذلك بفضل سنها لتشريعات وقائية وعلاجية تتكيف وتكيف الاسرة مع طبيعة نمو المجتمع وتقدمه ، وتحميها من الاهتزاز والتصدع والانفصام. ولقد سهل لنا الاسلام بقدراته التشريعية هذه المهمة . فاي تشريع فيه وقاية ، وحماية للاسرة وتدعيم لكيانها ، الاسلام كدين اجتهاد ، متفتح ، يزكيه ويؤيده . (ولعل قانون سنة 1958 للاحوال الشخصية فى المملكة المغربية ، وهو مستلهم من روح الاسلام ، كما جاء فى نصه ، ومدعمـــا وحاميا للاسرة ، يعتبر خطوة تؤكد ذلك) . كما لا يمكن لمسؤولية تربوية كانت ام تشريعية ان تتحرك فى مجتمع الفاقة والاحتياج ، فاستحالة سد ضروريات الحياة يشل كل مسؤولية تربوية وتشريعية . وهكذا تتصـدر المسؤولية الاقتصادية فى اطار امكانيات المجتمع لكي تعطـي للاســـرة مستوى للحياة كيفي ومهني خصوصا بالنسبة للطبقات الاكثـــر عـــددا وفقـــــرا .

ان نور التطلع وفلسفة المستوى الافضل للحيـــاة بـــدا بفضـــل «وسائل التوصيل « Mass Media »من خلال ثقافة العامة ، يدخـــل الى غالبية اسر فى المجتمعات . ولم يعد خافيا على احد ، ما صاحب هـــذا التطلع من زحف تلقائي في اي اتجاه كان ، فكان زحف البوادي نحو الحضر ، وكان زحف عامة المواطنين الى دور التعليم والمعرفة ، وكان زحف التجار والصناع من سوق ابخس الى سوق آكسب ، تحرك المجتمع فى اتجـــاه التنمية ككل وفى كل حركة ، وفى كل زحف تشعر الاسرة بعوارضها وردود فعلها . ومسؤولية المجتمع اقتصاديا تاتي هنا فى امكانية توجيهه لهـــذه التحركات وهذا الزحف ، ليلعب لصالح الاسرة لا عليها ، وذلك بتوسيـع سوق التشغيل وضمانه وتدعيمه عن طريق تشجيـــع الاستثمـــارات ، والضمان الاجتماعي لضعاف الحال .

وكلاخصة ان كان من المسلم بـــه ، انه نتيجـــة لعوارض التنميـــة الاقتصادية والاجتماعية قد زادت المسؤولية الاسرية كما ، وذلك بتعدد وظائف الاسرة ، وازدواج ادوار بعض افرادهـــا ، وتنوع ادوار البعـــض

الآخر ، فالمسؤولية الاسرية ـ والحق يقال ـ قد ضعفت كيفا نتيجة ايضا لسلبيات هذه العوارض . ولا شك ان الابحاث واللقاءات الدولية ، يمكنها بدورها ، أن تساهم في توضيح هذه السلبيات وتحديدها ، لتحاشيها ما امكن . وتدعيم ايجابيات التنمية على مستوى الاسرة ، مستفيدة في ذلك من التجارب المختلفة ، ومن مواجهة الآراء الناضجة ، واثقة من اصالة الهدف السامي الذي نعمل جميعا من اجله ونعني به ، مزيدا من الاسقرار، مزيدا من الحماية ، مزيدا من التدعيم ، عن طريق المسؤولية الاسرية الواعية ، لنحقق السعادة والرفاهية لا لأسرتنا المغربية والعربية والاسلامية فحسب ، بل للاسرة الانسانية في كل بقاع الارض .

الرباط   د. رشدي فكـــار

جلبابها الصيفي

د. صالح الأشتر

كالهمس

كالنسمة

كالطيف

يا حسنه جلبابها الصيفي !

ان شف عن نهدين

قد نفرا من صدرها

أو نم عن ردف

لم يستطع اخفاء ما سترت

من سحرها

أو لم يكن يخفي

جردتها بالوهم منه

ورحت أجيل فى جلبابها

طرف

فرأيته كالنور

يغمدها .. ويسلها

فتضىء كالسيف !

قد خفت من ايماضه

عجبى !

من حدها أم غمدها

خوف

جلباب

حز الحسن فى كبدى

رفقا به ..

ان لم ترد حتفى !

د صالح الاشتر

الرأي العام
والغوغاء

د. علي الوردي

الرأى العام ظاهرة اجتماعية حديثة النشأة لم تكن موجودة في العصور القديمة الا نادرا . فهى قد ظهرت مع ظهور الديمقراطية الحديثة وقد كثرت حولها البحوث العلمية ، واختلفت فيها آراء الباحثين. ومن المؤسف ان نرى هذا الموضوع غير مدروس دراسة وافية في اللغة العربية مع انه من المواضيع التى لها مساس مباشر ، وصلة وثيقة بكيان المجتمع العربى ومستقبله .

ومن الصعب ان نأتى الآن بتعريف واف للرأى العام ، فهو كغيره من المواضيع الاجتماعية الاخرى لا يزال موضع الاخذ والرد بين الباحثين ، وقد تنوعت حوله التعاريف.

وعلى اى حال نستطيع ان نقول في تعريف (الرأى العام) على وجه التبسيط والاختصار : انه الرأى الذى يسيطر على مجتمع ما حول قضية من القضايا العامة بعد أن يتناقش افراد المجتمع حولها ويتجادلوا فيها .

معنى هذا ان حرية الجدال والمناقشة حول القضايا العامة هى من اهم مستلزمات الرأى العام فاذا لم تكن هناك حرية للمناقشة في مجتمع صعب ظهور الرأى العام فيه . وهذا هو الذى جعلنا نقول بأن الرأى العام ظهر مع ظهور الديمقراطية الحديثة .

ففى العصور القديمة كانت الدولة القاهرة هى المسيطرة على الناس، وهى التى كانت تملك الحق المطلق في ان تبث فى القضايا العامة . اما الرعايا فكان المفروض فيهم فى الغالب ان يسمعوا ، ويطيعوا ما يامر به الحاكم ، ومن حاول ان يبدى اعتراضا او رأيا مخالفا حلت به العقوبة الرادعة . وقد تعود الرعايا على ذلك جيلا بعد جيل بحيث صاروا يستغربون حين يرون رجلا منهم يعلن رأيا مخالفا لرأى الحاكم ، وهم قد يصفونه بقلة العقل والتبصر ، وقد ينبرأون منه ويتهربون من صحبته لئلا يقعوا في التهلكة .

من الممكن القول ان نوعا ساذجا من الرأى العام كان موجودا فى المجتمعات القبلية التى لا سيطرة للدولة القاهرة عليها . وهذا النوع من الرأى العام لا يزال موجودا كما كان قديما وهو الذى نراه الآن سائدا فى أكثر الشعوب البدائية والبدوية . فهناك حين تثار قضية عامة في القبيلة كأن يهددها عدو او تحل بها كارثة ، يجتمع كبار السن المحنكون مع رئيس القبيلة ليتناقشوا ويبحثوا القضية من نواحيها المختلفة ، وكثيرا ما يشترك معهم فى المناقشة معظم افراد القبيلة ، فيتسع الجدال ويطول وقد ينتهى الامر اخيرا الى اتخاذ الرأى الغالب وهو الرأى الذى يتبناه رئيس القبيلة ، ويقود القبيلة على أساسه .

مما يجدر ذكره في هذا الصدد أن الرأى العام الموجود فى البلاد الديمقراطية الحديثة يختلف من بعض الوجوه عن الرأى العام القبلى الذى تحدثنا عنه آنفا . فالمجتمع القبلى يخضع للعادات والتقاليد ، والقيم الاجتماعية

كل الخضوع، واذا تناقش افراده حول اية قضية عامة فان مناقشته مهما تشعبت فهي لا تخرج عن نطاق العادات والتقاليد، انها مناقشة مقيدة ومحدودة ، ومن النادر ان تكون حرة طليقة. وهذا هو الذي جعل بعض الباحثين ينكرون وجود الرأى العام فى المجتمع القبلي.

يقولون من الحرية من مستلزمات ظهور الرأى العام فى المجتمع . وهم يعنون بها الحرية السياسية ، والحرية الاجتماعية معا ، فلا يكفى فى نظرهم ان يكون المجتمع حرا من استبداد الدولة القاهرية فقط ، بل يجب ان يكون ايضا حرا من استبداد العادات والتقاليد .

بين الانصار والخصوم

أصبح الرأى العام مقدسا فى نظر بعض المفكرين ، وبعض الاحزاب السياسة الحديثة . فهؤلاء يعتقدون ان الرأى العام لا يخطيء ابدا ، وأن الجماهير اذا نادت برأى فلا بد ان يكون ذلك الرأى حقا مطلقا لا يعتوره الباطل .

ولكن هذا الاتجاه فى تقديس الرأى العام ظهر له خصوم ذهبوا الى النقيض منه ، نخص بالذكر منهم (نيتشه) الالماني، و (باريتو) الايطالى و(غوستاف لوبون) الفرنسى و(أورتيفا) الاسبانى. ومن المناسب ان نذكر هنا خلاصة لرأى احد هؤلاء وهو (غوستاف لوبون) .

يقول غوستاف لوبون : ان المفكرين صاروا فى العصر الحديث يمجدون الجماهير ، ويتملقون اليهم اكثر مما كانوا يتملقون قديما الى السلاطين المستبدين . ان الجموع الفوغائية اصبحت اليوم هى الحاكم المطلق فى توجيه السياسة العامة ، واصبح السياسيون والاداريون ، والمفكرون يخضعون لها ، ويخشون غضبها . وهذا من معالم هرم الحضارة الحديثة ، وقرب انهيارها كما انهارت الحضارات السابقة قبلها .

ان الحضارة فى رأى لوبون هى من صنع اقلية صغيرة تملك المواهب النادرة ، ولكن الفوغاء لا يفهمون ذلك ، فهم يعتقدون انهم بناة الحضارة،

وانهم قادرون على كل شيء. وقد زاد عدد المنافقين المتزلفين لهم، وشعر رجال السياسة بالجبن تجاههم ، وبذا اصبحت العبودية للغوغاء سنة سائدة على الجميع ، وصار الغوغاء كالجراثيم يعملون دوما في سبيل انحلال الحضارة .

المذهب الوسط

استعرضنا مذهبين متعاكسين في طبيعة الرأى العام ، فالمذهب الاول يمجده ويعزو اليه الصواب دائما ، والثانى يشجبه ويعده غوغائيا يخضع للعاطفة بدلا من العقل. ولا حاجة بنا الى القول بأن كلا من هذين المذهبين لا يخلو من غلو وتطرف.

فالرأى العام ليس دائما ذا طبيعة غوغائية كما يقول خصومه، وليس مصيبا دائما كما يقول انصاره . انه كما يقول احد علماء الاجتماع بين بين ، او هو ذو طبيعة مزدوجة تسيطر عليه النزعة الغوغائية ، والنزعة العقلية فى آن واحد ، وهو قد يندفع نحو هذا الجانب او ذاك على درجات متفاوتة حسب اختلاف الظروف والعوامل المؤثرة فيه .

• • •

حين نشهد الرأى العام فى بعض البلاد المتقدمة التى مارست الديمقراطية زمنا طويلا، نرى فيه الشيء الكثير من الاتزان والنزعة العقلية ولكن هذا لا يعنى ان الرأى العام فى تلك البلاد يخلو من النزعة الغوغائية خلوا تاما . الواقع ان النزعة الغوغائية موجودة فى كل تجمع بشرى مهما كان ، انما هى تقل وتكثر تبعا لعوامل شتى.

خلاصة ما يمكن قوله فى الرأى العام هى انه عبارة عن تفاعل اجتماعى تدخل فيه العوامل العاطفية ، كما تدخل فيه العوامل العقلية . ان العقل والعاطفة يؤثران معا فى الانسان سواء أكان فردا او جماعة. ومن المستحيل على الانسان ان يتخلص من تأثير العاطفة عليه ، وهو من الجانب الآخر لا يمكن ان يكون خاضعا للعاطفة كل الخضوع اذ لا بد ان يرجع الى عقله احيانا ليوازن بين وجهات النظر ، ويدرس ويتحرى فى ضوء المنطق الموضوعى .

عوامل شتى

لا يسعنا المجال هنا استيعاب العوامل التى تؤثر فى تقوية النزعة الغوغائية فى الشعوب . يكفى ان نشير الى بعضها من بــاب التمثيــل لا الاستيعاب :

1 ـ العامل التربوى

ونقصد به الطريقة التى ينشأ عليها الفرد فى حياته البيتية والمحلية، والمدرسية ، فاذا تعود الفرد منذ طفولته على احترام آراء الغير ، وعلى المجادلة الهادئة ، وعلى الايمان بحق كل انسان فى ان يعتنق ما يشاء من مذاهب وأفكار ، صار فى كبره عزوفا عن الاندماج فى الغوغــاء ، وعــن الانجراف معهم من غير وعى . اما اذا تعود علــى العكس مــن ذلك فسوف يكون فى كبره شديد الوطأة على مخالفيه فى الرأى ، ويعتبرهم خونة ، او زنادقة حسب العقلية السائدة فى زمانه ، ويشعر بأن الواجب يقضى عليه بسحقهم سحقا .

2 ـ العامل السياسى

اذا كان الشعب قد مارس الحياة الديمقراطية البرلمانية زمنا طويلا، فان ذلك من شأنه اضعاف النزعة الغوغائية فيه قليلا او كثيرا . وعلى العكس من ذلك اذا توالت الانقلابات فيه ، فان كل انقلاب جديد يعــد بمثابة مدرسة لتعليم التمارين الغوغائية فيه .

3 ـ العامل النفسى الاجتماعى

قد تتخذ الحكومة فى بعض البلاد احيانا اساليب من شانها تقويــة النزعة الغوغائية فى رعاياها .

واوضح مثل على ذلك ، ما فعلته الحكومة النازية فى المانية قبــل الحرب الثانية ، وفى اثنائها . فقد استعملت الاناشيد، والهتافات، والخطب

النارية ، والنسيرات ، والرايات والطبول لاثارة الجماهير نحو هدف معين فاندفعت الجماهير بتأثير هذا الحماس العام كأنها وحش هائل لا تفهم من دنياها غير ما يوحى اليها .

4 ـ العامل الثقافي

إذا ولع شعب بالشعر او الادب اللفظي أدى ذلك الى تقوية النزعة الغوغائية فيه . ان الشعر ذو طابع عاطفي في الغالب ، وهو يصنف الامور الى صنفين لا ثالث لهما : حق او باطل ، حسن او قبيح ، ابيض او اسود ومعنى هذا ان الشعر يعلم الانسان على اعطاء الاحكام القاطعة في الامور ، والتحمس لها وعدم التشكيك فيها . وعلى العكس من ذلك يكون المنهج العلمي الاستقرائي اذ هو يعلم الانسان ان لا يطلق حكما على امر قبل ان يتحقق منه تحققا استقرائيا ، وهو يبقى مع ذلك غير مقتنع إقتناعا تاما ، فلربما ظهر له في ما بعد ما يدعوه الى تغيير رأيه .

التنويم الاجتماعي

ان الانسان يخضع في حياته الاجتماعية لتنويم يشبه التنويم المغناطيسي من بعض الوجوه، ويمكن ان نسمي ذلك **«التنويم الاجتماعي»** وكما ان الافراد يختلفون في مبلغ تأثرهم بالتنويم المغناطيسي ، فهم يختلفون كذلك في مبلغ تأثرهم بالتنويم الاجتماعي .

نجد بعض الناس اذا سيطر عليه ايحاء اجتماعي معين اندفع فيه اندفاعا حماسيا عجيبا ، فهو يكاد يكون اعمى وأصم لا يبصر ولا يسمع الا في نطاق ذلك الايحاء ، وقد لا يبالي ان يسير كالخروف الى المجزرة وكأنه سائر نحو جنة الفردوس . وهناك شخص هو على العكس من ذلك قلما يتأثر بالايحاء الاجتماعي السائد بين الناس ، وقد يستهجن الكثير مما اعتاد الناس عليه من هتافات اوشعارات شائعة . ان اكثر الناس هم على درجات متفاوتة بين هذين النموذجين المتناقضين .

حيــن تقــع ظاهــرة غوغــائية يتجمــع فيها اولئــك الذين لديهــم قابلية شديدة للتأثر بالتنويــم الاجتماعي. وهــؤلاء لا يمكن ان نخاطبهــم عقليا او نجادلهم فى شيء. فالجدال معهم لا ينتج سوى اثارة عدائهم عليك. فانهم لو كانوا قد توصلوا الى رأيهم عن طريق التفكير الموضوعى لكان فى مقدورك ان تجادلهم وتقنعهم ، انما هم قد توصلوا اليه من جراء وقوعهم تحت تأثير التنويم الاجتماعى على طريقة «طار الجمل طرنا معــه» . فــاذا قلت لهم ان الجمل لا يطير ، قالوا ان الجمل يطير رغم انفك ، وهم يرونه طائرا بالفعل .

نجدهم فى بعض الاحيان يمجدون شخصــا ما ويصعــدون به الــى السماء مدحا وعشقا . وبين عشية وضحاها ينقلبــون عليه فيصبــح فــى نظرهم من أسفل النــاس ، والعنهم . وقد يفعلون مثل ذلــك بالنسبــة للمبادىء . فهم تارة مع هذا المبدأ. وتارة اخرى مع المبدأ المضاد لــه . والويل لمن يخالفهم فى كلتا الحالتين .

تصنيف الغوغاء

يمكن تصنيف الغوغاء الى صنفين رئيسيين احدهما هو الصنف العنيف وذلك حين يتجمهر جمع غفير من الناس هائجين صاخبين فيعمدون الى الاعتداء والحرق ، والقتل والتحطيم. وهنا نجد الفرد المشترك فــى التجمهر ينسى نفسه ، وينجرف مع التيار ، وهو عندئذ يكون خاضعا كل الخضوع للتنويم الاجتماعى ، فاذا صاح الجمهور صاح ، واذا هجموا هجم وقد يقوم حينذاك بأعمال فظيعة حتى اذا انتهى منها وانفض الغوغاء اصيب بالدهشة وربما ندم على ما فعل. انه اثناء التجمهر يتخذ شخصية ثانية غير شخصيته الاعتيادية وينلفع بها كالمجنون لا يدرك حقيقة ما يعمل.

أما **الصنف الثانى** من الغوغاء فهو هادىء من حيث مظهره الخارجي ويشمل قطاعا واسعا من السكان . فهم يذهبون الى اعمالهــم ، ويحيــون حياتهم الاعتيادية ولكنهم عندما يفكرون فى قضية عامة نراهم لاينظرون الا من خلال التنويم الاجتماعى المسلط عليهم . فهم يقيســون الاحــداث والاشخاص بمعيار ما لقنوا به وأوحي اليهم . ومن صفاتهم انهم اذا شهدوا

جمهورا صاخبا من الغوغاء يحرق ويقتل ويعتدى أيدوه بألسنتهم أو بقلوبهم ، وقد لا يتردد بعضهم من الانضمام اليه فعليا .

يمكن القول ان العلاقة بين هذين الصنفين من الغوغاء هى كالعلاقة بين البراكين الثائرة ، والمواد المنصهرة فى باطن الارض . فالمواد المنصهرة موجودة فى كل مكان تحت سطح الارض ، وهى هناك فى حالة كمون ، وتحفز . فاذا وجدت نقطة ضعيفة فى سطح الارض اندفعت من خلالها منفجرة مدمرة .

معنى هذا ان النزعة الغوغائية موجودة لدى الكثير من الناس غير انها كامنة فيهم وهى تتحين الفرصة للانفجار .

اننا حين نشهد حادثة غوغائية مدمرة لا يجوز ان نلقى اللوم على المشاركين فيها وحدهم ، فهم ليسوا سوى نتيجة محتومة لما فى المجتمع من تحفز كامن نحو الاعتداء الغوغائى ولولا هذا لما حدثت تلك .

بغداد　　　　　　د . على الوردى



عبدالعلي الودغيري

راجعـي ذكـرى زمـان ، واسـألـى
كـم تـبـاهى ، كـم تغنـى الشجـر
وسلـينـي : هل شفـاد الساقـيـات
قبـلـت ثـغـرك أم ذاق السـحـر
قطرة الطـل ، وفى الـوادى شـدا
ذاك الصبـح ، وهـاج الـزهـر ؟
باسمـك النـور ، واكمـام الـورود
يحفـل الـروض بـهـا ، والمـطـر

باسمك الشعر المنقى الكلمات

يرقص اللحن .. يرف الوتر

كنت لى ربة شعر كلما

قمت للمحراب ، توالت سور

هو ذا مصحفها زخرفه

لك شوق ، ورعاه السهر

بغواد قرحت جفن الذى

شفه الحب ، فغاض البصر

هو ذا القربان أقدمه

ذاك ما يملكه مفتقر

فهو من وحى انتظار قلق

زهرة منك اجتناها القدر

فاس **عبد العلي الودغيرى**

الفنون الشعبية
والصناعة التقليدية بمراكش

عبد العزيز ابن عبد الله

بودي أن اقصر حديثي اليوم على الفنون الشعبية بمراكش واقليمها اللهم الا من حيث المقارنة والتنظير مع باقي الجهات المغربية ولكن يجب أن نحدد اطار هذا البحث فنتساءل عن مفهوم الفنون الشعبية ذلك أن صفة الشعبية قد الصقت بكثير من المعطيات ذات الطابع الاجتماعي والاقتصادي وحتى الفكري فتداخلت كثير من العناصر يندرج بعضها تارة في مدلول الفولكلور Folklore كعلم للتقاليد والعادات والمعتقدات والاساطير والاغاني والآداب الشعبية عموما وهو المعنى الذي افرغ في كلمة فولكلور لاول مرة في انجلترا عام 1846 م ، ونجد مفهوم الفولكلور يتسع ويتمدد ليشمل القصص الشعبي والاغاني وكل جوانب الحياة الاجتماعية

(1) نص محاضرة القيت بمراكش يوم 29 مايو 1975 بمناسبة افتتاح شهر الفولكلور والفنون الشعبية بمراكش .

ماديا وروحيا مما لا يدخل فى علم بعينه ولكن ما لبث اوربا ان اتجهت منذ نهاية الحرب العالمية الاولى الى تمطيط هذا المفهوم ليتصل بالاقتصاد السياسي وتاريخ المؤسسة الشعبية ، كما يتصل بالجانب الشعبي فى الحقوق والآداب والفن وحتى التكنولوجية دون امتزاج وانصهار فى هذه المجالات كعلوم وقد صدر عام 1917 كتاب حول بيبليوغرافية الفولكلور وضع تخطيطاته الاستاذ هوفمان كرايير Bibliographie folklorique par Hoffman Krayer انطلاقا من هذا المفهوم الجديد الواسع للفولكلور فرسم لنا صور القرية وما تحتوي عليه من مختلف المقومات فأدرج فى لائحته الطويلة الحرف التقليدية والتقنيات والفنون الشعبية بما فيها من طب شعبي وموسيقى ومسرح واحاجي والغاز وامثال وحكم بل حتى مصطلحات الشعب وتعابيره الخاصة التي طمعت اللغة وأثرتها كما اذكت الفكر انطلاقا من الوجدان ولاول مرة اهتمت فرنسا بهذه الفنون فأسست عام 1936 متحفا للفنون والتقاليد الشعبية .

فأين نحن فى المغرب من هذه البيبليوغرافيات ؟ الواقع ان هذه التلقائية الشعبية التي طبعت الفولكلور عند الشعوب المحافظة خاصة كشعب الانجليز من أبرز خواص الذاتية عند الشعوب العربية لا سيما فى الشمال الافريقي ذلك أن كل العناصر التي لم يستطع العلم البرهنة بواقعية على ماهيتها كمقوم يشكل ركنا فى حياة الانسان كلها اندرجت تلقائيا فى المفهوم الشعبي الفطري لتلك الازدواجية التي تجعل من الانسان الحي معادلة متواكبة تتوازى فيها الروح مع الجسم والقلب مع العقل والوجدان مع المنطق ، وهذا التساوق الطبيعي هو الذي ينقص كثيرا من الحضارات التي رجحت جانبا على آخر دون أن تحاول التنسيق والتوفيق فلهذا كان مفهوم الفولكلور فى هذا الاطار من مقومات الحضارة الاسلامية التي فسحت المجال للتلقائية الشعبية بصورة شعر معها رجال الفكر !أنفسهم بأنهم اذا لم يندرجوا فى هذه المجموعة فانهم سيشذون عن طبيعة الانسان الحق ولذلك رأينا فى تاريخ الاسلام مجموعة من رجالات الفكر يندمجون فى البوتقة الشعبية كقصاصين وزجالين وموسيقيين بل وفنانين يدلون بدلوهم فى مختلف هذه المناحي التي نجد لها أصداء فى

صناعاتنا التقليدية وفي شتى انشطة الفكر الشعبي التي كانت تتمثل قبل فترات التحجر والانكماش في حركات وسكنات رجل الشارع المهذب الذي لا تمنعه اميته من اكتساب نوع من الرصانة الفكرية قد لا توجد عند الكثير من المثقفين ، فالامة التي لا تنطلق فيها بكل حرية « الفنون الشعبية » بهذا المفهوم الواسع لا يمكن ان يكتمل فيها قوام الحيوية ، فلذلك ارى انه انطلاقا من تاريخنا الحضاري المعزز بالاتجاه الجديد في أوربا والعالم الحديث يجب ان نعطي لفنوننا الشعبية امكانات أوسع للتطور والاشعاع ولا يهمنا في طفرتنا الحضارية هذه ان تتداخل العناصر لا سيما وأن النظرة العلمية الدقيقة لمفهوم الفولكلور الشعبي في أوربا قد سطت على الكثير من المعطيات التي تتجاذبها العلوم والفنون الاخرى .

فلننظر اذن الى هذه المعطيات الشعبية في مراكش واقليمها خاصة ولننطلق اولا مما اضطرت أوربا الى اعتباره جزءا من الحضارة التلقائية الشعبية ، فهنالك عندنا طب شعبي قد تحدثت عنه باسهاب في كتابي « الطب والاطباء » الذي صدر منذ 1380 هـ / 1960 م بمقدمة من حضرة الاستاذ الكبير السيد محمد الفاسي ، وهذه المادة ثرية بما تنطوي عليه من اعشاب وعقاقير جمعها الشعب وجربها قبل أن يفيد منها أطباؤنا في مصنفاتهم وما زال العشابون عندنا يمتازون بالضلاعة في معرفة خواص الحشائش مما اصبحت التجارب الصيدلية الحديثة تهتم به باسم الدعوة الى طبعية العلاج أي استخلاص الدواء من الطبيعة .

ولن اتحدث عن الموسيقى والملحون والازجال والاحاجي والالغاز والامثال الشعبية لان الاستاذ الكبير محمد الفاسي المعروف بضلاعته في هذا الميدان قد كفانا ذلك ، غير انني اود ان اشير الى جانب هام يتصل بكل ذلك ويتصل باختصاصي في حقل اللغة وبحكم الرسالة التي اضطلع بها منذ ازيد من عشر سنوات في العالم العربي كمشرف على مكتب تنسيق التعريب على الصعيد العربي فقد انكببت على دراسة المصطلح الشعبي من خلال العامية المغربية واصدرت نتائج ابحاثي في كتابين هما : « اصول العربية في العامية المغربية » و « نحو تفصيح العامية في الوطن العربي » حيث قارنت بين اللهجات الدارجة في مصر والشام وامارات الخليج

والمغرب العربي ، وحللت الفوارق واستخلصت مظاهر عبقرية الشعب في التركيز على لغة القرءان لرسم صور حية عما يتلجلج في خاطره بدقة وعمق مما اثرى لغة الضاد في نظري وجعل من الضروري الارتكاز على هذا الرصيد الحي لدعم الفصحى كما دعمها الشعب العربي بسليقته الخلاقة المبدعة في العهد الجاهلي ، وتتجه المجامع العلمية الى تحقيق هذا النوع من الاقتباس الذي اسهم فيه الاستاذ محمد الفاسي كعضو في هذه المجامع لابراز فعالية العامية المغربية في دعم التراث الحضاري العربي .

ولن اطيل في جانب آخر من موضوعنا وهو الفن في عمومه لانني أصدرت منذ عشر سنوات باللغتين العربية والفرنسية كتابا حول الفن المغربي صدره ايضا الاستاذ محمد الفاسي بمقدمة بليغة وقد حللت فيه الجوانب الشعبية في الفن المعماري ومختلف انواع الرسوم التي برهن الاطلس وفي ضمنه هذا الاقليم منذ أعرق العصور على ما يذكي الانسان المغربي من حساسية عريقة وذوق رقيق ، ففي مغارات جبال أكايمدن رسم الانسان الاول منذ أربعين الف سنة ثلاثة الاف وخمسمائة صوره صخرية مغارية تكشف لنا عن الحياة اليومية للرجل المغربي في الاطلس وقد ابدعت بتلقائية اخاذة طبقا لمنظورية رائعة لا يمكن ان نصدق انها ترفع الى هذا العهد السحيق لولا وجود ما يضاهيها في مغارات « الماسيف سنترال » Massif central الذي يشغل سدس مساحة فرنسا ولم يصل الفنان الحديث الى ابدع مما بلغه الفنان المغربي آنذاك في تشكيله وتشخيصه للحيوان في مختلف وضعاته وحركاته ، وان دل هذا على شيء فقد يدل على مدى عمق الروح الفنية لدى الانسان المغربي خاصة في هذا الاقليم الذي كان في غضون وثنايا التاريخ صلة وصل بين الاندلس والصحراء اللتين اكتملت حضارتهما باشراف صنهاجة ومصمودة .

وما زال التاريخ الحديث يسعفنا بنماذج لهذه العبقريات فقد عرضت فتاة مغربية امية اخيرا الواحا فنية في باريس تحدثت عنها الصحف باعجاب لانها تبرهن عما يمكن ان تتمخض عنه التلقائية الفطرية الشعبية من روائع ، وان نظرة الى ما تقلب فيه منذ قرنين جامع الفنا (بفتح الفاء لتعليق رؤوس الثوار فيه) او الفنا بالكسر (كفناء وساحة أمام جامع

الكتبية) تصور لنا مدى تنوع جانب الفنون الشعبية كالغناء والرقص والبهلوانيات بما تنطوي عليه الملاعب الشعبية في السيرك العصري من انواع الانشطة الرياضية والترفيهية والغنائية وشتى التسخيرات لمختلف اصناف الحيوانات الصغيرة (لان الكبيرة لا يتسع لها هذا الفناء) ، وقد خصصت في موسوعتي المغربية التي بدأت تصدر في نحو عشرين مجلدا عشرات الصفحات لفئات من الرقص الشعبي مثل احواش في الجنوب والزفن (وهو الكلمة الفصحى للرقص) لدى القبائل العربية كالشاوية وزعير كما تحدثت باسهاب عن أجواق الموسيقى الشعبية وروعة تلاحينها وسمو مقاصدها الحكيمة في ملحونها ومواويلها وبراولها وازجالها التي استهدف التنكيب الساخر والوصف المبدع لمساوىء المجتمع وامراضه وعلاجاتها والتهذيب الرقيق لاخلاق المواطنين ، وكان الشعب على مستوى ارفع مما هو عليه اليوم خلقا وثقافة لان « الجامعة الشعبية » كانت قائمة حية في كل مسجد وقرية تلقى فيها الدروس ليل نهار لتثقيف الخلق الديني وبث روح المواطنة من خلال الفكر الاسلامي الذي يبثه العلماء والفقهاء ، وكلنا نعرف عددا من الاميين الذين كانوا شعراء بل وقضاة ببعض الحواضر كفاس نفسها يناظرون العلماء بل يكفي أن تقرأ ما كتبه الاجانب عن هذه الثقافات الشعبية كالمؤرخ موليبراس Moulieras في كتابه Le Maroc Inconnu « المغرب المجهول » الذي صدر آخر القرن الماضي (1895 م) لتلمس مدى انتشار الوعي والقراءة والكتابة حتى في جبالة والريف خاصة لدى المرأة ، وقد أفردت فصلا خاصا لهذا الموضوع في الجزء الاول من كتابي « معطيات الحضارة » ثم ان الكثير من هذه الفنون الشعبية التي تريد ان تضفي على نفسها صفة الروحانية قد استحالت اليوم الى شعوذة غمرت الحواضر والبوادي وزادها ايغالا في السخريات استفحال الامية ابان الحماية الاستعمارية والا فان بعض هذه الفنون ترتكز على معطيات علمية وصفها ابن خلدون في مقدمته وابن البنا المراكشي في كتابه حول العزائم والرقى والطلسمات والزجر والفال والكهانة وخط الرمل ، وكذلك الشيخ عبد الرحمن الفاسي سيوطي المغرب في رسالة حول علم الكف وهذه من الفنون التي أصبحت تقوم بين جميع طبقات الامة بدور اجتماعي خطير لا مجال لتفصيل القول فيها هنا .

واذا اعتبرنا ان بعض عناصر الفولكلور والفنون الشعبية قد تغلغلت معطياتها فى الصنائع التقليدية منذ أن تركزت الوحدة فى القرن الخامس الهجري بين اجزاء المغرب من الصحراء الى شمال العدوة ـ امكننا ان نستعرض ما كان يسمى بالصنائع المشتركة وكلها شعبية ، فمراكش هي التي تزعمت منذ عهد يوسف بن تاشفين حركة دعم الفن الشعبي الصحراوي بعناصر اندلسية حيث استقدم الامير صناعا بالاضافة الى المهندسين لخلق فن معماري جديد قام على اكتاف اختصاصيين من الشعب فى المساجد والحمامات والخانات والسقايات والجسور والقناطر فكانت قنطرة تنسيف فى مدخل مراكش باكورة هذا الفن الذي نقل البلاط المراكشي أروع عناصره الى فاس لتوسيع أعظم جامع واقدم جامعة عرفها الاسلام منذ ازيد من ألف عام ، وقد وصف ابن ابي زرع ما أبدعه رجال الحرف والفنون مما هال المستشرقين أمثال مارسي Marçais فانكروه لولا كشف الحفريات الحديثة عام 1952 م عن جملة من الروائع التي ابدعتها يد الصانع المغربي تسطيرا وتجبيصا وقرنصة وتزليجا وصبغا وتلوينا ، وقد انطلقت من مراكش فى عهد يوسف الموحدي الذي عاش فى اشبيلية فنون شعبية مختلفة من هذا الطراز الذي نتحدث عنه ازدادت ازدهارا فى عهد ولده يعقوب المنصور الذي بني رباط الفتح وجامع حسان وأكمل منارة اشبيلية والكتبية وجعل من مراكش بغداد المغرب ببناياتها وقصورها وحدائقها كالمسرة والمنارة وكانت تلك هي الانطلاقة الاولى لتوحيد الفنون الشعبية تحت ظل بلاط مراكش الحمراء فى جميع انحاء المغرب العربي حيث امتدت بدائع المرابطين والموحدين الى بجاية ومهدية وتونس وتلمسان والجزائر ، وقد تبلورت هذه الروعة اكثر فأكثر فى العصور التالية ولكن كانت هذه النواة الاولى وقد أشار صاحب « الاستبصار » الى « دار الامة » التي بناها يوسف بن تاشفين للدلالة على مدى اسهام الشعب فى خلق الحياة فى المغرب الموحد سهلا وأطلسا وصحراء ، كما أشار الادريسي الى « دار الحجر » التي اسسها ولده ووصف عبد الواحد المراكشي فى المعجب (ص 186) اروع مارستان عرفه الاسلام حيث اكد المؤرخ الفرنسي ميليي Millet فى كتابه الموحدين les Almohades ان مستشفيات باريس فى عهد صدور الكتاب (اي عام 1926) تخجل من

هذا المستشفى لحسن تنميقه ووفرة أطبائه وصيادلته وادويته ولا بدع ان ينطلق هذا الابداع الخلاق من مراكش ، فهل تعلمون ان البلاط المراكشي يرجع اليه الفضل فى تأسيس أعظم حصن ما زال قائما الى الآن وهو حصن جبل طارق فى سنة الاخماس أي عام 555 هـ ؟ ! .

اما القناطر والسواقي فقد استخدم المرابطون رجال الفنون الشعبية من الصحراء والاندلس معززين بمهندسين ويتجلى هذا المزيج الصحراوي الاندلسي فى القنوات التي نقلت الماء من الجبل الى مراكش وهذا النوع هو الخطارات التي ما زالت تستعمل الى الآن والتي يرجع أهمها وهي قنوات عين غبولة برباط الفتح الى عبد المؤمن الموحدي وتعتبر هذه الاعمال فى عصرنا هذا من اختصاص عمال الاشغال العمومية التي كان معظمهم آنذاك بمراكش حيث نقل يعقوب المنصور الماء على قنطرة الى هذه الحضرة aqueduc كما بنى والده قنطرة الوادي الكبير وقنطرة قلعة جابر باشبيلية وانبرى عمال الفنون العسكرية الشعبية لبناء القلاع والقصور والملاجيء والمطافيء فى طول البلاد وعرضها وكذلك الاسوار التي امتازت بالطابية المنيعة ومنها اسوار الرباط الموحدية التي لم ينل منها معول ولا ديناميت التقنية المعاصرة أول سنوات الاستقلال عندما ارادت الدولة فتح شوارع من خلال هذه الاسوار .

وقد ذكر البكري (المغرب ص 163) أن اهل اغمات من هذا الاقليم كانوا قبل بناء مراكش اكثر الناس تكسبا واطلبهم للرزق يكلفون نساءهم وصبياتهم التحرف والتكسب ومعنى هذا أن تدريب الشعب على الفنون والمهن والحرف كان فى مراكش وناحيتها منذ العصور الاولى أوسع وأعمق منه فى كثير من حواضر المغرب ، وبذلك اصبح هذا الاقليم ينافس العالم كله فى روعة انتاجه فكانت جلود اغمات تفوق جودة صنعها جلود الدنيا (حسب عبارة ياقوت فى معجمه) كما برزت أصناف المصنوعات التي عددها الادريسي كالنحاس والاكسية والمنسوجات الصوفية والزجاج والافاريه والعطور والآلات الحديدية .

وحتى المراة ضربت اروع مثال فى تنشيط الفنون الشعبية حيث بذت الرجال فى تلوين الخزف وصنع الزرابي وغزل النسيج وكانت مراكش

باب الصحراء تشرف على تكوين أطر الفن الشعبي في الاطلس والسهول حتى اصبحت المراة في سجلماسة ـ كما يقول ياقوت في معجمه (ج 5 ص 41) تحيك بيدها الصناع مآزر مصبوغة بادق الالوان تفوق المآزر المصرية ، ويبلغ ثمن الازار الواحد منها خمسة وثلاثين دينارا ذهبيا (كان الدينار يساوي آنذاك خمسة جرامات من الذهب) وقد ذكر مؤرخو القرن الثالث أن مراكش كانت احدى مراحل القوافل التجارية التي تنحدر من الاندلس والبصرة قرب القصر الكبير مارة بسجلماسة الى الخليج خلال الصحراء حيث كان يستعمل نوع من الحوالات المصرفية ، ومن هذه الطريق كانت القوافل المغربية تربط الشرق بالغرب في عهد الحسن بن محمد الوزان وهو ليون الافريقي في القرن العاشر الهجري ، ومن هذه الطريق ايضا دخل افريقش الحميري بعربه القحطانيين الذين عمروا الاطلس فكان منهم ـ اذا صحت رواية النسابين العرب ـ مصمودة وصنهاجة علاوة على كتامة في سهول الشمال ، ولعل هذه الاصالة العربية في رجال الصحراء المغربية هي التي جعلت الصحراويين من شنقيط والساقية الحمراء ووادي الذهب اقرب في لهجتهم الى الفصحى ، وقد انعكست هذه الاصالة على مراكش حاضرة الملثمين الصحراويين التي امتازت أسماء حرفها التقليدية بطابع عربي فصيح مثل بامهاود للحكم بالمهاودة والحناط (لبائع الحنطة) والنيار لصانع المناول والسفاط (لصانع السفط أي السلل) والاسكافي لصانع البلاغي الخ . ومعظم أسماء الفنون الشعبية الاخرى فصيحة عريقة على وزن فعال تعد بالمآت كشماع وزيات ونقاش الخ ، ولكن السمة الرائعة في الفنون الشعبية المراكشية انما تستمد اصالتها الفطرية من روح « نكتة البهجة » التي تنم عن عمق في الاحساس وبداهة في التفكير وجزالة في التعبير لا تضاهيها في العالم العربي الا نكتة أهل مصر ، وقد صنف عبيد الله بن احمد الزجالي المراكشي المتوفى عام 694 هـ كتابا في نكت الخواص والعوام توجد نسخة منه في خزانة القرويين (رقم 985 د) .

وكان نظام الحناطي هو السائد باشراف المحتسب الذي كان يسير دواليب الحياة الاقتصادية فهو الذي يراقب المتاجر والمصانع ويفصل

الدعاوي بين ارباب الفنون الشعبية من حلايقية وبهلوانيين وقصاصين وتجار وصناع ومحترفين ، وكان نظام الحناطي يمتاز بالمغرب كله كما لاحظ المؤرخ باليز Balez في النشرة الاقتصادية والاجتماعية بالمغرب (عدد 49 و 50) بطابع الحرية حيث أن المخزن كان يحترم مبدا الحرية التجارية قبل صدور ظهير 1917 القاضي بتنظيم البلديات ، وانما فسد بالاحتكاك بالغرب ــ كما يقول باليز ــ .

ومن مراكش أرسل المولى زيدان بن المنصور السعدي عملاء الى أوربا للدعاية للفنون والحرف الشعبية والمنتجات التقليديه وحمايتها من المزاحمة الاجنبية فحظر آنذاك توريد المنسوجات الانجليزيه وغيرها وكان بعض هذه الفنون الشعبية ميراثا للاندلس منذ القرن الخامس الهجري ، ومعلوم ان براعة العرب والبربر فى الاندلس كانت ــ كما قال الدكتور لى فى كتابه (حول الموريسك) ــ قدوة فى الزراعة والصناعة والعلوم والفنون كما كانت خلالهم قدوة فى النشاط والمثابرة حيث كان ذلك كما يؤكد الدكتور « من افضل العناصر التي يمكن أن تضمنها دولة متمدنة » . ولم تكن البادية اقل حظوة من الحاضرة لان الفقر ودور القصدير والبطالة لم تستفحل الا ابان الحماية من جراء سياسة نزع الملكية لصالح المعمرين ــ تلك السياسة التي جرفت بكثير من الصناعات والفنون الشعبية ودفعت الآلاف من ارباب الحرف البدوية الى الحواضر حيث تراكموا فى اخصاص القصدير الموبوءة ، ويكفي دليلا على براعة اليد المغربية الصناع فى مختلف الفنون انه بخروج العرب من الاندلس ــ كما يقول لي بول فى كتابه « الموريسك فى اسبانيا » ــ اندرست حسب تعبيره ــ فنون اشبيلية وطليطلة والمرية وعفت صناعاتها ، ومن هذه الفنون الشعبية ما أشار اليه ابن مرزوق فى القرن الثامن حيث ذكر من بين الفنون التي يسميها « الصناعات المشتركة » القسم المتصل بالبناء وحده فعدد النجارين والجباسين والزليجيين والرخامين والقنويين والدهانين والحدادين والصفارين ، وقد ذكر المقري فى نفح الطيب أن الموحدين عندما ارادوا اتخاذ أصونة للمصحف العثماني حشروا الصناع المتفنين ممن كان بحضرتهم العلية (أي مراكش) وسائر البلاد من مهندسين وصباغين

ونظامين وحلائين ونقاشين ومرصفين ونجارين ورسامين ومجلدين وعرفاء البنـــــاء .

وقد نوه الحسن بن محمد الوزان في القرن العاشر الهجري بأصناف من الفنون والحرف والمهن التي ازدهرت بمراكش وفاس وسبتة ، كمـــا ازدهرت بتيويت وسوس وهسكورة بالاطلس وتادلا وسجلماسة بالصحراء.

وكان نصف سكان المغرب تقريبا يضطلعون بمختلف الفنون الشعبية التي كانت تجمع العامي والعالم حيث برع في مهن شتى علماء افذاذ فكان الفكر يعزز الوجدان في بدائع مأثورات الفولكلور الشعبي ، وقـــد قـــام ماسنيون عام 1924 م بتحقيق حول حناطـــي الحرف والتجارة بالحواضر فلاحظ ان رجال الحرف يمثلون نصف مجموع السكان ، وكان الشعـــب يضفي على هذه الصنائع من روحه الوثابة فيخلقها خلقا يتجدد مع الايام ، ولذلك زاحم بعضها أوربا كمصانع الورق والزجاج والسكـــر والجلـــود والنسيج ومواد الاستهلاك اليومية التي لم يكن المغرب عالة فيها على احد، ويكفي ان نعلم أن مدن فاس وسبتة وشاطبة كانت تصدر الى أوربا الغربية ورق القطن المغربي كما كان البلاطان في باريز ولندن يتنافسان في عقد معاهدات مع البلاط السعدي بمراكش لاقتناء اجود سكر مصفى عرفه العالم آنذاك ، وما زالت بقايا مصانع السكر قائمة تشهد بروعة الادوات المختلفة التي كانت تبدعها يد الصانع المغربي .

وفي أيام الموحدين عرفت مقصورة جامع المنصور بقصبة مراكش وكانت تتحرك جدرانها ومنبرها بمجرد ما تمس رجل الخليفـــة الازرار الموضوعة في المدخل الخاص في باب المقصورة ، وكانت تدار بحيـــل هندسية ، واستمرت قرونا الى أن بطلت أيام السعديين عام 1010 (حسب مشاهدات الامام المقري ـــ النفح ج 2 ص 704) .

وقد أكد طيراس أنه لم تكد تمر ثلاثون سنه على اعتلاء عبد المؤمن اريكة العرش حتى كانت منجزات الشعب المغربي تثير الاعجاب فعمـــت الرفاهية مجموع البلاد وبلغت مدن المغرب من الازدهار ما لم يسبق لها

ان بلغت من قبل ، وفي الاندلس اقر الموحدون نظاما جعل حدا للفوضى المالية التي كان يتخبط فيها ملوك الطوائف ، وانطلق الفلاح المغربي يبني اقتصادا جديدا في ضيع المنارة التجريبية جعل رحالة انجليزيا زار مراكش عام 1741 م يؤكد أنها اجمل بقعة في افريقيا (دوكاستر) ، وقد احصيت بفاس نفسها ايام المنصور والناصر الموحديين 3094 من اطرزة النسيج و 47 معملا للصابون و 86 معملا للدباغة و 814 للصباغة و 12 معملا لتشبيك الحديد والنحاس و 11 معملا للزجاج و 135 مصنعا للجير و 1170 فرنا للجير و 400 رحى لصنع الورق ، والموحدون هم أول من نظم الاساليب التجارية طبقا لمقتضيات التجارة الدولية ، وقد اقتبس المسيحيون منهم كما يؤكد ذلك « اندري جوليان » الذي ذكر ان الاسطول الموحدي كان أول أسطول في البحر المتوسط .

كل ذلك بفضل الشعب وضلاعة الشعب في مختلف الفنون التي كانت تتجمع على كاهله وهذا الشعب هو الذي هب لانقاذ جيوب الشمال المحتلة والوقوف – كما قال طيراس – في وجه التسرب الاجنبي حيث شوهد تحت اسوار سبتة مجاهدون تواردوا من جنوب المغرب وانبرى السعديون يلمون الشتات لايقاف الخطر البرتغالي الداهم فحرروا أكادير وعدلوا الجبايات تخفيفا على الشعب وفنون الشعب الرازحة تحت الضغوط الاستعمارية وامموا بعض المواد وعبأوا جيشا قويا انتصر في معركة « وادي المخازن » التي كانت صورة لتلاحم الجماهير علماء وعوام دون ميز ، وقد بلغ من ثراء المغرب بعد وقعة وادي المخازن سيطرة الدينار المغربي على السوق العالمية وتنافس الغربيين في اقتنائه واصبح المغرب يصدر الى انجلترا نفسها المنسوجات والذهب والزيوت والسكر وتبلور ازدهار مجموع الفنون الشعبية باشعاع انتاجها ووفرة المبادلات الداخلية التي بلغت آنذاك بين الشمال والجنوب ما بين الف والف وخمسمائة جمل تعبر يوميا وادي ابي رقراق حاملة مختلف المنسوجات والكتان والاخزاف والمخيطات والزيوت .

وقد عزز الملوك العلويون هذا الوضع فحرر سيدي محمد بن عبد الله الجديدة واقليم مراكش من نفوذ البرتغال وقضى على التهريب في الجنوب

واسس الصويرة وعقد معاهدات مع دول بروتستانية ومع الولايات المتحدة لمدافعة الاستعمار الايبيري اللاتيني ، كما وزع أموالا طائلة أيام الجفاف على الشعب اوصلها صاحب (درة السلوك) الى نصف مليار دينار ومنح قرضا لدور تجارية شعبية كما منح إعانات لارباب الصناعات انعشت انتاجهـــا ودعمت مختلف فنونها وظلت البادية ناعمة في ثرانها بعيدة عن الحواضر تسرح في سهولها اخر أيام المولى عبد الرحمن 48 مليون رأس من الغنم و 6 ملايين راس من البقر و 12 مليون من المعز وخمسة ملايين من الجمال والافراس والبغال (كودار ص 188) ، وقد اضاف العلويون الى مراكش حدائق اكدال في شكل ضيع تجريبية تغرس بها علاوة على الفوائه العاديه الازهار والرياحين المجلوبه من اوربا ، كما طور المولى عبد الرحمن زراعة قصب السكر وجلب فنيين من أوربا ومصر لتكرير السكر في مصنع اكدال بمراكش (الاتحاف ج 3 ص 556) وجلب ولده محمد لترقية الفلاحة آلات دراسة وحفر قنوات الري والآبار الارتوازية واسس المصانع وخاصـــة مصانع النسيج ، واحال الرحامنة الى جنان مزهرة ، وكان سائـــرا في تخطيطاته وتصميماته التي لم توقفها الا الحرب الاستعمارية ضد فرنسا في حدود الجزائر وظلت مع ذلك كل من مراكش وفاس تحتلان المقام الاول في الصناعات المشتركة وتتمتعان في أوربا بسمعة نادرة لجـــودة وروعـــة منتجاتهمـــا .

وقد انكب على الصناعات المشتركة والحرف والفنون المختلفـــة علماء افذاذ منهم محمد بن أحمد بن طاهر المعروف بالخدب كان ينتحل الخياطة بفاس وقد راس أهل عصره في النحو خاصة واخذ عنه ابو ذر الخشني وابن خروف النحويان (جذوة الاقتباس ص 168) .

كما كان الشيخ محمد بن عبد الله معن يتمعش بعمل دود القز (نشر المثاني ج 1 ص 197) في حين كان الفشتالي التلمساني تاجرا في قيسارية اسفي يدير حانوته بعد الفراغ من مجلس تدريس الموطأ والسير والنحو والآداب واللغة وقد عاصر الموحدين (663 هـ) (الذيل والتكملة) وكانت هذه شنشنة علماء الاسلام قاطبة كأبي حنيفة الذي كان يتجر في القـــز بالكوفة والامام الخصاف احمد بن عمر بن مهير صاحب المصنفات الفقهية

الذي كان يتعيش من خصف النعال والجصاص شيخ زمانه الذي ينتسب الى العمل فى الجص والشيخ ابراهيم المتبولي بائع الحمص المسلوق بالقاهرة (طبقات الشعراني ج 2 ص 27) وابو تمام الذي كان سقاء فى جامع عمرو بن العاص (ابن خلكان ج 1 ص 172) والجاحظ الذي كان يبيع الخبز والسمك (معجم الادباء ج 1 ص 369) وابو العتاهية بائع الجرار والفخار وابو بكر الصبغي من أعيان فقهاء الشافعية (المتوفى عام 344 هـ) الذي كان يعمل الصبغ بنفسه ويبيعه فى حانوت كانت مجمع الحفاظ والمحدثين .

ومن هذه الفذلكة يتجلى الدور الهام الذي قامت به الحرف التقليدية والفنون الشعبية والمركز الاجتماعي الذي شغلته فى مختلف العصور طبقة التجار والمحترفين والفنانين ، كما يبدو بوضوح أن الفضل كل الفضل يرجع لتلك التلقائية الخلاقة التي كانت تذكي روح الشعب المغربي فيبدع هذه الروائع التي ما زالت اشعاعاتها تنير لنا طريق المستقبل بتشجيعات صاحب الجلالة الحسن الثاني نصره الله الذي ما فتىء يكد لتجديد معالم الحاضر انطلاقا من تراثنا الخالد .

الرباط　　　　　　　　عبد العزيز بنعبد الله

أبجدية مغربية
في سفر الوحدة والعودة

أحمد مفدي

لما كنت الناسك فى محرابك يا وطنى !

أيقظنى خاطر ساحرة

وامتدت فى الحلم رؤاى

أغفو ؟

وأنا ؟

مازلت أغنى شاردة ، فى مسراى ! :

« هذا الوطن الممدود خرائط حب ونضال

ينــتابــه شوق عناق وطرائـــف

تقطعه فى الليل تنائف ارسال ووصال . . ! »

هذا الوطن المنفوش غمامة ! :

هــا تــرتـــســم . .

فى أعــينـــنـــا رايـــتـــه الحمـــراء

تــنــتــصــب . .

فى ذاكرة الحلم اليقظه . . !

* * *

أيتهــا الساقيــة المنهوشـــه . . !

يــا أشطـــان ســمـــار الـــوادى . .

سيلى مســدا ، قطرانـــا ، زفتـــا . .

وانعـــقـــدى فى عنـــق الطـــاغـــى

كـــى يـــنـــجـــر حـــقـــيـــرا

خـــارج أشـــيـــاء الـــوطـــن . . !

فيك العضد / الارجل / والاحداق . . !

دكـــى خزف الاعداء . .

وانهمــــرى غـــيــظـــا

مطر النقمـــة والاثـــداء !

* * *

فيك العضد / الارجل / والاحداق

يـــا أحـــداق ســـمـــارتـــنـــا

صونـــى الحضـــرة للوطـــن . . !

كى تمسى أوراد الوحدة بالشيخ (1) رصاصا

وانـــتـــشـــلـــى

أشـــلاء التاريخ من الاصـــر . . !

يـــا أحـــداق سمارتنـــا (2) :

أبـــنـــاء الـــوطـــن ،

جـــاؤوا . . آتـــون اليـــك !

فـــانـــتـــفـــضـــى

شدى بالجذب اللاهب أطراف الرسن . .

فـيـضـى . .

فـيـضـى . .

فـيـضـى . .

نـعـره . .

خنجـر أجـداد ، وطعان الحربـه .

فيضـى سـاريـة

زوبـعـة ثـورة . . !

شيدى من خطو العربى الفاتح قلعه !

*   *   *

يـا أبـواب مدائننـا المزورة !

تمتـد حبال الضـوء الفالت منك سلافه !

كى ترسم فى السهل المأسور سحابه

أو تمطر حبا فى الوطن / المعشوق / العاشق !

فلينـبت فيـك الحب ثـوارا . .

ها . . تنفتح الفجوة من قبتك الشماء

أحداقا حاقدة تسخر من « موری (3) »

تسحل فى الرمل الملتهب

جثث الاجناد الغازية الساحل

وعيون الساقية المذعورة

تلتظ حواشيها ، تزاور ، تحمر جوانبها

من دم ما جاهدت الاوغاد !

* * *

يا أحلاق سمارتنا

انفجرى

ها قد مرت من تحت الشرفة والابواب المنغلقه

أسراب جياد الحلم

وغزاله

يا أحداق سمارتنا

انتشرى

ها قد زحف الابطال / السمر / الزرق

بعصـــابــتــهــم
وضمـــادة حب لجــراح الفرقـــه !
يـــا أحداق سمـــارتـــنـــا
انتـــبهى .. أبنـــاء الوطن ، آتون اليك !
لكـــن ان ظـــمـــئـــوا
كونى ، بشفافية الرمل السائل فى الساقية الحمراء
خـــمـــرا
يـــفـــتـــح بـــاب الـــوصـــل
وحـــداء الـــركـــب ..
ينحـــب من الاحراش الى المعراج
كوني صاعقة فى قلب الغازى
بركانا تحت الاقدام القذرة

فـــــاس أحمد مفـــدى

---

1) اشارة الى الشيخ ماء العينين الذى كان زعيـــم الوحدة فى الجنوب ومجسم ابعادها ، بصفته نائبا عن السلطان .
2) السمارة مدينة بناها الشيخ ماء العينين ، وكانت مركزا علميا قـــل نظيره فى الجنوب ، وهى مشتقة من وادى السمار الذى بنيت على ضواحيه ولست ادرى لماذا تكتـــب فى المصادر « الصمـــارة » اذ لا يعتمد على اى اشتقاق لغوى .
3) الضابط الذى هاجم مسجد السمارة وتبنتـــها .

من وحي المسيرة الخضراء

حبيبة البورقادية

يا ركب يا أعظم
لشعبنا فاسلم
خذني أنل مغنم
أعدو لكي تسلم
وأمتطي الأدهم

* * *

فأقضي العمرا
بأرضنا الصحرا

يا ركب هل تعلم
حبي ما أسماه
عمري ما أغلاه
عيشي ما أصفاه
عزي ما أوفاه

* * *

لو أستلم شبرا
من أرضي الصحرا

* * *

بالله يا ركب
لا تسرع الخطو
في حضنه المأوى
بحصنه السلوى

* * *

لأنتشي العطرا
من تربة الصحرا

* * *

الصب أضناه

بعد وأفناه

يريد أن يلتقي

من شفه عشقا

وهزه شوقا

* * *

فصمم المسرى

للساحة الكبرى

* * *

أراد أن يسعى

مهما نأى المسعى

فيعبر الدربا

مستلهما ربا

مستغفرا ذنبا

* * *

ليلتقط التبرا

بداره الاخرى

أمـــا تـــرى الأفـــقـــا

الأخـــضـــر الانـــقـــى

حـشـودنـــا تـــرقـــى

تـــسـتـعـذب الـسـبـقـــا

لـتـبـلـــغ الـعـتـقـــا

* * *

فـتـحـمـد الـمـســرى

بـأرضـنـا الـصـحــرا

* * *

للـــه مـــا أحـــلـــى

كـــلا ولا أغـــلـــى

مـــن وثـبـــة جـلـــى

تـسـتـلـهـم الـرســلا

لـتـبـلـــغ الـســـؤلا

* * *

فـتـعـبـر الـقـفـــرا

وتـــدرك الـصـحــرا

* * *

يا غريبا مؤدى (1)

ظالمك لا يكدى (2)

سعيك لا يجدى

بمعقل الأسد

وموطن المجد

* * *

أمجاده تترى

هباته كبرى

* * *

سير حثثناه

غر طردناه

مجد حفظناه

بند رفعناه

---

(1) جء فى لسان العرب :
مؤدى بالدال المهملة اى شاكى السلاح قال : رؤبة بن العجاج :
« ومؤدين يحمين السبيل السابلا » . واخترت المعنى الآتى :
من ادى ادوا للرجل ختله وخدعه .

(2) لسان العرب :
اكديت الرجل عن الشىء رددته عنه ـ اى لا يردنا عن هدفنا

عرس أقمناه

* * *

في الخيمة الخضرا
بأرضنا الصحرا

* * *

شمل جمعناه
ود محضناه
صرح بنيناه
سر عرفناه

* * *

للمغرب أحرى
بالوحدة الكبرى

* * *

نمحضه الحبا
لنسعد الشعبا
ونفرش الدربا

* * *

ونسكب العطرا
والورد والزهرا

* * *

ونحفز الرتلا
ليجمع الشملا
ويهزم الدخلا
ونترك العتبى

* * *

للوثبة الأخرى
تحرر الشطرا (1)
وتمحق الكفرا

الرباط — حبيبة البورقادية

---

(1) الشطر : الغرباء جمع شطير — لسان العرب — واقصد من أصبحوا باستعمار أرضهم كالغرباء عنها

قصة



احمد عبد السلام البقالي

وقف المعلم المهيب يعلن لتلاميذه نهاية العام الدراسي وبداية عطلة الصيف الاولى من نوعها فى حياة المدرسة القرآنية .

وقام التلاميذ فاعادهم الى مقاعدهم باشارة من يده يعرفونها ، وبنظرة حادة تعلموا بالتجربة ان يحترموها . فقعدوا على مضض ليعانوا ما سوف يتلو عليهم من مواعظ .

ولم يكن يعنيه من تلاميذ الفصل غير مصطفى ولد القايد، فكان متوجها بكامله اليه ، وهذا يحاول بجميع الوسائل ان ينفض عنه نظرات المعلم او يراوغها كعادته مع كل ما يضايقه . وما اكثر ما كان يضايقه ! فقد كان عنيف الطبع ، ضيق النفس ، قويا كالعجل المتوحش !

وأعطى المعلم اشارته بالانصراف لتلامذته محركا راسا يائسة في

اتجاه مصطفى الذي كان يقفل محفظته المهلهلة للمرة الالف ، ويحرك ركبتيه في عصبية مكبوتة .

وأخيرا ، انفتح باب الفصل على مصراعيه لتخرج منه كتلة بشرية ملتحمة ، كانت الى حين جماعة من التلاميذ جالسين الى مناضدهم في أدب ونظام ، وكأن النار اشتعلت فجاة في أدبارهم !

ونزل في مقدمتهم مصطفى ولد القايد من طابق المدرسة الثالث كصاروخ اختل توازنه فمرق في كل اتجاه . كانت اسنانه تصطك من هياج الفرحة العارمة بحرية الصيف الاولى في حياته ، تحولت الى هستيريا لا ارادية أرعدت فرائصه ، وجعلته يطلق صرخات حادة من حلقومه كصفير يصم الآذان !

ومر في طريقه بدرب الصياغين فصرخ في أذن النقايري العجوز ، بلقلعي ، وهو مستغرق في نقش حلية دقيقة حتى كاد يصعقه !

ثم التقى بصديقه رحال فانطلقا يقفلان ابواب دكاكين الخرازين واحدا بعد الآخر ، حتي انطلق خلفهم جيش جرار من اصحاب الدكاكين مسلحين بالعصي والاحذية «والقراميل» و «السباسي» .

وانتهى المطاف بمصطفى الى ساحة جامع الزكوري فوجد امامه يهودية سمينة تتهادى كالبطة وعلى يدها صينية حلوى في طريقها الى الفرن، تحت أعين صبيان وكبار ازاغها الحرمان من الضروريات ، دع الكماليات .

ودخل مصطفى تحت صينية الحلوى فرفعها برأسه من فوق يد اليهودية بطريقة ماهرة ، وبقي يوازنها على جبينه وقمة راسه ، ويميل بطريقة بهلوانية من يمين الشارع ليساره ، واليهودية تصيح في اعقابه لا تعرف أتتوسل اليه ام تشتمه في خوفها على مصير صينيتها وهو يؤرجحها كما تفعل فقمة السيرك ، محركا رأسه وكانها مستقلة تماما عن بقية جسده وينادي :

«آولاد سيدى احمد آموسى..»
«أمولاى ابراهيم طير الجبال..»

واجتمع للتفرج عليه عدد كبير من الصبيان لفظهم مسيد جامع الزكورى فخرجوا يتزاحمون على بابه كالخرفان فى جلابيبهم الصوفيـة ورؤوسهـم الحليقة . .

وبدأ هو يغني ويعزف بيده على محفظته وبقدميه الحافيتين على بلاط الارض بايقاع رقصته واليهودية تحاول اختطاف الصينية وهو يراوغها.

وردد معه الصغار الاغنية مصفقين للايقاع . .

وخرج فقيه الجامع فلم يكد يدرك حقيقة الموقف حتى صاح فى مصطفى زاجرا آمرا له ان يعيد صينية الحلوى الى صاحبتها . .

ولم يلتفت اليه مصطفى ، بل ظل يدور بسرعة حول نفسه وهو يزغرد معلنا اقتراب النهاية العظمى . .

ورأى الفقيه في ذلك تحديا سافرا لاوامره وسخرية من جلال قدره ، فتحرك نازلا الدرجات الثلاث الى الساحة وفي عينيه شرر ووعيد ..

وتجاهله مصطفى حتى أنهى دورانه ثم وقف فجأة وانتظر ان تستقر الصينية على جبينه ، ثم نظر الى الفقيه متسائلا فى براءة :

ـ تخاطبنى أنا ، نعم آس ؟

ولما ضاقت المسافة بينهما تراجع مصطفى قائلا بطاعة وامتثال :
ـ هاهى نعم آس ..
وبحركة قوية من عنقه ارسل الصينية فى الهواء فأسرعت اليهودية والفقيه الى تلقفها وما كادت تستقر بين ايديهما حتى صاح مصطفى صيحته المشهورة :

اللعبات والقلبات .. والسينترو والغول !
والسينترو والغول !

وبقلبة انجليزية خطف الصينية بقدمه اليمنى من بين الايدى فانتشرت قطع الحلوى فى فضاء الساحة وامتدت الايدى الصغيرة لالتقاطها قبل الوقوع على الارض ـ فالحلوى حلوى قبل الفرن وبعده ..

وهوت الصينية على رأس الفقيه لتسقط على قدم اليهودية ، وهم الفقيه بمطاردة مصطفى لو أنه فقط عرف اى اتجاه سلك .. فوقف وعيناه يمكن اشعال سيجارة فيهما !

وهكذا استأنف مصطفى ولد القايد طريقه نحو منزله تاركا خلفه ذيلا طويلا من التعاسة والغضب والغليان ودعوات المظلومين .

• • •

وفى صباح الغد ربط مصطفى خيط الصيد فى قصبته وأدلاها من فوق السطح الى الشارع ونزل خلفها متسللا الباب حتى لا تراه أمه فتكلفه بسخرة . .

وما كاد يضع قصبته على كتفه حتى انطبقت على رسغه قبضة ابا العربى المعكرط المخزنى الشبيهة بالايدى الفولاذية فى المختبرات الذرية ورفع عينيه ليرى وجه ابا العربى المعكرط الذى لم يطلق عليه هذا الاسم هباء .. رآه ينظر اليه بعينين شبه مغمضتين وعلى وجهه المستدير أثر بسمة لم يدر مصطفى هل كانت ترحيبا ام تشفيا ..

وبالطبع كان رد فعل مصطفى الاول هو محاولة الفكاك من القبضة الصماء بكل وسيلة وفى اقرب وقت ! فحاول انتزاعها ولكنه عدل عن ذلك حين احس أن ذراعه باكملها كانت توشك على الانخلاع. والتجأ الى العربدة والصراخ والقعود على الارض والتمرغ ومحاولة التعلق بكل ما تقع عليه يده

الاخرى دون جدوى ، ودون ان يعبأ ابا العربى المعكـرط بذلك ، اذ بـدا يتحرك ويسحبه خلفه كخروف عيد مشاكس .

وحين لم يجد الصراخ والضجة ، التجأ مصطفى الى العنف فدخـل برأسه في بطن ابا العربى فأصابت «بزيم» مضمته دون ان تزعزع جثتـه المربعة الثقيلة كالدبابة .. ولما لم تجد الروسية انقض على اليد المنطبقة على رسغه فغرز فيها اسنانه .. وهنا نزلت على فكه صفعة حديديـة مـن يسرى ابا العربى المستديرة الثقيلة كفرد رحى فداخ وانقلبت عيناه ، ووقف ليمشى هادئا الى جانب (ابا العربى) المخزنى .. ولم يستعد تمام وعيه الا امام الباشا الذى كان جالسا على كرسى حكمه الفخم فى صدر قاعة المحكمة.

كان الباشا العجوز يدرس مصطفى ولد القايد ليضعه فى مكانه مـن النماذج البشرية التى عرف فى السبعين سنة التى عاشها وقضى اغلبها في الحكم والتمرس بطبائع الناس .. فقد رأى نسخا عديدة من هـذه الطبعـة السريعة .

وأخيرا تنحنح الباشا وخاطب راحيل اليهودية بصوت خافت فتقدمت ليراها مصطفى لاول مرة من بين الحاضرين فى القاعة، وهى تمد اصبعهـا فى وجهه ، والشرر يخرج من عينيها لتقول وهى تزم شفتيها بعصبية :

ـ هو هذا !

ونظر اليه الباشا فأجاب مصطفى فى الحال :

ـ والله ، نعم آس ، ما انا .

وتقدم الشهود ... اولهم الفقيه الغاضب فايد اليهودية . وجـاء رد مصطفى بنفس التأكيد :

ـ والله ما بالعانى ! كنت أجرى فقط فاصطدمت بها .

وجاءت الكارثة مع الشاهد الثالث ، وكان هو «حمايدة» الطراح الذى حضر مسرحية مصطفى وراحيل ، وكان اكثر المتفرجين تصفيقا وتشجيعا.

والآن ، وأمام الباشا ، وقف يمثل العملية من البداية ويقلد حركات مصطفى باتقان مستعملا القاعة كلها ميدانا لحركاته منشدا :

ـ هاوتما .. هاوتما .. هاوتما ماشى تما ،، جيبو له طاجين دالما،، باش يغسل ديك الت ..

وحاول مخزني زجر الطراح فمنعه الباشا بحركة من يده وهو يتأمله بوجه جامد محايد .. ومصطفى يتميز من الغيظ لرؤية الطراح يتشفى فيه أمام الباشا وينظر اليه بتحدى ، ولم يشعر ان امسك بذقنه مهددا ومهمهما بين اسنانه :

ـ حتى تخرج آوالديك !

ونطق الباشا هنا موجها الكلام لمصطفى بصوت ناعم خفيض :

ـ انت «صليب» اولد القايد .

ولفت انتباه مصطفى شبح أبا فرجي المخزني الاسود واقفا فى ركن بعيد حين انحنى على صطل ماء فأخرج منه حبلا مفتولا أخذ يعصره ويلينه بين يديه وينظر الى مصطفى كالجزار يدرس ضحيته ...

ولم يكن مصطفى رأى من قبل ما يسمى «بازفل» ولكنه سمع عنه كثيرا وأحس بأنه مطوق من كل مكان فبدأت غريزة الحيوان تستيقظ فيه ، ونظر الى الباب فاذا جثة المعكرط المستديرة تغلقها من الخد للخد ، وهو واقف بعينين شبه مغمضتين في وجه كأوجه الصينيين ..

والتفت الباشا الى اليهودية سائلا :

ـ هل تسمحين له ؟

ـ نعم اسيدى ، اليهود لا يشمحون. (تعنى يسمحون).

ـ اذن تطالبين بما ضاع منك ..

ـ وبعقوبة هذا الولد السايب .. اذا لم يربيه أبوه ، فالمخزن يربيه الله يجعل البركة فى سيدى المخزن ..

ونقل الباشا عينيه الى مصطفى الذى كان كتلة من المشاعر المتضاربة ولاعصاب المتوترة وقال بصوت ابوى حنون :

ـ بما ان هذه أول شكوى تصل بهذا الولد ، ونظرا لصغر سنه راينا الا توقع عليه العقوبة التى يستحقها على مخالفته ـ هي مائة جلدة بالقنيب. وارتخت اعصاب مصطفى لذهاب الخوف عنه فجأة ، وبدأ يخطط لمرحلة ما بعد المحكمة .. اقصاب الصيد ما تزال تنتظر فى اسطوان الدار ، والاصدقاء لم يبتعدوا كثيرا نحو سيدى مغيث ..

وسمع القاضى يستأنف :

ـ وليس على المشتكى منه الا ان يعوض اليهودية راحيل على ما ضاع منها حتى ترضى به .. وعليه ان يقوم بصناعة الحلوى التى افسد بنفسه، ويشترى لوازمها وعدتها من كسبه ، وسيبقى تحت مراقبة المحكمة حتى تأمر راحيل باطلاق سراحه .

واحس مصطفى بخطر غامض سرعان ما زايله حين رأى عمي فرجي يخرج الحبل من سطل الماء المالح ..

وأشار الباشا الى المعكرط ، فانحنى هذا صائحا : «سيدى!» واقترب من منصة الباشا .. وهمس هذا فى اذنه شيئا وأبا العربى يحرك رأسه، ثم رفع سبحته آذنا له بالانصراف .

وقصد ابا العربى مصطفى وأمسك بيده وقاده خارج القاعة الى غرفة صغيرة ، فأدخله وأقفل خلفهما الباب ، وأشار اليه ان يقعد على كرسى مستطيل ، وجلس بجانبه .. وفاتحه الحديث :

ـ هل سمعت ما قاله سيدى الباشا ؟
ـ نعم ..
ـ ماذا تنوى ان تفعل ؟
ـ سأذهب الى امى ، وستعجن الحلوى لليهودية .

وحرك ابا العربى رأسه ، مغمض العينين ، غير موافق :

ـ ما هكذا قال سيدى الباشا .. انه قال : عليك انت ان تعجن الحلوى بيديك !

ـ ولكني لا اعرف كيف !

ـ تعلم .

ـ قد ياخذ ذلك اياما .. وربما اسابيع !

واغرورقت عيناه من القهر ، وهو يرى عطلته الجميلة تكاد تعصف بها الاحداث .. فرد المعكرط بتهكم مر :

ـ ابدا ! كيف يمكن ان ياخذ كل تلك المدة وانت افسدته في رمشة عين ؟ خطفت الصينية من يد «راحيل» بلعبة شيطانية .. كيف يسمونها ، كيف ، ياترى ، سماها صبى الفران ؟

ورفع المخزنيوجها صينيا سمينا ، وعينــان نائمتين نحو السقـف يحاول ساخرا ان يتذكر .. وأخيرا قال منتصرا :

ـ وجدتها ! يسمونها : القلبة الانجليزية !

وصدرت عن بدنه الثقيل قهقهة بطيئة ، أشبه ما تكون بسلسلـة انفجارات صغيرة بداخله ، وهو ينظر الى مصطفى ، وقد اشرق وجهه اللماع بابتسامة لم يدر مصطفى هل كانت للتسلى ام للتشفى ! ولكن نبرة التحدى كانت واضحة في كلامه .. فحك مصطفى عينيـه ، ورفع رأسه ليرد علـى التحدى بمثله ..

ـ ساصنع لليهودية حلواها بنفسي !

ـ عافاك ! عافاك ياولدى .. هكذا يكون الرجال !

وطبطب على ظهره بكف مستديرة ، وقال :

ـ هل معك فلوس لشراء اللوازم ؟

ـ ساطلبها من ابي .

وحرك المخزنى رأسه الكبيرة مرة اخرى ، قائلا :

ـ سيدى الباشا قال : شراء اللوازم يجب أن يكون من فلوسك انت!
ـ ولكن ليس معى فلوس !
ـ اليست لك وسيلة ما للحصول على الفلوس ؟ الناس كلهم يحصلون على الفلوس .. فهل انت اقل منهم قوة او ذكاء ؟

ولكنى ما زلت تلميذا في المدرسة .. وليس لى خبرة فى ميدان الكسب ..

ـ فكر في شيء ..

وقام مضيفا :

ـ أنا ذاهب لاتغذى .. وسأبعث من يخبر أهلك ليبعثوا لك بغذائك.. الاحسن أن تستعمل وقتك فى التفكير في عمل لكسب المال والخروج من ورطتك .

وخرج ، واقفل الباب خلفه بالمفتاح . وبقى مصطفى وحده مخدرا لا يصدق ما يرى ويسمع !

وفكر في جميع من وقفوا ضده فى المحاكمة ، حتى الطراح ، وأطرق برأسه شاعرا بانه مطوق بكل ذلك الحقد وذاك الغضب الذى جره طيشه وجهله .. وراح يجتر احساسه بالاضطهاد والنكد ..

ومن خلال دخان اليأس والثورة ، انبثقت فى ذهنه فكرة طبعت على ثغره ابتسامة .. فوقف يمسح دموعه ، ويذرع الغرفة مقلبا للفكرة من كل الوجوه .. ياترى ، هل سيقبلها الباشا ؟

قريبا سيعرف ..

وسمع صوت مفتاح فى الباب ، وعرف من السعال العالى ، والتحيات المتبادلة مع القرويين الجاثمين جنب باب المحكمة ، أن أبا العربى المعكرط عاد من بيته. وما ان فتح الباب حتى سأل :

ـ هل فكرت في وسيلة ؟

فقال مصطفى بتفاؤل :

اذا وافق الباشا فانا مستعد أن أصيد السمك وأبيعه حتى اجمع المبلغ المطلوب !

فحك ابا العربي لحيته القصيرة ، وفكر قليلا وابتسم :
ـ أعتقد ان هذا حل معقول.. ستكون قد كسبت المال بعملك.. أنا لا مانع عندى . قم ، اذن ، واذهب .

ثم استوقفه منبها :

ـ ولكن المبيت الليلة هنا ! سمعت ؟

فحرك مصطفى رأسه موافقا، وخرج راكضا الى داره، ثم عاد وقصبته تحتك بالحيطان ، وأسلاك الكهرباء ، والنوافذ والمصابح حتى انضم الـى صديقه رحال بالبحر .

وما كاد يدلى صنارته حتى بدأ الجزر ، لسوء حظه ! وبدأت الامـواج تنسحب حتى بدأ يرى طعمه تحت الماء ..

وحرك رحال رأسه غير راض :

ـ بدأ الجزر .. وهرب السمك ..
ـ ماذا سنفعل ، هل نذهب الى الواد ، ام وراء الميناء .؟
ـانا سألعب الكرة .. تعال انت كذلك .. نصيد عندما يبدأ المد .

وسمعا ضجة فرق المدرسة وهى تقتسم اللاعبين بالاقدام ، فأسرع نحوها ..

وبدأ اللعب .. وانهمك مصطفى فيه لدرجة انه نسى كل ما حوله .. وتحول العالم فى عينيه الى ميدان وكرة وفرقتان .. وتسربل العـرق على

وجهه وعنقه .. واحمرت خداه ، وأخذت منخراه الواسعتان تدخلان من الهواء ما تستهلكه فرقة بكاملها ..

وفجاة سمع أصواتا عالية غير التى اعتاد ان يسمعها فى الملاعب .. فيها انذار وتحريض على الفرار .. وكبح جماح طاقته المتدفقة ، وبصعوبة اخرج نفسه من تركيزها الهائل على الكرة واللعب ، لينظر حوله ..

وما كاد يرفع راسه حتى رأى جميع اللاعبين يشيرون اليه صائحين :

ـ اجر ! اجر ! سيقبض عليك ..

ونظر الى ما كانوا ينظرون اليه فتبين جثة ابا العربى المعكرط الضخمة المستديرة وهى تتدحرج نحوه منذرة بسحقه تحت ثقلها .. ودون ان يفكر أطلق ساقيه للريح مراوغا المخزنى البدين ، ومضحكا رفقاءه ببهلوانية حتى اجهده !

ووقف ابا العربى المعكرط يلهث يكاد يلفظ روحه ، ويحاول ان يهدد ويتوعد مصطفى الذى كان يثير بخوياته وفلتاته اعجاب الفرقتين فيصبح جميع اللاعبين والمتفرجين عقب كل مراوغة :

«أولـى .. برافو !»

وكأنهم فى ملعب مصارعة ثيران .

وذهب ابا العربى شاحب الوجه ، محاولا اعادة السلام الى قلبه الثائر وبقى مصطفى ينظر حواليه غير عابىء بطبطبات رفاقه وتهانيهم على افلاته من قبضة «المخزن» .

وحمل هو جلبابه وحذاءه وعدة صيده ، وطلع ثقيل القلب يحس فى بطنه بوجع غامض من الخوف والتوقع ..

ولكن ما لبث ان احاطت به جماعة من الذين يكنون له عداء قديما .. ومن كان له طبعمصطفى لابد ان يكثر اعداؤه .. بدأوا اولا ينظـرون اليـه

بعيون حزينة وكأنهم يودعونه في طريقه الى المشنقة .. وفي النهاية بدأوا ينشدون بلحن حزين مرعب :

«يا لطيف أيا لطيف»

وثار في داخله وبدأ يفكر في الانعتاق والهروب من هذه الشرنقة التي حاكها بطيشه حول نفسه .. وفكر في الهروب الى طنجة .. ولكن اين الجواز والفلوس ؟ ولا فائدة من الهروب الى العرائش او تطوان ، فيد الباشا طويلة في تلك النواحي .

وفي النهاية استسلم ..

ومع المغرب ذهب مصطفى يتأبط هيدورة ملفوفة على حشية صوف ومخدة الى دار ابا العربي المعكرط ووقف على الباب يفكر فيما سيقول للرجل الذي اهان وأرهق بحماقاته وبهلوانياته .. وطرق الباب ففتحت له فتاة في مثل سنه فيها من بعض ملامح ابا العربي المعكرط مما جعله يستغرب كيف يمكن للطبيعة ان تصنع من شكل واحد منتهى البشاعة ومنتهى الجمال ! فرغم شبهها بأبيها كانت رشيقة القوام ، فاحمة الشعر والعينين في لمعان يمتزج فيه الذكاء والدعابة وبراءة الطفولة ومرح المراهقة.

فتحت مصراع الباب بيد ما تزال تكسوها رغوة الصابون ، ووقفت تنظر اليه وقد ركزت ذيل ثوبها الامامي في حزامها فكشفت عن ساقين تشع منهما الانوثة الشابة في غفلة منها ..

ونظر هو اليها مبهورا بجمالها الغلاب .. فاجأه وجودها في دار ابا العربي المعكرط الذي كان مقترنا في أذهان الناس ببأس السلطة وطبقيتها واريستوقراطيتها المترفعة عن عامة الناس .

فوجيء بعكس ما كان يتوقع .. كان يتدرب على عبارات الاعتذار والاستعطاف لغول جبار ، فوجد ان الغول بشر له بنت من اجمل البشر ، تباشر أعمال عامة الناس ، وتركز ذيول ثوبها في حزامها كما تفعل اخته هو حين تصبن او تجفف .

وابتسمت هى عن ثغر لؤلؤى ، بشفتين مرجانتين فسطعت ابتسامتها المشجعة على روحه وطردت ظلامه ومخاوفه

وبعد لحظة نظر الى ما تحت يده وتذكر لماذا جاء فقال بعد نحنحة :

ـ ابوك هنا ؟

فمالت براسها قائلة :

ـ لا.. ذهب للصلاة !

الغول يصلى ! عجبا .. صدمة اخرى ..

ـ متى سيعود ؟

ـ قريبا . لماذا تريده ؟

وهز كتفيه وتحاشى نظرتها البريئة ، وهم بوضع حمله جنب الباب والقعود عليه للانتظار .. ولكنها فاجأته بقولها :

ـ ادخل .. انتظره بالداخل احسن ..

وتمنع فى البداية .. هذه ليست عادة اهل بلدته .. لا يدخل احد بيت احد الا فى المناسبات، وخصوصا الصغار.. لا يدخلون البيوت الا فى المآتم ولكن ابا العربى العكرط ليس من اهل المدينة فعاداتهم اذن تختلف..

ـ ادخل .. يالله . لا تنتظر بالخارج . عيب ، ابى لا يحب ذلك.

وبعد تردد حمل رزمته ودخل .

وفى وسط الدار المربع اشارت له الى حشية :

ـ اقعد هناك حتى يجىء ..

ووضع هو رزمته امامه وقعد مؤدبا ينظر حواليه كانما لم يركب كتفيه عفريت ، ولم يتقمص روحه مارد من الشياطين ..

وانصرفت هى الى جفنتها وانحنت تصبن وتغنى وترفع راسها بين الفينة والاخرى لتنفخ على خصلة شعر تتدلى على عينيها او تحك ببنصرها

انفها الصغير وتبتسم لمصطفى فى مرح صيانى اخـــذ بمجامــع قلبـــه دون ان يعرف ما اصابه ..

ورفعت رأسها لتعصر بعض الملابس وسألت :

ــ لماذا تحمل ذلك الفراش ؟

ــ سيأخذنى أبوك للحبس !

فألقت ما فى يدها وسألت :

ــ ولكن لماذا؟ ؟

فحكى لها عن اليهودية وصينية الحلوى فانسجمـت في ضحك عذب رقيق كأحلى ما تكون الموسيقى .. وعقبت على الحادث بقولها :

ــ تستاهل اليهودية الشمطاء ! لماذا تخرج بصوانـى الحلـوى الى الشارع ونحن نشترى الخبز بدفاتر التموين ! أنا اعرفها .. «احو فيها !»

قالت ذلك بتشفى فارتفعت معنويات مصطفى .. ولكن القانون اعمى . ليست له عينا مضيفته الساحرتان .. ولا شفتاها القرمزيتان ، ولا نهداها العذراوان .. وماذا يهمه القانون والباشا وابا العربى اذ وقفت هذه المخلوقة النورانية الى جانبه ..

ووجد نفسه يقهقه لتشفيها اللطيف من العجوز الحاقدة ، ويهتز فـى مقعده سرورا ..

ولم تطل مدة سعادته فقد سمع صوت مفتاح بالباب ، ووقع اقدام حذاء ابا العربى المعكرط ثقيلا بمـا اضيف الـى قاعه من مطـاط عجـلات السيارات .. وما وقعت عيناه على مصطفى حتى توقف ينظر اليه بعينيه المغمضتين دون ان ينبس بتعليق ..

ــ كان سينتظرك بجنب الباب .. ولكننى ادخلته ..

ورفعت فوطة لتعصرها وسألت :

ـ هل ستدخله الحبس من اجل ما فعل براحيل ؟

وخرج ابا العربى من صمته ليقول لها بشبه نبحة :

ـ ليس شغلك .

وعاد الى همسه وهو يعد حبات سبحته الخشبية وكأنما يسبح . وفي النهاية تنهد وتلا بفلسفة الآية :

«والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس».. لا حول ولا قوة الا بالله..

ثم توجه بالكلام إلى مصطفي :

ـ قم ، قم يالله آبنى ، هل تعشيت ؟

وحرك مصطفى راسه بنعم ، وقام فتبع ابا العربى الى دار الباشا.

ولحقت به الفتاة لتهمس في أذنه ـ أنا اعرف كيف تصنع تلك الحلوى .

وانطبقت قبضة أبا العربى على رسغه وتحركا تحت غبش المساء ..

وقطع المخزني الصمت بقوله :

ـ الم تقل لى انك ذاهب لصيد السمك ؟

ـ ذهبت ، ولكن الجزر كان قد بدأ ، كانت الصنارة تنزل على الرمل .

ـ كان يجب ان تعود حالا الى دار الباشا .

وسكت مصطفى واحنى رأسه معترفا بجرمه وانسياقه للاغراء . واقفل ابا العربى عليه باب الغرفة وتركه ، وبقي هو كالطائر

السجين يقلب عينيه فى السماء الداكنة الزرقة من نافذته وينصت لاصوات المساء الممتزجة بتكسر البحر على اقدام القصر.

وسمع أذان العشاء ثم صرير بوابة القصر وهى تقفل فاحس بانه اصبح معزولا عن العالم كالغريق فى جزيرة نائية .

وتلالات النجوم فى سماء مخملية فاحمة فقفز الى خياله طيف الفتاة الحلوة التى رأى في دار ابا العربى المعكرط بكل ما يحيط بها من فتنة ومرح . واغمض عينيه وتمدد فوق فراشه مفكرا فيها حالما بمفاتنها حائكا حولها احلام يقظته المشبعة برغباته المراهقة الملتهبة .

وحاول مرات ان يخلص من احلامه بها الى واقعه للتفكير فى طريق للخلاص فكانت تقفز امامه ناسخة صور واقعه الحالكة ..

ونام وهى ملء عينيه وقلبه واحلامه حتى أيقظه ضوء النهار وعراك امرأتين تحت نافذته . فقفز الى رجلية ، وجر الكرسى الطويل الى تحت النافذة وطلع فوقه ليرى ما يحدث بالخارج .

والتقى وجها لوجه بصديقه رحال الذى كان يتعلق هو الآخر ليطل عليه . جاء ليخبره بطريقة اخرى لكسب الفلوس :

ــ اسمع ، ناخذ الواحنا ونذهب الى «الدمينة» نطلب «للا بيضة» (جمع تبرعات عينية ومالية لحفل طلابى سنوى) .

ووافق ابا العربى على المشروع ، وفتح الباب لمصطفى ..
وفى المساء عاد الاثنان يحملان بينهما قفة من اجود القمح.

وتنفس مصطفى الصعداء وهو يضع القفة امام ابا العربى فى داره، وقد نزل عن كاهله عبء ثقيل .

وفوجىء بعقبة اخرى حين ساله ابا العربى :
ــ هل لك فلوس لطحنه ؟

ولكن عبلة بنت ابا العربى سارعت الى انقاذه بقولها :
ـ نطحنه هنا .

وقادته الى بيت الرحى فتبعها طائعا ، وجلسا متقابلين حولها .. ودخلت عليهما ام عبلة ، ثم خرجت باسمة لنفسها وكان طائفا من ذكريات صباها عاودها .

وبين المغرب والعشاء تربع ابا العربى فى صدر الغرفة الصغيرة ليحضر بنفسه على مصطفى وهو يعجن الحلوى بيديه ليشهد بذلك امام الباشا . ولم يكن يسمح لعبلة بالتدخل الا بالنصيحة .

واخيرا توقف مصطفى لينظر فخورا الى الصينية وقد صفت عليها الحلوى مقطعة بقوالب مختلفة الاشكال . وهنأه الجميع .

وعادت الحلوى من الفرن ، وجلس الجماعة ينظرون اليها باعجاب كأنها عمل فنى عظيم . وعلق مصطفى فرحا :

ـ اعتقد اننى نفذت كل طلبات الباشا .

وحمل الصينية الى دار اليهودية راحيل وكأنه ذاهب الى امتحان يعرف مسبقا انه ناجح فيه .

وكم كانت صدمته قاسية حين انفتح الباب ، وأطل وجه راحيل المجعد . فما كادت تنظر اليه حتى زاد وجهها تجعدا وعبوسا .

ولم تكلف نفسها حتى عناء النظر الى الحلوى التى كانت ثمرة كفاح طويل عامر بالالم والياس والارهاق . فقد اوصدت الباب فى وجهه قائلة:

ـ لا تعجبنى .
وركبه عفريته القديم ، وعاد اليه جنونه ، وبدأ يرتعش من النرفزة والانفعال وأخذ يتراجع للوراء ليدخل فى الباب برأسه وينقض على راحيل .

ولم تكد محركاته تدور الى الامام حتى أحس بيد حديدية تمسك بقبه من الخلف لتكسر انطلاقته وتكبح جماحه . وكاد عنق الجلباب يخنقه لقوة اندفاعه فجحظت عيناه واحمر وجهه . ولم تبق في مخه فكرة غير الانقضاض على صاحب اليد التي امسكت بقبه وتمزيقه اربا ، وكنس بقاياه الى البالوعة .

وما كاد يرى صاحبه حتى تغير رأيه . كان ابا العربي المكرط يقف خلفه كصخرة جبل طارق ممسكا بقبه ، فقال :

ـ الحمد لله على مجيئي . والا كنت فعت بنفسك ما لا تحمد عقباه.. تعال . .

وأطبق قبضته الشهيرة على كوعه وذهبا.. مصطفى يحمل الصينية على يده ويفكر في مصيره بعد الصدمة الجبارة التي كالتها له اليهودية راحيل .

وجاءه صوت ابا العربي :

ـ ياولدي ، الاحسن لك ان تتعلم التفكير قبل العمل ، وتنظر بعيدا حتى تقصر الطريق الى غاياتك ، ولو بقيت هكذا كالعنزة الحمقاء فسيكون مصيرك المجزرة .

ورد مصطفى باكيا بقهر :

ـ ولكن ماذا افعل ؟ بعد كل المتاعب التي احتملها والاهانات والحبس وكل شيء تقول لي الكافرة بالله ان الحلوى لا تعجبها .

ـ يصح أنها لم تعجبها
ـ ولكنها لم تلق عليها حتى نظرة عابرة ، كانت تنظر الى طول الوقت بتشفي وحقد .
ـ لا تنس أنها ترد لك عملتك القديمة .
وأنشد ضاحكا : اللعبات والقلبات . واشنو واشنوا ؟

وانسجم في قهقهة بطيئة كانت تهز أطرافه المكتنزة :

ـ اليهود لا ينسون . ولا يغفرون !

وأراحت نفس مصطفى صورة الصينية وهي طائرة من يد اليهودية وكانه يتمنى لو تعود الكرة مرة اخرى .

وجلس مصطفى وسط عائلة ابا العربي التي احتضنته الآن وتبنت مشكلتــه بايحـاء خفــي مــن علبة التــي عطفــت نفسهــا عليه . وسكــت الجميع وهم ينظرون الى صينية الحلوى . وقضمت الأم من قطعة لتذوق طعمها ففوجئت بجودتها . فقالت :

ـ اسمع يامصطفى ، ماذا لو اشترينا منك هذه الحلوى . واعطيناك دقيقا آخر وما يتبعه لعجن حلوى اخرى قد ترضى اليهودية .

ـ ولكنني لا اعرف نوعا آخر ، وهي تريد هذا النوع بالــذات ، ثــم انها لم تنظر اليها حتى . في نيتها فقط ان تعذبني . أنا متأكد..

وتدخل ابا العربي :

ـ ومع ذلك فلا بد من المحاولة مرة إخرى ، وسأذهب معك هــذه المرة عندها لاتأكد من انها ستتذوقها قبل ان ترفض .

وقبل مصطفى على مضض . ولكن ابتسامة حلوة من ثغر عبلة لــم تلبث ان اشاعت الدفء والحبور في نفسه ، وأنسته غضبــه الــذى لــم ينفجر .

وبات تلك الليلة في غرفة حبسه يحلم مستيقظا بعبلة ومفاتنها التي بدأت تهدد حرية قلبه ، وتصقل طبعه من بدائيته ، كان يحس انه يتحول الى مخلوق آخر .

وفي الصباح جاء ابوه لزيارته بمجرد وصوله من المناورات الحربية التي أبعدته عن عائلته عدة ايام . دخل عليه في حلته العسكرية ووقــف ينظر اليه وهو قاعد على الكرسي الخشبــي . وبمجــرد ما وقعــت عيــن مصطفى على والده اجهش بالبكاء لسبب لا يعرفه . فلم يملك القايد الا ان

يقترب من ابنه ويربث على خده ورأسه مواسيا ، وبعد بضع دقائق جاءت اخته بفطوره فتركهما وخرج ليرى الباشا .

وحين عاد من عنده قال لمصطفى بحزم :

ـ بعد جهد جهيد استطعت اقناع الباشا بخروجك من الحبس وذهابك الى البيت للنوم بالليل فقط . اما موضوع حلوى اليهودية فانا موافق مع الباشا فى رأيه ، وعليك ان تضع نفسك كل صباح تحت امر ابا العربى حتى تصفى حسابك معها .

وخـــــرج .

ودخل بعده ابا العربى المعكرط فأشار لمصطفى براسه ان يذهب الى داره . وفهم مصطفى فقام يلف لحافه ويربطه ويسلمه لاختـه ، ثـم خرج يعدو نحو دار ابا العربى حيث كانت عبلـة فـى انتظـاره بجميـع أدوات العجين .

ولم يجد صعوبة هذه المرة فى تتبع الخطوات الاساسية والمقاييس المطلوبة لصنع (البسكوتشو) كما كانت تلك الحلوى تسمى ..

وفى الظهر عاد مصطفى بالصينية من الفرن ، وعرضها على عبلـــة وأمها فأعجبا بها ، وعلقت الام بأنها احسن من الاولى .

وحين عاد ابا العربى عاين الصينية وشـم رائحـة الحلوى وأشـار لمصطفى براسه ان يحملها ويتبعه . وخرجت خلفهما عبلة لا تدرى اتدعو له بالنجاح وهو نهاية عهدها به وبفرص التواجد الى جانبه ، ام بالفشل الذى سيكسر قلبه . ووقفت تنظر الى الصينية بشعور محايد .

وطرق ابا العربى بنفسه باب دار رحيل ففتحت وخرجت مرحبة به.

وما كاد تترى مصطفى حتى اكفهر وجهها وعبست ، ودخل ابـا العربى الى وسط الدار وأشار إلى مصطفى ان يتبعه بالصينية ففعل وهو يتفادى نظرة اليهودية الحاقدة ، وقال :

ـ راحيل ، لعل الحلوى التى صنع لك مصطفى بالامس لم تكن كما

يجب ، أما الآن فاعتقد انها كما تحبين وترضين ، وما عليك الا ان تذوقيها .

وتقدمت راحيل نحو الصينية والاشمئزاز باد على وجهها ، فاستأنف ابا العربي :
ـ مصطفى ولد القايد ندم كثيرا على ما فعله بصينيتك ، وهو يتعهد الا يعود ابدا الى عمل ذلك ، اليس كذلك يامصطفى ؟

وحرك مصطفى رأسه كارها وهو ينظر الى الارض، ويظهر ان راحيل لم تسمع شيئا من ذلك ، فقد كانت تقترب من الصينية كاليهودى المرغم على دخول الجامع .

وفي النهاية مدت يدا ممروقة نحو الصينية فالتقطت قطعة ورفعتها نحو فمها . وبصعوبة بليغة قضمت منها قضمة صغيرة وعادت الى بصقها على الارض حالا .

ـ لا لا لا . ليست هذه حلوتي .

وتدخل ابا العربي :
ـ طبعا ليست حلوتك . ولن تكون في مثل لذتها وحسن طعمها . ولكنها محاولة ولد لم يدخل المطبخ قط في حياته . فكيف تقارنينه بك؟

فرفعت يدها لاغية جدله :
ـ انت تذكر جيدا ما قاله الباشا يا ابا العربي . لا بد للحلوى ان ترضيني ، وهذه لا ترضيني والسلام .

فاشار ابا العربي لمصطفى ان يحمل صينيته وخرجا ..
وما كاد يبتعد عن مرمى مسمع راحيل حتى علق :
ـ أرأيت يابني كيف حكمت في رقبتك يهودية عجوزا شمطاء لا تحمل في قلبها للمسلمين الا الكراهية والمقت . لماذا ؟
واجهش مصطفى باكيا من الكبت والقهر . والقى في روعه انه سيعيش عبدا لليهودية الحاقدة طول حياته .

وسمح لـ ابا العربى ذلك المساء ان يذهب الى اهله مبكرا

وفي الصباح كان يقف بقفته على بـاب دار ابا العربى لتستقبلـه عبلة بفرح صبيانى منعش .

وفي ذلك الظهر عاد مرة اخرى يجر ذيول الخيبة من دار اليهودية وثار ابا العربى وصاح :

ـ خلاص ! هذه آخر مرة ـ سأخبر الباشا .

وأحس مصطفى بقوة مركزه لانتصار ابا العربى له بهذا الحماس . ولكنه حين عاد من المحكمة في المساء كان اكثر فلسفة مما ذهب. فانتحى بمصطفى جانبا ، وقال له :

ـ الباشا ما يزال مصرا على رايه رغم تدخلى لديه ، فما علينا الا أن نعيد الكرة .

وفي ذلك المساء اقترح عليه اخوه الاصغر بيـع الحلوى امام باب السينما . وبعد تردد قبل الفكرة .

وما كاد يـدور بصينيته امام السينمـا حتـى اجتمـع عليه رفاقه يشترون منه ويداعبونه ، وفوجيء بحماسهم لشراء حلواه لاعتقادهم انـه شهيد مظلوم على يد اليهودية .

وفرغت الصينية بسرعة ، وجلس مصطفى مع اخيه الصغير يحسب فلوسه فاذا هى ضعف ما صرفه على مـواد الحلـوى ، فتحمـس كثيـرا لاكتشافه التجارى العظيم .

وأصبح رفض اليهودية لحلواه عملية روتينية لم يعد مصطفى يحفل له او يتأثر به .

ولم تعد تكفيه صينية واحدة . فبدأ يعجن اثنتين ويقتسم ارباحـه مع عبلة التى تحمست لحماسه بهوايته الجديدة ، وتضاعفـت الارباح ، فبدأ مصطفى يفكر فى فتح مقصف متحرك .

وفكر في ان يقاطع روتينه مع راحيل بشيء يزعجها ، فطرق بابها وسمعها تقف خلفه كعادتها وتسأل :

ـ من ؟
ـ مصطفى ولد القايد .
ـ لاتعجبني حلواك . اذهب .
ـ لم آتك بحلوى اليوم
ـ فماذا تريد ؟
ـ اريد فقط ان اشكرك .

وسكتت اليهودية لتحسب حساب عربي بدأ يتكلم لغة قومها ، وسمعها ترفع رتاج الباب وتواربه لتحملق فيه بعين واحدة محاولة كشف خدعته الجديدة .

ـ ماذا قلت ؟
ـ قلت جئت لاشكرك .
ـ علي ماذا ؟
ـ على انك علمتني درسا مهما في صنع الحلوى . لولا تلك الصدفة التعسة او السعيدة لا ادري ، التي جمعت بيننا لكنت اضعت صيفي هذا في اللعب وارتكاب الموبقات ، ولكن الآن وبعد ان تعلمت صنع الحلوى بدأت ابيعها في السوق وأربح مبالغ لا بأس في كل يوم . حتى أنني فكرت في فتح دكان لبيع الحلوى ، لذلك جئت اشكرك .

ـ هل تضحك علي ؟

قالتها بتردد وارتياب من لا يعرف ما يقول . من فوجيء بغير ما كان يتوقع . .

ـ لماذا اضحك عليك ، اخرجي اذا شئت لترى بعينيك كيف يقبل الناس على حلواي إمام باب السينما .

فأخرج من جيبه محفظة ملآنة اوراقا مالية :

ـ انت كذاب !
ـ انظري . اصبحت اربح اكثر مما يربح ابي وهو ضابط في الجيش .

وأقفل المحفظة وأدخلها في جيبه ولوح بيديه :

ـ مع السلامة . سأمر عليك بصينية الحلوى حين تخرج من الفرن لتقولي لي للمرة الثمانين انها لا تعجبك لاذهب لبيعها ، اصبحت بالنسبة لي كطبيب الكرنة ـ المذبح ـ لابد ان يطبع اللحم قبل ان تباع !

وانصرف . .

وما كاد يلوى على الشارع حتى سمع صوتها من خلفه :

ـ آهيا ، آالولد ، أجي .

فالتفت :

ـ أنـا ؟

ـ نعم ، انت . . تعال !

فعاد اليها على مهل حتى وقف على بابها فقالت :

ـ ادخـل . .

ـ لا . .

ـ اريد ان اتكلم معك . .

ـ نتكلم هنا ..

ـ اسمع ، لقد فكرت في شيء فيه ربح لكلينا

ـ ما هو ؟

ـ ان نشترك ، ونصنع الحلوى معا ، وتبيعها انت . .

ـ أنا أعرف كيف أصنع الحلوى ..

ـ تعرف كيف تصنع نوعا واحدا ، وسأعلمك صنع اصناف اخرى شهية ، تقوم انت ببيعها ونقتسم رأس المال والارباح .

ـ لا . .

ـ ترفض الربح ؟

ـ أنا أربح ، انت التي تريدين اقتسامه معى . .

ـ اسمع ، اذا قبلت ، تنازلت عن دعواى عند الباشا ضدك.

ومط مصطفى شفتيه مفكرا ثم دار على ورزه حـول نفسـه وهـى تنتظر قراره بوجه متوسل ، وحاجبين مرفوعين الى اعلى . . وأخيرا قال:

ـ لم يعد يهمنى تنازلك .
ـ كيف ؟
ـ فى الحقيقة قد ياتى بنتيجة عكسية !
ـ ماذا تعني ؟
ـ الناس يشترون حلواى لانى مظلوم وواقع فى قبضتك . يريدون تسليتي وتعويضي عن حرماني من حرية الصيف بشراء حلواى .
ـ هراء وكلام فارغ ، الناس لا يعطفون على احد ، ولا يرثون لحال احد . .
ـ غلط ، اليهود فقط . . المسلمون رقاق القلوب
ـ ترفض الآن عفوى ؟!
ـ لا .. ارفض الخسارة فى تجارتى
ـ اسمع يامغفل . اؤكد لك انك سترتبح اكثر !
ـ طيب ... لا ادرى ، ولكن من اجل خاطر اهلى سأقبل عفوك وتبرئتك لى امام الباشا ، وسأفكر فى موضوع الشركة . .

ـ أنا الاخرى ندمت على قسوتى عليك طوال هذه المدة ، وحرمانك من عطلتك المدرسية ، ولكن ، كما قلت انت بنفسك ، كان فيها خير ! أليس كذلك ؟

وبدأت تضحك متملقة ضحكة منه ، فانفرجت أساريره عن ابتسامة فسارعت هي لتقول :

ـ انتظر حتى أخرج شالى لاذهب معك الى دار الباشا .

الرباط　　　　　　احمد عبد السلام البقالى

مشرق ومغرب

مقبولة الحلي

تصــر على الذنب اذ تذنــب   وتحسب ان الجفــا مهــرب

الى اين ـ يا من جنيت ـ المفر   وبين ضلوعى الاسى المرعب

اتحسبنى ارتضى بالهــوان   ويعبث بــى قلبــك القلــب

وتسحرنى بالكلام الجميـــل   ويخدعنى بــرقــك الخلــب

وتشمث بى اذ ترانى اهيــم   بعينـــيك وهى التى تكـذب

* * *

تصــر على الذنب يــا سيدى وتحســب انى مــن يعتــب

ولــم تدران بقلــبى الكــلوم ستفــتح فاهــا اذا يغضــب

وتقــذف بالنــار واللافحات ويكويك منهــا اللظى المرهب

وتثــأر لى ولقلبــى الجريح وتقصيك عنــى ولا ترهــب

فامضى الى مشرقى فى الحياة ويطويــك عن شمسى المغرب

بــغــداد **مقبــولة الحلى**

المغرب والمؤتمر الثالث لهيئة الأمم
حول قانون البحر

ادريس الضحاك

تمهيــــــد للموضـــــوع

1) اهمية البحر كمصدر ثروة :

بتقدم الوسائل التقنية وزيادة عدد سكان الكرة الارضية امكن للانسان ان يستغل جميع اقسام اليابسة مستخرجا من جوفها كل مابها من خيرات ومعادن حتى اصبح الخوف يسيطر على هذا الانسان الذى ينمو عدده بشكل مدهش من ان تنفذ خيرات هذه اليابسة ومعادنها ، ولذلك اتجه للبحث فى باطن البحار وفي مياهه عن مصدر الغـذاء ومصـدر المعـادن والخيـرات الاخـــرى .

وقد ثبت لحد الآن ان هذه البحار التى تمثل 71 ٪ من مجموع مساحة الكرة الارضية تضم فى اجوافها ثروات حية ومعدنية تكفـــي الانسانيـة لآلاف السنين بل احيانا لمآت آلاف السنين فحسب المعيار الاستهلاكـي

لسنة 1960 يوجد فى جوف البحر وعلى الخصوص بحر الباسفيك ما يكفي الانسانية من المنغنيز لمدة 400.000 سنة فى حين يوجد فى اليابسة منه ما يكفيها فقط لمدة مائة سنة ، ومن الكوبلط مايكفيها لمدة 200.000 سنة فى حين سينفذ فى اليابسة بعد 40 سنة . (1)

ومن احصائيات الامم المتحدة يتضح انه باستثناء البترول والغاز فان باقي المعادن فى جوف البحر لم تستغل بعد اذ أن الانتاج العالمي للثروات المعدنية للبحر سنة 1969 بلغ 7.100 مليون دولار 90 ٪ تقريبا يرجـــع لاستخراج البترول اى 6.100 مليون دولار والباقــي الــف مليــون دولار للمعادن الاخرى ، وقد تضاعف استخراج البترول من جوف البحار ســت مرات منذ 1960 بحيث ما ان تحل سنة 1980 حتى يكون هذا الانتاج اصبح يمثل 35٪ من الانتاج العالمي . والامر المدهش فى ثروات البحر المعدنيــة ان نواة هذه الثروات تتجدد فيها المواد المعدنية بصورة تلقائية كلما استعمل قسط منهـــا .

وبالاضافة الى كل ما سلف فقد استعمل الانسان البحر ليس فقط وسيلة نقل او مصدر تغذية وانما ايضا خزانا لفضلاته وسهل عليه النقل وجدد له الغذاء المستهلك (استخرجت الانسانية من الاسماك سنة 1914 حوالي عشرة مليون طن فى حين استخرجت سنة 1969 منها 63،1 مليون طن وستستخرج سنة 1975 ـ 74 مليون طن) (2) .

وعمل البحر بسبب تركيبه الكيميائي على تنظيف نفسه كلما القيت به فضلات الانسان وذلك بواسطة عملية تصفية ذاتية ، لكن لكل ذلــك حــدود فالبرغم عما ذكر قد يعجز الماء عن التصفية لان الفضلات اصبحت اكثـــر

(1) وهكذا بالنسبة لمعادن اخرى كالالومنيوم 20.000 سنة مقابل مائة سنةفى اليابسة والحديد 2.000 سنة مقابــل 500 ســنــة والرصاص 1.000 سنة مقابل 40 سنة والزنك 1.000 سنة مقابل مائة سنة والنيكل 150.000 سنة مقابل 100 سنة ، وقــد ثبــت حســب الوضعية الحالية ان هذه المعادن تتكون فى جوف البحر بمعدل 100 مليون طــن فى الســنة اى اكثر مما يمكن استغلاله سنويا فى الوقت الحالي .

(2) منظمة التغذية « الاحصائيــة السنويــة للصيــد » المجلــد 29 .

من طاقاته وهكذا يؤدى سوء استغلال البحار الى الاضرار بثرواته الحية والمعدنية .

ولذلك كان لابد من تنظيم استعمال الانسان لهذه البحار وكذا استغلال ثرواتها وتوزيعها بشكل عادل بين الامم وهذا يتطلب تنظيما دقيقا وخلقا لقواعد ترتبط بها جميع الدول اى خلق ما يسمى بقانون البحر وهذه هي مهمة المؤتمر الثالث لهيئة الامم حول قانون البحر الذى انعقدت دوراته الثلاث فى كل من نيويورك كراكاس وجنيف .

2) المؤتمر الاول والثاني :

وللحديث عن المؤتمر الحالي لابد من الرجوع بصورة وجيزة للمؤتمرين الاول والثاني لارتباطه بهما .

ا) مؤتمر جنيف لسنة 1958 :

وكان اول مؤتمر عقد لدراسة مايسمى حاليا بقانون البحر هو مؤتمر جنيف لسنة 1958 الذي تمخضت عنه خمس اتفاقيات كانت النواة الاولى لقواعد هذا القانون ، وهذه الاتفاقيات التى وافق عليها اكثر من نصف دول العالم هي :

1) اتفاقية حول المياه الاقليمية والمنطقة المجاورة ، ورغم ان هذه الاتفاقية لم تحدد مدى عرض هذه المياه فانها عرفتها بانها المياه التي تلي مباشرة الشواطىء ، وتبسط الدولة الشاطئية سيادتها على هذه المياه وما تحتها من تراب وما فوقها من اجواء ، ولا يمكنها ان تمنع حق مرور سفن البلاد الاخرى متى كان هذا المرور بريئا ولا يعرض السلم والنظام وامن الدولة الشاطئية للضرر وتمارس هذه الدولة فى المنطقة المسماة بالملاصقة التي تمتد فى عرض اثنى عشر ميلا من الخط الشاطئى حق المراقبة الضرورية لمنع المخالفات المتعلقة بالانظمة الجمركية والمالية .

ونظرا لعدم التنصيص على حدود المياه الاقليمية اتخذت الدول بواسطة تشريعاتها الوطنية قواعد فردية حددت بها مياهها الاقليمية طبق ما تمليه عليها مصالحها الوطنية وهكذا اختلفت هذه الحدود فى دول العالم وتراوحت بين 3 أميال ومائتين ميلا . وادى ذلك الى ظهور مشاكل بين كثير من الدول المجاورة لامجال للحديث عنها .

2) اتفاقية حول اعالي البحار : وهى المنطقة او المناطق التي لا تشملها المياه الداخلية او الاقليمية ، ويجوز لجميع الدول ان تستعمل هذه المنطقة دون استثناء ، وحتى تستطيع الدول المنعدمة الشاطىء استعمال هذا الحق يجب ان تمنح حق المرور الى هذه المنطقة ، والملاحة بها حرة وكذا الفضاء الواقع فوقها ويجب على جميع الدول ان تتعاون مع بعضها قصد المحافظة على سلامة وامن هذه المنطقة وعلى الخصوص فى مكافحة تلوث المياه الناتج عن استعمال او استغلال هذه المنطقة من البحار .

3) اتفاقية حول الصيد والمحافظة على الثروات الحية بمنطقة اعالي البحار ، وذلك باتخاذ التنظيمات الضرورية لتحسين ايراد الثروات ، واذا كان من حق كل دولة ان تستغل هذه المنطقة سواء بنفسها او بواسطة مواطنيها فى استخراج الثروات الحية من باطنها فان من حقها ومن واجبها ايضا ان تتخذ الوسائل الضرورية للمحافظة على هذه الثروات الحية .

4) اتفاقية حول الافريز القارى او الجرف القارى وهو الامتداد الطبيعي الخاص بالدولة الشاطئية داخل المياه المجاورة للشاطىء ولغاية تجاوز المياه الاقليمية بعمق مائتين مترا او تجاوز هذا الحد بحيث يسمح عمق المياه باستغلال الموارد الطبيعية لهذه المنطقة كما يعني نفس التربة والحوض القريبة من سواحل الجزر ، وللدولة الشاطئية استغلال ثروات هذا الجرف القارى الطبيعية ، ورغم حق سيادة هذه الدولة فى الاستغلال فان ذلك لا يغير من الوضعية القانونية للقطع من الجرف الواقعة فى اعالي البحار او الفضاء الواقع فوقها .

5) البرتوكول الملحق ويتعلق باختصاص محكمة العدل الدولية فى كل ما يتصل بتفسير وتطبيق كل الاتفاقيات السالفة المكونة لقانون البحر .

وبالرغم من هذه الاتفاقيات فان مسالة شائكة ظلت دون حل بهـذا المؤتمر الا وهى تحديد عرض المياه الاقليمية نظرا لما اثارته مـن صعوبات كانت تهدد نجاح المؤتمر ، ولذلك اجريت المحاولة الثانية وذلك فى استدعاء مؤتمر جديد لهذه الغاية .

ب) مؤتمر جنيف الثانى لسنة 1960 :

وكان هدف هذا المؤتمر كما سلف هو تحديد عرض المياه الاقليمية وكذا تحديد منطقة الصيد البحرى ونظرا لتضارب المصالح فى مثل هـذا التحديد فقد اسفر المؤتمر عن نتيجة سلبية فى الموضوع بحيث لم يتخـذ اى حـل .

وبعد هذين المؤتمرين برزت فـى العالم مظاهـر جديـدة دفعـت الانسانيـة الى التفكير جديا فى وضع حد لهذا التضارب الـذى يعيشـه العالم بالنسبة لاستعمال واستغلال البحر .

فحصول كثير من الدول على استقلالها ، وتوسيع بعض الدول مياههـا الاقليمية لغاية 200 ميلا ، وسرعة التطور العلمي لاستغلال ثروات البحار ، واحتياج كثير من الدول لثرواتها الموجودة فى اجواف شواطئها ، واكتشاف الثروات الضخمة التي يطويها البحر والتي اصبحت حاجة العالم تطـل عليها ، وتهديد كثير من المواد المضرة لسلامة البحار وثرواتها ، كل هذه العوامل عجلت بصورة اكثر نحو ضرورة عقد مؤتمر ثالث يعمل على التوفيق بين رغبات الدول المختلفة فى استغلال البحر وثرواته وذلك بخلق قواعـد توافق عليها جميع الدول او اغلبهـا .

ب ـ المـؤتمـر الثـالـث :

1) بدايـة الفكـرة

بملتمس هيئة الامم رقم XXV 2750 C الذى جـرت الموافقـة عليه بتاريخ 17 ديسمبر 1970 قررت الجمعية العامة استدعاء الدول لعقـد

المؤتمر الثالث لهيئة الامم حول قانون البحر ، وقد افتتح هذا المؤتمر فعلا في شهر ديسمبر 1973 وكانت ثاني حلقاته بمدينة كراكاس بفنزويلا ما بين 20 يونيو و29 غشت 1974 وثالثها بمدينة جنيف في شهري ماي وابريل 1975 .

وقبل ان يتقرر هذا الاستدعاء ويعقد المؤتمر ، صدرت البادرة باثارة الانتباه الى ضرورة دراسة احد موضوعاته المتعلقة باعماق البحار من السيد ارفيد باردو PARDO السفير الممثل لدولة مالطا حيث طالب في الجمعية العامة لهيئة الامم سنة 1967 بضرورة تنظيم كيفية استعمال هذه الاعماق دوليا وبضمان استغلالها بصورة سلمية ولمصلحة الانسانية جمعاء ، واذا كان السيد باردو اول من طالب بذلك على صعيد هيئة الامم وآثار الانتباه الى ان هذه المناطق في ملك الانسانية جمعاء فان مسؤولين آخرين سبقت لهم الاشارة الى ذلك كرئيس الولايات المتحدة الامريكية الذي صرح في شهر يوليوز 1966 بان اعماق البحار والمحيطات كانت ولازالت لكل الجنس البشـرى .

وحتى لا تصبح هذه المناطق الخارجة عن الحدود الوطنية لجميع الدول محط نزاع بين هذه الدول خصوصا المتقدمة تقنيا لتوفرها على وسائل الاستغلال الضرورية ، وحتى لا تستغل ثروات البحار الضخمة لصالح دول دون اخرى ويؤدى ذلك بالتالي الى ضرورة حماية هذا الاستغلال بواسطة تسليح هذه المناطق وانشاء المراكز العسكرية بها ، عبر الاعضاء عن رغبتهم في انشاء نظام دولي لاستغلال هذه المناطق ، وهكذا كونت في نفس السنة لجنة تضم 35 دولة لدراسة الموضوع حيث تمخضت عنها لجنة الاستخدام السلمي لاعماق البحار والمحيطات واحواضها خارج نطاق السلطة الوطنية تلك اللجنة التي كانت تضم في البداية 42 دولة واصبحت تضم بعد ذلك 91 دولة وقد اجتمعت هذه اللجنة التي سميت بعد ذلك بلجنة اعماق البحار عـدة مرات في مـدة خمس سنوات اى لغاية سنة 1973 حيث قررت الجمعية العامة فسخها لترث اعمالها اللجنة التحضيرية للمؤتمر الثالث .

وكان اهم مبدا توصلت له هذه اللجنة هو تصريح 1970 حول المبادىء المتعلقة باعماق البحار والمحيطات (ملتمس 2749 XXV الموافق عليه بتاريخ 17 ديسمبر 1970 ذلك التصريح الذى يقرر ان المنطقة تراث مشترك للانسانية جمعاء ، وانها غير قابلة للتملك او الحيازة لاية دولة او اى شخص طبيعي او معنوى آخر ولا لمباشرة اى نوع آخر من الحقوق العينية او وضع اليد ولا يمكن الحصول لاى حق عليها او مباشرته الا اذا كان غير متعارض مع النظام الدولي المقرر لها ، وبالاضافة الى المبدا المذكور فلن لجنة اعماق البحار هيات بعض مشاريع النصوص التي اتفق عليها كل او بعض اعضائها وقدمتها للمؤتمر قصد دراستها .

وهكذا وبالرغم من تشعب المواضيع المقترح دراستها من طرف المؤتمر فانه يمكن القول كما كتبه السيد امراسينكى رئيس المؤتمر أن موضوعه ينحصر فى قسمين كبيرين :

اولا : انشاء قواعد جديدة فى شكل اتفاقية لوضع نظام دولي لمنطقة اعماق البحار والمحيطات

ثانيا : دراسة ومراجعة قانون البحر الموجود حاليا .

ويقصد بالقسم الاول خلق قواعد قانونية جديدة تضاف لقانون البحر الحالي لان الاتفاقيتين السالفتين لم تعالجا موضوع استعمال المنطقة الخارجة عن الحدود الوطنية للدول، ويقصد بالقسم الثاني دراسة ومراجعة القواعد الحالية المنصوص عليها فى الاتفاقيتين السالفتين سواء تلك التي اصبحت نظرا للحقائق الجديدة للعالم الحالي تحتاج الى اعادة صياغة او تلك التى لم تعالج بصورة كاملة المواضيع التي تطرقت اليها وبالتالي تحتاج الى تكميلها كما هو الشان فى ذكر المياه الاقليمية دون تحديدها .

اذ الجدير بالتذكير ان مبداي حرية البحار وسيادة الدول الشاطئية على جزء منها (المياه الاقليمية) كانا موجودين قبل الاتفاقيتين وظلا بعدهما وان القصد من وجود المبداين لم يكن سوى ضمان حرية البحار للدول الاروبية لتتمكن من الاستمرار فى سيطرتها على المناطق التابعة لها او

المستغلة من طرفها وبعد استقلال كثير من هذه المناطق لـــم يعـد البحر حاملا لنفس الاهمية السابقة خصوصا كوسيلة نقل بل اتجهت الافكار الــى استغلاله وإذا لم تحلول الاتفاقيات التنصيص على كيفية استغـلال المنطقـة الحرة الخارجة عن الحدود الوطنية للدول لانه لم يكن فى ذلك الوقت ممكنا تقنيا استغلال البحار ذات عمق معين فانه اليوم وبعد ان اصبح ذلك ممكنـا خصوصا بيد الدول المتصنعة أضحت الحاجة ماسة اكثر مما مضى الــى تنظيم هذا الاستغلال ، او كما قال كورط فالدهايم الامين العام للامم المتحدة للجنة أعماق البحار عند تسليمها أعمال اللجنة التحضيرية يجـب خلــق قوانين لتنحية جميع الصعاب التي تعترض الاستعمال العادي للمحيطات والمحافظة على المحيط البحري ضد ما يهدده لانــه لا يتوقف عليه فقط جزء من تغذيتنا وانما ايضا الهواء الذى نستنشقه ويقصد بالجملة الاخيرة العلاقة الموجودة بين الهواء الذى نستنشقه فى اليابسة وتلوث المياه فــى البحــار .

ب) اهم مواضيع المؤتمــر :

وأهم المواضيع التي التمست لجنة اعماق البحار سنــة 1972 من المؤتمر دراستها (جلسة (XXVII) الملحق رقم 721 وثيقـة أ ـ 8271 صفحات 5 ـ 8) هي :

1) تحديد عرض المياه الاقليمية

2) المضايق المستعملة للملاحة الدولية

3) الافريز الاقليمى او الجرف القارى ، حدوده وطبيعته وحقــوق وواجبات الدول الشاطئية تجاهه

4) مفهوم المنطقة الاقتصادية المتعلقة بالمياه الاقليمية بما فيهـا منطقة الصيد والحقوق الممتازة للدول الشاطئية تجاهها .

5) مفاهيم السيادة التى يمكن ان تباشرها الدول الشاطئية فــى مناطق تلى مباشرة مياهها الاقليمية حول الثروات البحرية الموجودة بها .

6) حرية اعالي البحار

7) مشاكل مجموعات الدول ذات المصالح الخاصة كمجموعة دول البحر الابيض المتوسط .

8) المحافظة على المحيط البحرى وعلى الخصوص من التلوث .

9) البحث العلمي وتنمية وتبادل المعارف التقنلوجية

10) الاستعمال السلمي لمناطق المحيطات

ونظرا لتشعب هذه المواضيع ودقتها فقد تقرر انشاء ثلاث لجان بالمؤتمر وبكل لجنة تنشأ مجموعات كل منها تختص بدراسة موضوع معين وهكذا قسم المؤتمر الى ثلاث لجان .

اللجنة الاولى : وعمل هذه اللجنة هو خلق مشاريع نصوص قانونية تتعلق بالنظام الدولى لاعماق البحار والمحيطات خارج الحدود الوطنية للدول كطبيعة هذه المنطقة وحدودها وكيفية استغلالها وكيفية توزيع منافعها على جميع الدول وعلى الخصوص تلك السائرة منها فى طريق النمو شاطئية كانت او غير شاطئية وماهية السلطة الدولية التي ستتولى استغلالها او مراقبة استغلالها اذ سبق القول ان هذه المنطقة بمقتضى تصريح 1970 اصبحت ملكا مشاعا للانسانية جمعاء .

اللجنة الثانية : وتختص هذه اللجنة بمراجعة النصوص الموجودة وخلق القواعد والمبادىء الجديدة لقانون البحر والمتعلقة على الخصوص :

- بالبحر الاقليمي كخصائصه وطبيعته وحدوده وحرية الملاحة جوا وبحرا به والاجتياز البرىء الى غير ذلك من المواضيع المتعلقة به .

- بالمنطقة الاقتصادية خارج البحر الاقليمى كخصائصها وطبيعتها وحدودها ومدى حرية الملاحة بها ومدى حقوق الدولة الشاطئية عليها خصوصا بالنسبة لاستغلال ثرواتها والمحافظة على بيئتها ومكافحة التلوث بها ومراقبتها وعلى الخصوص مراقبة البحث العلمي بها الى غير ذلك من المواضيع المتعلقة بها .

ـ بالافريز الاقليمي،طبيعته وماهيته، حقوق واجبات الدول الشاطئية تجاهه الخ ...

ـ بالمضايق المستعملة للملاحة الدولية ، الحقوق المتعلقة بها على الخصوص (حق الاجتياز او الاجتياز البرىء) .

ـ بنظام الجزر او الدول المكونة من جزر وارخبيلات وكذا الجزر الاصطناعية والتجهيزات الاخرى كالموانىء والمطارات العائمة .

ـ بالدول الداخلية المحرومة من الشواطىء ، حقوق هذه الدول ومصالحها فى استعمال البحار والمحيطات واستغلالها ، حرية مرورها الى البحر ، حرية استعمالها البحار للاجتياز الى المناطق الدولية ، مشاركتها فى استغلال هذه المناطق او الانتفاع بخيراتها ، وحقوقها وواجباتها تجاه المناطق الاقتصادية وكذا تجاه باقي الدول الشاطئية .

ـ بالبحار المقفلة او شبه المقفلة

ـ باستعمال المناطق الحرة لغايات سلمية وبمناطق السلم والامن الى غير ذلك من المواضيع المهمة ذات الطابع العام اذ تعتبر هذه اللجنة ذات الولاية العامة فما لا يعالج من طرف اللجنتين الاولى والثالثة يعتبر من اختصاص اللجنة الثانية .

اللجنة الثالثة : وتختص هذه اللجنة بمعالجة ثلاث مواضيع :

أ) المحافظة على البيئة البحرية

ب) البحث العلمي البحري

جـ) تطوير ونقل التقنية البحرية

ج) مواقف سابقة تجب مراعاتها :

وبالاضافة الى مؤتمرى جنيف لسنتى 1958 ، 1960 اللذين ستقع مراجعة الاتفاقيات الناتجة عنهما فى المؤتمر الثالث فان هناك مواقف دولية او اقليمية اخرى يجب على المؤتمرين مراعاتها عند اقتراح القواعد القانونية الجديدة واهم هذه المواقف مايلي :

1) زيادة على مبدأ ملكية اعماق البحار والمحيطات وما فوقهـــا والواقعة خارج الحدود الوطنية الى الانسانية جمعاء والمقرر فـى الملتمس رقم 2749 (XXV) كما سبق ذكره فان هناك ملتمسا آخر للجمعيـــة العامة تحت رقم 2574 د يقضي بانه الى ان ينشأ النظام الدولي لهذه المناطق فانه يجب على الدول والاشخاص الطبيعية والمعنوية الاخرى الا تقوم بـأى نشاط لاستغلال ثروات هذه المناطق ولا يقع الاعتراف باية مطالبة لثروة اى جزء فى هذه المناطق .

2) ان اهم مشكل يعترض الآن المؤتمر الثالث هو ذلك المتعلـــق بالمنطقة الاقتصادية وبالتراث البحرى .

فبالنسبة لهذا المشكل بالذات سبق ان اتخذت مواقف قبل عقد المؤتمر وهى الصادرة فى الوثائق الآتية :

أ) تصريح سانطو دومنكو لدول بحر الكريبي حول مشاكل البحار وذلك فى شهر يونيو 1972 .

ب) ملخصات التقرير العام للحلقة الاقليمية للدول الافريقية حول قانون البحر بياوندى في شهر يونيو 1972 .

ج) تصريح ماى 1973 باديس ابابا الموافق عليه من طرف مجلس وزراء منظمة الوحدة الافريقية

هـ) اقتراح كينيا حول المنطقة الاقتصادية .

3) مشروع الاتفاقية حول المنطقة الدولية لاعمـاق البحـــار والمحيطات والذى تقدمت به الولايات المتحدة سنة 1970 .

ويعترف تصريح دول الكريبي واقتراح كينيا باثنى عشر ميلا للمياه او البحر الاقليمي كما يضاف اليهما تصريح اديس ابابا ليقـــع الاعتراف بالمنطقة الاقتصادية لغاية مائتين ميلا بحيث تمتد سيادة الدولة الشاطئية حتى على المنطقة الخارجة عن حدود مياهها الاقليمية ولغايـة المسافـــة المذكورة فيما يتعلق بالثروات المعدنية والحية بهذه المنطقة وتبقى لباقى الدول حرية الملاحة الجوية والبحرية وحرية مد الاسلاك والقنوات بها .

ويظهر من المؤتمر الحالي ان هذا الاتجاه يحظى بموافقة كثير من الدول ، اذ من المعلوم ان عدد الدول التي لا يتجاوز عرض مياهها الاقليمية اثنى عشر ميلا يصل ست وثمانين دولة ، في حين ان دولا قليلة كالبرازيل والاكوادور والبيرو تجاوزت ذلك لتحدد عرض هذه المياه في مائتين ميلا ، ويرجع السبب في هذا الاختلاف كما هو معلوم الى عدم وجود قواعد قانونية في الاتفاقيتين السالفتين تحدد عرض هذه المياه ، مما ترك الامر لحرية الدول في اتخاذ الموقف الملائم بناءاً على احتياجاتها وبواسطة قوانينها الوطنية او الاقليمية .

كما ان الاتفاقيتين المذكورتين لم تحددا النقطة الاقتصادية مما حمل بعض الدول على القول بان المناطق التي تلي مباشرة البحر الاقليمي تكون البحار العالية اى المفتوحة بحرية لجميع الدول دون استثناء .

ويحاول مشروع الاتفاقية المقدم من طرف الولايات المتحدة اغراء بعض الدول بانشاء ما يسمى بمنطقة الادارة الخاصة وهي المنطقة التي تاتي بعد 200 مترا من العمق للافريز الاقليمي للدولة الشاطئية بحيث تتمكن هذه الدولة او الدول من بسط سيادتها لغاية هذا العمق وبعده اى في المنطقة الخاصة تقوم بالمراقبة بينما تتكفل السلطة الدولية لاعماق البحار بادارتها وتنظيمها وفي سبيل ذلك تحصل على مبالغ من مستغليها تصل النصف او تتجاوزه بقليل تلك المبالغ التي تشتغل فيما بعد لصالح الجماعة الدولية والدول السائرة في طريق النمو على الخصوص .

ويثير وجود سلطة دولية لاعماق البحار والمحيطات تساؤلات كثيرة تتعلق بتركيبها ، بكيفية استغلالها لثروات المنطقة وكيفية استخدام منافع هذه المنطقة لصالح الانسانية جمعاء ، وتساؤلات اخرى خصوصا تلك المتعلقة بالمحافظة على توازن الاثمان حتى لاتتعرض الدول السائرة في طريق النمو على الخصوص الى الضرر اذا ما استغلت الثروات المعدنية لهذه المنطقة بشكل غير منظم (من المعلوم ان المنطقة غنية بالكولبالط وان استغلاله بشكل او بآخر يمكن ان يؤثر على انتاج المغرب المعاني) .

يتبع   ادريس الضحاك

ابن سيده المرسي

دراسة في حياته وآثاره

(القسم الرابع)

بقلم: المستشرق الاسباني
الدكتور داريو كابانيلاس رودريكس
ترجمة وتعليق: حسن الوراكلي

الآثار اللغوية والأدبية والمنطقية

صنف ابن سيده تآليف عديدة لم يصلنا الا قسم منها ، أما القسم الآخر فاما انه قدضاع جميعه ، واما انه لا يزال مخطوطا ، غير معروف لدينا ، على فرض وجوده او وجود اثر منه ؛ على اننا نعرف على الاقل عن جل ما يعزوه لابن سيده مترجموه سابقو الذكر من آثار ، أسماءها ، وأحيانا الى جانب الأسماء نعرف تعليقات في غاية الايجاز حول موضوعها وحجمها ، وهو أمر اذا كان من شأنه أن يساعدنا على تكوين صورة تقريبية عن الثقافة اللغوية في الأندلس خلال القرن الحادي عشر فانه يتيح لنا الكشف عن الاتجاهات العلمية والادبية التي ظلت تستهوى مؤلفنا طوال حياته ؛ وبقدر ما تدلنا على ذلك أسماء آثاره التي وضعها وضعا أو ابتكرها ابتكارا تدلنا عليه ايضا عناوين شروحه على كتب كانت شهرة اصحابها تملأ أسماع الناس يومئذ .

ومهمها يكن من أمر فان النزوع الفكرى لابن سيده يبتدىء فى ثلاثة مجالات : أولها ما ندعوه بـ «صناعة المعاجم» lexicografia حتى حين يندرج فى ذلك فقه اللغة والنحو ؛ وثانيها مجال الشعر ؛ وثالثها مجال الفلسفة ولا سيما المنطق ، على انه تجدر الاشارة هنا الى ان اهتمام ابن سيده بهذه المجالات العلمية والادبية فيما ألف وصنف لا يعنى بحال من الأحوال رفضه او تمرده على باقي مناحي العلم والثقافة الاسلاميين .

ا ـ صناعة المعاجم : ـ

مما لاشك فيه أن ابن سيده كان شديد الشغف بهذه الصناعة ، فآثرها على غيرها ، وظفرت منه دون المجالين الآخرين المشار اليهما آنفا بأحسن نتاجه ، يتجلى لنا ذلك مما انتهى الينا من مؤلفاته ومما لم ينته الينا منها واحتفظ لنا مترجموه بأسمائها .

اعمال أصيلة : ـ

برغم الفراغ الهائل والناتج عن مؤلفات ابن سيده التي هي في حكم الضياع الى يومنا هذا فاننا لمحظوظون بامتلاك نموذجين من آثاره فى هذا المجال وهما : المحكم والمخصص ، ومن شأنهما أن يعطيا الباحث صورة عامة عن محتوى وشكل تآليفه الضائعة ، ونظرا لأننا سنقف فى الفصول المقبلة عند المعجبين المذكورين وسنعني بدراستهما وتحليلهما فى شىء من التفصيل ، فاننا ، هنا ، سنكتفي بالاشارة الى أن جميع مترجميه ، باستثناء الحميدي والضبي ، قد ذكروا فى جملة مؤلفات ابن سيده « كتاب المحكم والمحيط الأعظم فى اللغة » ، وذكرت له طائفة من مترجميه معجمه الثاني « المخصص » وأغفلت ذكره طائفة تتألف من الحميدي والضبي وابن خاقان والقفطي والسيوطي .

ومما يندرج فى هذا المجال من مؤلفات ابن سيده التى هى ، اليوم ، فى حكم الضياع والتي احتفظ لنا مترجموه بأسمائها ، ينبغى ذكر مؤلفين ، احدهما كان يسمى « كتاب شاذ اللغة » ، وقد ذكره كل من ياقوت والصفدي

وقالا بانه كان يقع في خمسة مجلدات ، وثانيهما كان يعالج ، فيما يبدو ، موضوع التذكير والتانيث ، فى النحو ، وقد أشار اليه ابن سيده نفسه فقال : « وأما ما أتركه من الاشعار بالتذكير والتانيث ، فانما ذلك لأنى قد افردت له كتابا لم يوضع فى معناه ما يوازيه ، فضلا عما يساويه ،وكذلك المدود والمقصور .. (1) »

وينسب كل من ياقوت والصفدي لابن سيده « كتاب العالم فى اللغة فى الأجناس فى غاية الايعاب نحو مائة سفر بدأ بالفلك وختم بالذرة » ؛ بيد أننا نجد المقري فى النفح يعزو كتابا بهذا الاسم والمميزات نفسها لاحمد ابن أباد بن سيد . ومن المحتمل جدا أن الاصل فى هذا الالتباس جاء من عدم تمييز ياقوت بين ابن سيد وابن سيده . (2)

ب ـ الشروح

احتفظت لنا المصادر باسماء اربعة شروح ـ لعل اثنين منها اسمان لعمل واحد ـ تنسبها لابن سيده فيما تنسبه له من آثار ، اولها : « كتاب شرح العالم والمتعلم على المسألة والجواب » (3) ولا شك أنه شرح على كتاب العالم والمتعلم المعزو خطأ لابي حنيفة النعمان ابن ثابت ؛ لأن الذى ألفه ، فيما يبدو ، هو أحد تلامذته (4) .

---

(1) مقدمة المحكم ، ج 1 : ص 14 ، وفى الجملة الاخيرة ما يشعر بان ابن سيدة ألف ايضا كتاب المقصور والممدود ، ولعله احتذى في ذلك ما كتبه بنفس العنوان مؤلفون آخرون نذكر منهم على سبيل المثال الفراء وابا علي القالي .

(2) المقري ، النفح ، ج 2 ، ص 117 Gayangos. The Hist. 1-184
وعن أحمد بن ابان بن سيد المتوفى عام 392 هـ / 992 ـ 993 م ، وهو مؤلف كتاب الاسماء ، انظر القفطي ، أنباه الرواة (القاهرة 1950) ص 31 . الحميدي ، بغية الملتمس ، ص 126 . ياقوت ، معجم الادباء ، ج 2 ، ص 203 .

(3) ينسب القفطي هذا الكتاب لاحمد بن أبان بن سيد ، وتذكر الاخبار أنه ألفه فى جملة ما ألفه للحكم المستنصر ، ولكن الاستاذ الحمزاوي فى بحثه المشار اليه آنفا ينص على أن هذا الكتاب من تأليف ابن سيده اعتمادا على ابي عمر بن فرج الجياني الذي نسب فى « الحدائق » الكتاب المذكور لابن سيده ، كما نسب اليه كتاب العالم فى اللغة على الاجناس ، وقد كان الجياني معاصرا لابن سيد ولا يعقل ـ فى راي الاستاذ الحمزاوي ـ أن ينسب الكتابين لغيره ان كانا له . ـ المترجم ـ

(4) انظر ، عن ابي حنيفة النعمان ، دائرة المعارف الاسلامية ، الطبعة الجديدة ، ج 1 ، ص 128 ـ 126 (مادة ابي حنيفة) ، بروكلمان ، ج 1 ، ص 177 ـ 176 والملحق ج 1 ، ص 287 ـ 284 .

والثاني هو « كتاب شرح اصلاح المنطق » حسبما رو، صاعد الطليطلي وياقوت والصفدي والسيوطي ، وكان هدف ابن سيده من هذا الشرح انتقاد بعض الاجابات ، او الطول التي قدمها ابن السكيت للمسائل اللغوية ولا سيما الصرفية منها ، تلك التي بسطها في كتابه « اصلاح المنطق » ، وقد اشار محققا « المحكم » الى انه ربما يكون كتاب شرح اصلاح المنطق هو نفس الكتاب الذي عزاه لابن سيده بعض مترجميه ، مثل صاعد الطليطلي وابن خير وياقوت والسيوطي باسم آخر هو : « العويص في شرح اصلاح المنطق » وبذلك يكون الكتاب قد تضمن شرحا ونقدا في الآن عينه ، وليس من المستبعد ان يكون ذلك الكتاب عبارة عن موجز او منتخب من شرحه على كتاب ابن السكيت المذكور (5) .

وآخر كتاب لابن سيده في اطار الشرح والتعليق هو شرح كتاب الاخفش ، ونجده مذكورا عند ياقوت والصفدي والسيوطي (6) ، ومع ان « الاخفش » لقب عرف به اثنا عشر نحويا عربيا احصاهم السيوطي (7) ، فان اشهرهم ثلاثة ، اثنان من مدرسة البصرة والثالث من مدرسة بغداد ؛ واولهم هو الأخفش الاكبر (او الكبير في بعض المصادر) ابو الخطاب عبد الحميد بن المجيد المتوفى عام 177 هـ / 94 ـ 795 م ، وقد اخذ عن ابي عمرو بن العلاء ، ويبدو انه كان اول من عنى باملاء شرح للشعر العربي القديم ، واشهر تلامذته سيبويه وابو زيد وابو عبيده والأصمعي .

والثاني ، هو الاخفش الاوسط ، ويعد اشهرهم على الاطلاق ، واسمه ابو الحسن سعيد بن مسعده البلخي ، وقد تلمذ على سيبويه ، وكانت وفاته في المدة المتراوحة بين 221 ـ 210 هـ / 835 ـ 825 م .

والثالث ، هو الاخفش الاصغر ، ابو الحسن علي بن سليمان ابن المفضل ، أخذ عن المبرد وثعلب ، وتوفى عام 315 هـ / 28 ـ 927 م ، وهو

---

(5) مقدمة محققي المحكم ج 1 ، ص 8 ، من ابي يوسف يعقوب بن اسحاق بن السكيت ، النحوي واللغوي ، المشرقي الشهير المتوفى عام 244 هـ / 59 ـ 858 م ، انظر : دائرة المعارف الاسلامية ، ج 2 ، ص 444 (مادة ابن السكيت) . بروكلما ، ج 1 ص 121 ـ 120 ، والملحق ، ج 1 ، ص 181 ـ 180 .

(6) انظر كذلك حاجي خليفة ، ج 5 ، ص 35 .

(7) المزهر ، طبعة القاهرة ، ج 2 ، ص 283 ـ 282 .

الذى اذاع فى مصر ابحاث المدرسة البغدادية ، وحسب ما فى فهرسة ابن خير الاشبيلى فان كتابا صنفه الأخفش الأصغر فى النحو كان موضع عناية ودرس وشرح فى الأندلس ، ومن المرجح جدا ان يكون هذا الكتاب نفسه هو الذي شرحه ابن سيده (8) .

ج ـ الأدب

يجمع مترجمو ابن سيده على الاشادة بموهبته الشعرية ؛ بل اننا لنجد بعضهم بعد ان يشير الى ميله الاولى للنحو واللغة وتمكنه منهما ، يبرز أهمية شروحه الأدبية حـــول بعض المصنفات ؛ والى هذا كان يهدف ابن خاقان حين كتب فى مطمحه يقول : (امام فى اللغة والعربية ، وهمام فى الألفة الأبية ، وله فى ذلك اوضاع للافهام اخلافها استدرار واسترضاع ، حررها تحريرا ، واعاد طرف الذكاء فيها قريرا .) (9) .

وياتي القفطى ليلح بدوره على هذا المظهر نفسه اذ يقول فى ايجـــاز واقتضاب ، (ولد غير ذلك من الكتب الأدبية ، وكان نادرة وقته ، وله شعر جيـــــد) (10) .

على ان من المترجمين من ربط بين المجالات العلمية والادبية التـــي عنى ابن سيده بالتاليف فيها ، فاوردها فى نظام تدريجي يعكس حظه كـــل مجال منها من اهتمام ابن سيده وعنايته وما كان لهـــذه العنايـة ولذلـك الاهتمام من تأثير على ضخامة مؤلفاته او صغرها ، وهكذا مثلا يفعل ياقوت الذى يعتمد نسخة ثانية من كتاب صاعد الطليطلى ، وعن ياقـــوت ينقـــل

---

(8) فهرسة ابن خير ، طبعة كوديرا وربيرا ، ص 314 ـ 313 ، وعن النحويين الذين عرفوا بالأخفش وخاصة الثلاثة المشهورين ، انظر دائرة المعارف الاسلامية ، ج 1 ، ص 331 (مادة الأخفش) . بروكلمان ج 1 ، ص 104 و 130 ، والملحق ج 1 ، ص 165 و189. وانظر كذلك :

G. Flügel, Die Grammatischen Schulender Araber (Leipzig, 1862), PP. 61 Sigts.

(9) مطمح الانفس ، ص 60 .

(10) انبـــاه الرواة ، ج 2 ، ص 225 .

السيوطى مع تغيير طفيف فى الرواية ، يقول السيوطى بالحرف الواحد : (لم يكن فى زمانه أعلم منه بالنحو واللغة والأشعار وايام العرب وما يتعلق بها متوفرا على علوم الحكمة) (11) .

وفي حديثنا عن اسهامات ابن سيده في مجال الأدب ، سنميز ، على نحو ما فعلنا فى حديثنا عن تآليف فى اللغة ، بين ما ابتكره ابتكارا وبين ما اكتفى فيه بالتعليق والشرح على آثار ادبية معروفة .

واول ماينبغى ذكره من تاليفه فى مجال الأدب كتاب « الوافى فى علم القوافي (12) » وهو يعد اليوم من كتب ابن سيده المفقودة ، وقد ذكره ياقوت والصفدى ، وتحدث عنه ابن سيده نفسه أكثر من مرة ، ونستنتج من كلامه ان الكتاب ملخص فى الضرائر الشعرية وفى باب عيوب الشعر وطوائف قوافيه من كتاب الغريب المصنف لابى عبيد – القاسم بن سلام – الهروي (13) .

وليس يعرف ، اليوم ، من نتاج ابن سيده الشعرى الا انموذجان ، (14) اولهما قصيدته التي كان وجهها الى الامير اقبال الدولة يستعطفه

(11) السيوطي ، بغية الوعاة ، ص 327 .

(12) مقدمة المحكم ، ج 1 ، ص 4 ، ويسمى ابن سيدة هذا الكتاب فى موضع آخر من مقدمته للمحكم (ص 10) « الوافي فى احكام علم القوافي » . وانظر ايضا ، حاجي خليفة ، ج 6 ، ص 418 .

(13) نسب البستاني لابن سيده فى دائرة المعارف العربية نقلا عن ابن قاضي شهبة فى طبقاته كتاب « تقريب الغريب المصنف » . – المترجم –

(14) تعزز الانموذجان : (قصيدة الاستعطاف) و (الارجوزة) بثالث هو الابيات الثلاثة التي نسبها لابن سيده الحجاري فى « المسهب » وهي :

لا تضجرن فما سواك مؤمل ولديك يحسن للكرام تذلل
واذا السحاب اتت بواصل درها فمن الذي فى الري عنها يسال
انت الذي عودتنا طلب المنى ولا زلت تعلم فى العلا ما يجهل

وقد نقل هذه الابيات عن « المسهب » ابن سعيد فى « المغرب فى حلى المغرب » ، ويدلنا ما تبقى من شعره على شدة عنايته بغرض المديح ، ولعل فى انقطاعه لاميري دانية والعيش فى بلاطها ما يبرز ذلك ، ومن حيث الشكل يمكن ادراج شعره ، بالنظر الى صوره ومعانيه ومعجمه ، فى اطار الاتجاه الكلاسيكي المتميز برصانته وجزالته .

– المترجم –

ويعتذر ، ولم يصلنا الا ثلاثة عشر بيتا سبق تقديمها فى الفصل السابق ، وثاني الأنموذجين ارجوزته التى تحدثنا عنها فى الفصل الأول والتى نفيد منها فى مواضع شتى من هذا البحث .

ومن بين الشروح الادبية التي كتبها ابن سيده تذكر المصادر اثنين منها ، اولهما كان يسمى كتاب «الأنيق فى شرح الحماسة» ، وقد شرح فيه ابن سيده ما ضمنه ابو تمام حبيب بن اوس الطائي المتوفى سنة 231 هـ / 46 ـ 845 م من شعر الشعراء القدامى فى منتخبه المعروف ، وقد ذكر هذا الشرح من مترجمى ابن سيده صاعد الطليطلى وابن خير وابن بشكوال وياقوت ـ وهو يقول بان الشرح المذكور يقع فى عشرة اسفار ـ وابن خلكان ـ وهو يقول بانه فى ستة مجلدات ـ والصفدى الذى يقول عنه بانه كبير الى الغاية ، والسيوطي (15) .

اما ثاني الشرحين فهو كتاب شرح مشكل ابيات المتنبي ، ولعل ابن سيده احتذى فيه ابا القاسم ابراهيم ابن الافليلي المتوفى سنة 441 هـ / 50 ـ 1049 م والذي يعود اليه الفضل فى تاليف اول شرح عرفه المغرب الاسلامى على شعر أبى الطيب المتنبى ، الشاعر المشرقي الذى ملأ الدنيا وشغل الناس (16) .

ولم ينشر بعد شرح ابن سيده على المتنبي ، وتوجد منه فقط نسخة مخطوطة فى القاهرة ، وابن سيده يذكر هذا الشرح فى معجمه «المخصص»

---

(15) انظر كذلك حاجي خليفة ، ج 3 ، ص 114 ، وهو يتبع ابن خلكان فى القول بان الشرح المذكور كان يقع فى ستة مجلدات ، وعن ابي تمام انظر ، دائرة المعارف الاسلامية (الطبعة الجديدة) ج 1 ص 157 ـ 159 (مادة ابي تمام) . بروكلمان ج 1 ص 83 ـ 85 ، والملحق ج 1 ص 136 ـ 137 .

(16) انظر :

R. Blachère, « Le poète arabe Al-Motanabbi et l'Occident musulman en « Revue des Etudes Islamiques », 3 (1929).

وفى ص 33 من البحث المذكور ينص بلاشير على وجود نسخة مخطوطة من هذا الشرح بالقاهرة ، كما نجد الاشارة اليها فى دائرة المعارف الاسلامية ، ج 2 ص 444 ، وفى ملحق بروكلمان ، ج 1 ص 142 و 152 وعند هزي بيرس فى

« La poésie andalouse en arabe classique au XIème siècle » 2è éd. (Paris 1953). PP. 35 J 29.

مما يدل على أنه الفه بعده ، (17) واللافت للنظر فى هذا الشرح أن مؤلفه لا يعنى بشرح كل شعر المتنبى ، كما لا يشرح كل أبيات القصيدة التـــى يتصدى لها ، بل انه يقصر معالجته للأبيات التى تتضمن مسائل يجـــدر الوقوف عندها والتعليق عليها من الناحية النحوية أو اللغوية أو من ناحيـــة ما فيها من مجاز أو منطق أو خصائص عروضية ، (18) وقد بسط ابن سيده القول فى ذلك كله مقتبسا عن سيبويه وابي علي الفارسي ومستشهـــدا باشعار قديمة ، مختلفة (19) .

وفي بعض المصادر اشارات عامة لشروح أخرى سالت بها يراعـــة ابن سيده ، ومع أن تلك المصادر لا تذكر أسماء هذه الشروح ولا الموضوعات المعالجة فيها ، فانه من الراجح جدا أن جلها كانـــت تتعلـــق بموضوعات لغـــويـــة (20) .

ويستنتج من ((الحكم)) أن مؤلفنا كان متمكنا كذلك من علم القراءات ، ولا شك أنه أخذ هذا العلم أثناء اقامته فى دانية عن المقـــرىء الكبيـــر

(17) دار الكتب المصرية ، رقم 2 أدب م ، ويقع المخطوط فى 189 ورقة ، تحتوي كـل صفحة منها على نحو 19 سطرا وكل سطر 9 كلمات ، وقد تفضل الصديقان الكريمان الدكتور محمود مكي والاب انخيل كورتابريا فارسلا لي صورة بالميكروفيلم من المخطوط المذكور ، فلهما مني وافر الشكر والامتنان .

(18) كمثال لمنهج ابن سيده فى هذا الشرح يمكن الرجوع الى نص منه نقله محققا المحكم فى المقدمة ، المحكم ، ج 1 .

(19) يشتغل الصديق الدكتور محمد رضوان الداية بتحقيق شرح مشكل أبيات المتنبـي لابن سيده واعداده للطبع ، وقد عقد فى كتابه ((تاريخ النقد الادبي فى الاندلس)) فصلا درس فيه هذا الشرح وأبرز خصائصه ومميزاته ، وانتهى من ذلك الى أنه شرح (فريد فى بابه فى كتب الشروح الاندلسية فقد ملاه بالملاحظات النقدية والموازنات والمقارنات وحكم منهجه المنطقي فى توجيه أبيات كثيرة ، واستخدم بعض معطيات الفلسفة ، ولو انه شرح ديوان المتنبي كله على هذا لخرجنا بمنهج كامل ، وبدع جديد ، والكتاب على حاله شيء جديد طريف يسهم فى ايضاح الحركة الادبيـة والنقديـة فى الاندلـس) ، وتجدر الاشارة الى وجود نسخة مخطوطة من الشرح المذكور بالمكتبة الاحمدية (خزانة جامع الزيتونة) بتونس .

ـ المترجم ـ

(20) من شروح ابن شيده التي لم يذكرها المؤلف والتي نصت عليها بعض المصادر كابن بسام والصفدي ، كتاب شرح الجمل للزجاجي ، وشرح صدر كتاب سيبويه أو شرحه كاملا ، ومن هذا الاخير نسخة مخطوطة بالرباط .

ـ المترجم ـ

ابي عمر عثمان بن سعيد الداني ، وقد تحدثنا عنه فى الفصل الثاني باعتباره احد شيوخ ابن سيده .

د) المنطق

كان اول من تحدث عن اهتمام ابن سيده بالفلسفة واشار الى تصنيفه فيها القاضي الجياني (صاعد الطليطلي) ، وقد نقل ياقوت كلام الجياني فيما بعد عن نسخة من كتابه تعتبر اليوم مفقودة : ((كان مع اتقانه لعلم الأدب والعربية متوفرا على علوم الحكمة والف فيها تاليفات كثيرة)) (21) .

وبالرغم من ان الذين اشتغلوا بالحكمة فى عهود الاسلام الأولى كانوا يعرفون باسم الفلاسفة ، فانه يبدو وبلا شك أن صاعد الطليطلى فى العبارة السابقة يريد بلفظة ((الحكمة)) المعارف المنطقية والرياضية والطبية دون بقية العلوم الفلسفية الخالصة ، وانا لنجد ابن سيده نفسه ينصح باقتناء العلوم الأولى (المنطق ، الطب ، الرياضة) ، وينهي عن العناية بالفلسفة الخالصة لكونها فى تقديره ضارة بالدين الاسلامى ، وذلك ما يوضحه فى هذه الأبيات الثلاثة التي تضمنها حرف النون من ارجوزته :

لا تعبأن مقالة الفلاسفة × فانها للغيب غير كاشفه
وان تنل منها فحد المنطق × أو الحساب او بطب فاعلق
وغير ذا من غامض الطبيعة × مضرة فى هذه الشريعة (22)

على ان ابن سيده يعود ليجلو لنا عما ظفر باهتمامه من علوم الفلسفة فى هذا البيت الذي ختم به حديثه عما اكتسبه من علوم ومعارف :

ثم تاملت حدود المنطق × فمن يرم حقيقة فلينطق (23)

---

(21) ارشاد الاريب ، طبعة مرجليوث ، ج 5 ، ص 85 ، وقد افاد الصفدي من هذا النص فى نكت العميان ص 204 .
(22) مجلة المشرق ، العدد 36 ، ص 188 .
(23) مجلة المشرق ، العدد 36 ، ص 190 ـ 191 .

واذن فان ابن سيده قصر عنايته بالفلسفة على جزء منها فقط وهو المنطق دون الطب والحساب اللذين لا يورد لهما ذكرا في الأبيات الخمسة والعشرين (24) ، التي خصصها من أرجوزته للحديث عن العلوم والمعارف التي اخذها عن شيوخه كما سبقت الاشارة ، وفي هذا المعنى يقول صاعد الطليطلي ، كما نجد في نسخة كتابه المتداولة ، (25) ومنهم « من العلماء الذين اشتغلوا بالمنطق « أبو الحسن علي بن اسماعيل بن سيده الاعمى ، وكان ابوه ايضا اعمى ، عني بعلوم المنطق عناية طويلة ، والف تاليفا كبيرا مبسوطا ذهب فيه الى مذهب متى بن يونس (26) .

غير أن هذا التاليف الذي يشير اليه ابن صاعد الطليطلي لم يصل الينا ، ويبدو أنه لم يظفر بذيوع صيت ، فليس ممن نعرف من مترجمي ابن سيده من نص على اسمه أو تحدث عن مضمونه (27) .

تطوان حسن الوراكلي

---

(24) انظر الابيات المذكورة في ص 38 ـ 39 .

(25) طبعة Cheikho ، ص 77 ، ترجمة بلاشير ، ص 141 ـ 142 .

(26) عن أبي بشر متى بن يونس مؤلف كتاب البرهان والمتوفى ببغداد عام 328 هـ / 40 ـ 939 م ، انظر بروكلمان ، ج 1 ، ص 228 ، والملحق ، ج 1 ، ص 370 .

(27) ثمة تاليف آخر في اطار الفلسفة ، نسبة لابن سيده الكاتب الوزير ابو الاصبغ ابن ارقم في تهجمه على ابن سيده « القسم الاول من الجزء الثالث من مخطوطة الذخيرة ، وقد عني بتحقيقه واعداده للنشر الاستاذ محمد رشاد الحمزاوي » ، واسم التاليف هو: « شرح جالينوس ووصف فرفريوس » وينتقده ابن أرقم في تهجمه : (وذكر جالينوس ووصف فرفريوس وخطا وضع وتحريف شعر ومردود لفظ وادعاء باطل وهجر واسجاع كأنها قعقعة القراع ووعوعة المصاع مؤذبية المنزع قلقة الموضوع خشنة الموقع مدها خمسين ورقة هذيانات وترهات وتزويرات وسخافات « ... » ومزيفات زيف بها حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم وصحابته رتبها وصنعها وآثر عليها آراء الفلاسفة وشرفها ولم يات فيها بكلمة من كتاب الله تعالى ولا من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم وصحابته ونعوذ بالله من الخذلان ونزعات الشيطان) .

وفي شرح ابن سيده على المتنبي ما يقفنا على صورة من ثقافته الفلسفية والمنطقية ، ومن ذلك ، شرحه لبيت المتنبي :

تشرق أعراضهم واوجههم كأنها في نفوسهم شيم

(لا شيء أصفى ولا ابسط من النور ، فلذلك توصف الجواهر الصافية به ، واولى شيء بذلك الامور النفسانية لانها اذهب في البقاء ، والشيمة نفسانية ، والوجه جسماني ، والعرض يمكن ان يكون الجسم ، فلم يخلص الى النفسانية كخلوص الشيمة فشبه أبو الطيب الاعراض والاوجه بالشيم في الشروق والصفاء ، وتناهي البقاء) . انظر الدكتور رضوان الداية ، تاريخ النقد الادبي في الاندلس دار الانوار (بيروت) ـ (1388 هـ / 1968 م) الطبعة الاولى ، ص 172 . ـ المترجم ـ

خوان رامون خمينيث

1958/1881

شاعر وناثر اسباني . ولد بقرية موكر الاندلسية . وتوفي ببورتوريكو . تلقى دراسته العالية بجامعة اشبيلية . فى سنة 1916 تزوج بالكاتبة زينوبيا كمبروى ـ مترجمة بعض اعمال طاغور . انشا عدة مجلات شعرية . يعد من اكبر الشعراء الابتداعيين الاسبان . في سنة 1957 نال جائزة نوبل للآداب .

من مؤلفاته :

(حدائق بعيدة 1904) . (باستورال 1905).
(القصائد السحرية) . (صمت الذهب) .
(يوميات شاعر متزوج) . (أبديات 1917) .
(الحجر والسماء 1917) .

ومن كتبه النثرية الشهيرة (بلاتيرو وانا) . و ((بلاتيرو)) اسم حماره الذي يدور عليه موضوع هذا الكتاب ، المترجم الى جل اللغات الحية ، وقام بترجمته الى العربية عباس محمود العقاد . ويعد من آدب الاطفال العالمي .

وقد ترجمنا هذه القصيدة من الاسبانية بتصرف ، لأنها تعطى صورة عن عالمه الشعرى :

ليليات

لن أعود . وهذه الليلة الدافئة الهادئة
الصامتة ، تدغدغ أجفان العالم ، لينام
تحت أشعة القمر الوحيد .

* * *

جسدى لن يكون هناك .
ومن النافذة المفتوحة
سيدخل نسيم منعش
يسأل عن روحى .

* * *

لست أدرى هل هناك من يحتفظ
بحضورى النبيل الطويل ؟
وهل هناك من يقبل ذكرياتى
المحفوظة بين الدموع والحنين ؟

* * *

أمـــا النجـــوم والأزهـــــار ،

والتنهدات والآمـــال ،

فتوجـــد هنــاك

فى الدروب مع الحب ،

تحت ظـــلال الأغصـــــان .

وسيـــرن هـــذا البيـــان

فى ليلـــة كمثل هذه الليلة الهادئة

ولن يوجـــد من يسمعـــه

والقمر ، والقمر الحلو

يثنـــى بالبيـــاض الأشجـــار .

ومن بين الأغصـــــان

تصعـــد فـــــوارة

مـــن جـــواهــر .

ترجمة : المناهل

ذيلٌ وتعليق
حول قضية المعتمد بن عباد
(القسم الرابع)

عبد الرحمن الفاسي

لقد كان من حظ الفونسو السادس (الفنش ـ الاذفونش) ان واجـه فى الرقعة الاسلامية من الجزيرة نفسيات وقابليات واستعدادات تختلـف بليونتها ، وطواعيتها ، وسلاسة مقادتها عما كان يلاقيه والده ((فرديناند)) فى امثال المظفر ابـن الافطس صاحب بطليوس والمعتضد عبـــاد ملـك اشبيلية . من حنكة وحزم وشدة مراس ، ومن ادراع بمقومات الاعتداد التى اصلتها فيهم عزة الحكم واجيال الحضارة ، مما نراه خبا شيئا فشيئا فى نفوس الجيل الجديد الذي نشا وتربى بالاستعداد النفسى لقبول الدنية ، والاستنامة تحت اليد العليا النصرانية ، وذلك كان مصداق العبارة الآنفـة الذكر لشيخ مؤرخي الاندلس ابن حيان فى حق الحكام ، وصورة صادقـة لما سمعناه ايضا عن الامام ابن حزم فى حق ابناء الشعب الذيـن تصرفوا تصرف المغمض العينين !!

وإذا كان هذا ضعفا عاما في هذا الجيل من أهل الاندلس ، حسبمـــا استبان في صفحات سالفات ، فقد رأينا الضعف قد تشبح من جهة أخرى ، وعلى وجه آخر في ملوك هذه الفترة ، وذلك ما يستجليه الباحث من استقراء اخبــار سيرهم هنا وهناك .

لقد كان بعضهم صغير السن بما يتبع ذلك من غياب التجربة وانعدام الحنكـــــة .

وكانت في بعضهم خليقة عطلت جملة مقوماته وفضائله ، وطغت على فحولته ، فشلت ارادته على أن يأخذ نفسه بالحزامة في تدبير دولته وأحوال رعيتــه .

والثالثة ، عاطفة حب أو بغض استغرقت بعضهم استغراقا وأخذتـه سورتها أخذا ؛ وجمحت به ، فعطلت كل عاطفة غيرها في نفسه .

على أن الضعف العام الذي اشرت اليه وركزت عليه ، قد فتح الباب في نفوسهم على المصراعين فكسبتها النقائص مثنى وثلاث ورباع ، فكان بعضهم على لسان أهل عصره هزءة ، وللفونش مطية ، وكان لا وجه له يحمل عليه ، ولا وعي له ولا روية .

فهذا عبد الله بن بلقين صاحب كتاب ((التبيان)) الذى الفه عن دولة قومه ، وصاحب غرناطة بعد جده العظيم باديس ، قد نصب ملكا صبيا لـم يجاوز الحلم ، فاضطلع بالتربية والتدبير الوزير البربري ((سماجة)) الذي اقام بحزمه وحنكته البربرية سدا أمام المتربصين والطامعين ، الى أن سول للولد ضعف رأيه الاستقلال بالحكم ، والتخلص من هذه الرعاية الواقيـة ، وعندها اصبح مصير المملكة المنكودة الحظ في مهب الرياح العاتيـــة ، فلا غرو اذا قدم لنا وزير غرناطة لسان الدين بـــن الخطيب هذا الملك الولد بكلمات الاستضعاف التي بلغت مبلغ التحقير حين قال : (1)

---

(1) أعمال الاعلام جزء الاندلس طبع الرباط صحيفة 269 .

(وكان عبد الله بن بلقين جبانا مغمد السيف، متكاسلا عن الخيل، زاهدا فى النساء موصوفا بالضعف ، لكنه يكتب ويشعر ، ويتحدث فيما يتحدث فيه الطلبة ، وقفت على ديوان بخطه الفه بعد (2) خلعه بمدينة اغمات وقرر فيه احواله ، والحادثة عليه مما يستظرف من مثله أتحفني به خطيب المسجد بانمات رحمه الله)

وباوفى من هذا واوضح ، تجليه لنا بعض صفحات كتابه : ((التبيان)) افينا ، ضحكة ، يهرف محاورا ، ومناورا ، بما يقال وما لا يقال ، ولنسمع اليه يدرا عن نفسه ما كان يقرف به من تلك الهناة ، فقد (3) قال جانحا عن التمليح الى التصريح :

(ولم يبق لك ما تقول : انما كان صاحب غرناطة حريصا على جمع المال ، محبا فى الحسان ، ينادم الصبيان)

وبعدما نفض وجهة نظره فى الحرص على جمع المال ، تصدى لتبرير كبيرته بهذه الكلمات :

(واما منادمة الصبيان ، فاذا لم يكن بدمن استعمال شيء من الخمر ، التي قد تاب الله علينا منها ، فما للعقار (الريار) ؟ ليس هذا مجلس حكم : فيتخير له ذوو الاسنان ، ولا وضع لتدبير راي ، فيشاور فيه اهل العلم ، ولا ميدان حرب ، فيدعى اليه انجاد الفرسان ! ولكل وقت حكم : من استعمل فيه غير شاكلته ، فقد جهل ، ولم نكن مع هذا ناخذ معهم فى جد ، ولا نمكنهم من امر ، ولا ننهضهم الى غير طريقتهم والمستعملون لخدمة الدولة مشهورون ، ممن له حنكة ودربة : والخديم لا يكون نديما : كيف تصول اليوم على من اطلع على عوراتك البارحة ، اذ السكر عورة ؟ ام كيف تامر بخدمة الجندية والشدة عليه فى الخروج

●

(2) هذه البعدية الجازمة فى نص ابن الخطيب تردها عبارات فى الكتاب تشير الى ان التاليف قبل الخلع وبعده .

(3) (كتاب التبيان) مذكرات الامير عبد الله الصحيفة 202 .

من تعاطي معك الكاس ، وكثر معك المزاح والعربدة ؟ ثم تطلبه لخدمتك فتجده عشولا عما يصلحك مشغولا)

(وبغير هذا كله ، فان الدول الكبار لم يزل فيها الغلمان وابناء الصنائع صغارا وكبارا ، عبيدا وأحرارا ، وهم بين يدي الرئيس جمال ، وعلى خدمته أعوان ، ويتصرف الصغير السن فيما لا ينبغى للمسن ان يتولاه ، ولكل درجته ورتبته ، وهل الملك والمال الا للتزين والتجمل به ، وانتخاب الحسان منهم تليق بهم الكسوة السنية والمراكب الفارهة ...)

واذا كان مثل هذا المنطق مما يستانس به فى تلك المجتمعات الغارقة فى اللذات ، وبهلوانية الحياة ، فقد كانت الجزيرة حقا من عرصات الجنان !!

واما صاحب طليطلة الذى ادار عليه الفونس الدائرة ـ فيعرفه ابن بسام بصاحب الصنيع الممدود على الايام ذنبه ، الباقي فى صفحة الاسلام ندبه ؛ ومرة ثانية يعرفه بمقترف الذنب غير المغفور ، القادر ابن ذى النون ، وبأمير طليطلة (المترف المسرف الملقب من الالقاب السلطانية بالقادر بالله جهلامنه بحقيقته ، وتهاونا بالله وخليقته) ثم يقدمه لنا فى لباس ضعفه فيقول : (4) (لم يكن له ولسلفه قبله باع فى الطلب ، ولاحظ فى الادب ، وكان زعموا آية فى قرب غوره ، وسكون فوره ، والحور بعد كوره ، امعة ، امرة ، اجبن من قبرة ، ان حزم لم يعزم ، وان سدى لم يلحم ، الى ما كان يعرضه من غرض ، ويلزمه اكثر مدته من مرض ـ من ذرب لازم ـ زعموا كان لمعدته واستحرار حاسم لمرته)

ويقول عنه ايضا ابن الخطيب (5) : (وكان هذا الحفيد يحيى مضعفا كثير الحيلة ، خبيث الفكرة ، يصاحبه مرض درن قلما ينعش به) وواضح ان ابن الخطيب الفقيه يلفت النظر باشارته هذه الى عيب فى الحاكم قد

(4) الذخيرة لابن بسام القسم الرابع المجلد الاول ص 116 ـ 117 .
(5) أعمال الاعلام ط بيروت ص 77 .

لا يصح معه مضاء حكمه لانه من المرض الملازم ،وليس من قبيل العارض الملم الذي يمضى معه حكم الحاكم (6)

ووصفه ايضا الامير عبد الله صاحب غرناطة (7) بالعجز وضعف الـــراي .

وسجل عليه ابن الكردبوس فى كتابه : الاكتفاء (8) قلة التدبير ، ثم قال عنه : (كان ضعيف المنة ، قليل المعرفة ، ربي فى احجار النساء والدايات ، ونشا بين الخصيان والغانيات ، فملك امره العبيد ، وحكم عيه كل خصي ومولود ، كل يدبر ملكه على ارادته وينفرد بوزارته .

وسيحدثنا ابن بسام مرة اخرى عن اولية بيت بني ذي النون لدى كلامه عن المامون ، فنستشف منه عنصرا آخر من عناصر ضعف القادر ، واعنى ماكان لنشاته فى هذا البيت من تاثير على شخصيته ، فتصرفاته ، وبذلك يتبرج امامنا نضو ضعفين ، ضعف نشاته فى اسرته الخاصة وضعف نشاة جيله العامة .

وهكذا اقدم للقارىء بعد الصغيرين الضعيفين شخصية ذلك الكبير المامون يحيى ابن ذى النون جد القادر يحيى المذكور ، الذى لم يكن من هذا الرعيل ، وانما كان مخضرما من كبار الجيلين ، فقد تربع على عرش طليطلة ثلاثا وثلاثين سنة ، اربى فيها منذ البدايات الى النهايات على زيغ

(6) العارض عند الفقهاء هو ما عبر عنه الشيخ خليل فى المختصر بالذي يدهش عن الفكر، وقد مثل له شارحه الحطاب بما نقله عن الشيخ زروق فى شرح الارشاد بالغضب ، والجوع ، والعطش ، والضجر ، والحقن ، وكل هذه تدخل تحت ما جاء فى عهد الفاروق عمر (رضي الله عنه) لابي موسى الاشعري (اياك والقلق والضجر والتاذي بالناس) ويدخل اصالة تحت الحديث الشريف الذي رواه البخاري ومسلم والترمذي والنسائي (لا يقضين احدكم بين اثنين وهو غضبان) وعلى اي حال ، فالروح الفقهية فى الموضوع تؤكد ما يلمح اليه ابن الخطيب ، ونص ابن بسام اصرح فى المرام لتعبيره بملازمة المرض .

(7) مذكرات الامير عبد الله ص 77 .

(8) ص 97 .

الزائغين من اهل الجيلين ، فبدا فيها كما يصور ابن بسام ناضب العاطفة الدينية والقومية ، ومحروما حتى من البواعث الانسانية .

وابن بسام يخب في سيرة هذه الاسرة البربرية ويضع ، فينقل تارة عن ابن حيان ، وتارة عن بعض شهود العيان ، ويعقب على ذلك بافادات فريدة مما يعتمد به الباحث في استيضاح خبايا الاحوال ، وسير الاحداث .

ففي معرض الكلام على اسماعيل والد المامون ينقل عن ابن حيان : (انه (اسماعيل) كان اول الثوار لمفارقة الجماعة ، وفرضهم في نقض الطاعة .)

ثم يكرر الاخبار عنه بهذا مرة اخرى فيقول (9) : (كان فرط الملوك في ايثار الفرقة ، فاقتدى به من بعده ، واموا في الخلاف نهجه ، فصار جرثومة النفاق ، واول من استن سنة العصيان والشقاق ، ومنه تفجر ينبوع الفتن والمحن)

ويقول ايضا في الذخيرة تعقيبا على ابن حيان : (ولقد اساء من جاء بعده (اي بعد اسماعيل ويعني بذلك المامون) ذهابا في الكبر ، وتهاونا بالامر، وقعودا عن النصر ، واستظهارا باحزاب الكفر ، سلمه باطل وبطالة ، وحربه غواية وجهالة ، في المشركين نجومه وديمه ، ولهم مواثيقه وذممه ، وفي المسلمين همومه وهممه ، وعندهم بوائقه ونقمه .

ثم يروي ابن بسام بعد هذا عن ابي المظفر ابن مثنى وزير (10) المامون قصة مهولة تكاد تقوم مقام كل ما سجل عن المامون من هذه الموبقات ، وخلاصتها ان وزيره هذا قد دخل عليه ذات يوم فالفاه بين وجوم واطراق ، وعلى نهاية الحذر والاشفاق ، بينما كانت رسله تترى مطيرة

(9) الذخيرة القسم الرابع المجلد الاول ص 110 وما بعدها .
(10) الذخيرة القسم الرابع المجلد الاول ص 114 ، 115 .

اليه خبر ضرب الخيل على بلد المظفر (11) ، واخفار الذمم ، وزلة القدم ، وانتهاك الحرم ، وحسب ابن مثنى ان تغير سيده بالوجوم والاطــراق المتوالى انما هو غضبة وتاثير وانفعال لما نزل بارض المسلمين فى مملكة بطليوس (فطفق (12) الوزير ابن مثنى يبسطه ويقبضه تارة يسليــه ، وتارة يحرضه ، وطورا يقول له : فيك الخلف فيما فات . ومرة يقول : قـد آن لك ان تنكر على الطاغية هذا الافتيات ، فما فهم منحـى ابن مثنى منه ، واعرض عنه وقال له : الا ترى هذا الصانع الفاعل الضائع ـ يعنـى عريف بنيانه ـ صبرت له واغضيت ، وفعلت به كيت وكيت ، فما زاده الا تنغيصا للذتي ، واستخفافا بامرني ، وتصغيرا لشأني ، واجتراء على سلطانـــي ، وهبت ريحه العقيم تقعد فى غير شيء وتقيم فسقط فى يد ابن مثنى وانكسر انكسارة تبينها ابن ذي النون فيه ، ولم يجد بدا ان قال له«هون عليك والكل طوع يدك ، وناهيك ، وأنا أكفيك)

وتسير القصة الى نهايتها لتعرض علينا ابن ذي النـون سادرا فـــى صغائره ، وابن مثنى سائرا فى الأخذ بيده لاستدراج عريف بنيانه وترويضه على ارخاء عنانه .

والقصة كما ترى تعبر عن الحرمان من العواطف الدينية والقومية باجلى بيان ، لاسيما وهي على لسان شاهد عيان ، ولا مجال فيها لتشكك او تقدير احتمال ، فان متابعة سير الاحداث فى مملكة بني دنون تظفرنـا بظواهـــر تلفت الانظار الى مصداق هذه الافادات ، وان الباحث ليستجلى فـى النطاق المحدود من اخبار مملكة طليطلة التي وردت وترد فى سياق هـذه الفصول بدوات حقد مشبوب ، وعناد مجنون ، جنحا بالمامون الى مـدى غيــر مامون ، فمن المعروف منذ بداية امره ان الخلاف شجر بينه وبيـن سليمان

---

(11) تشير القصة التي اختصرها هنا الى خبر نفوذ فردناند الى منطقة لوزيتانيا اى الى هجمته الاولى عام 449 على مملكة بطليوس فى عهد المظفر بن الافطس ، ونزوعه الى احتلال مدن التراب الاسلامي (بازوولميقة) واجلاء السكان عن المنطقة . انظر الذيل الثاني فى مجلة المناهل العدد الثاني ص 337 ، ص 346 . وقد تكون الاشارة الى هجمة فردناند الثالث على نفس المنطقة للنزول على مدينة قلمرية عام 456 ، انظـر عدد المناهل المذكورة ص 344 .

(12) الذخيرة القسم الرابع المجلد الاول ص 115 .

ابن هود صاحب سرقسطة حول مدينة وادي الحجارة (13) وما اليهـا من مراكز وحصون وكلها مما يرجع لعمل طليطلة بني ذي النون ، ويبدو ان سكان منطقة النزاع هذه قد كان هواهم مع سليمان ابـن هـود صاحـب سرقسطة ، فخاض المامون حربا عوانا (14) مع سليمان مدى ثلاثة اعـوام من عام 435 الى آخر عام 438 ، وكانت طوالا نكدات علـى مناطـق حدود الثغرين ، وقد كان هذا ذهابا من المامون فى الاصرار على اخـذ الثار للهزيمة التى الحقها به سليمان ابن هود على يد ولده احمد المقتدر (فيمـا بعد) الذى استطاع ان يضم وادي الحجارة ، وان يحصـر المامـون فـي ((طلبيرة (15))) اسيرا ، ولم يفهم عنه الا بايعاز من والده سليمان الـذى يبدو انه آثر ان يقف عند هذا الحد تعففا ورعاية ، ولكن عناد المامون قـد جمح به الى آخر المطاف ، فلم يتحرج ـ وهو المجرب الذي لا يخفى عليـه ما فى الاتكاء على هؤلاء النصارى من محظور ـ من ان يندبهم للانتصاف له وأخذ الثار فلاذ بالطاغية ((فرديناند)) ، الذي دفع بكتائبه فانهمكت مخربة مدمرة فى اراضي سرقسطة وكانه يخدم بذلك حركة الاسترداد عن طواعية ورضا من مسلمة الجزيرة ، واذا بصاحبها سليمان ابن هود ينزع الى المزابدة عند الطاغية نفسه ، فانقلب هذا على المامون ولوى أعنة فرسانه فى اليوم التالي ليخرب أراضى طليطلة بموجب الأجر المضاعف من ابن هود ، وظل الطاغية يلعب على الحبلين ، ويخرب لصالحه تراب المملكتين ، وأمعن المامون فـي اللجاجة ، غير راكن الى أناة أو روية ، فسارع للجنوح الى ((غارسيا))صاحب نافار (نبرة) والاستعداء به على أخيه ((فرديناند)) ، ومن تم أصبح الاخوان النصرانيان يتقاذفان ـ على ما بينهما من تنافس ـ الملكين المشتبكين فـي ساحات النزال ، كما يتقاذف اللاعبون الكرة فى ميادين الألعـاب ؛ وفـي غمار ذلك فتح ((غرسيا))حصن ((قلهرة)) فى ارض صاحب سرقسطـة وضمه الى غنائه وأسلابه ، وكانه رزق ساقه الله اليه فى طريقه لقطة فـي صحراء لا مالك لها ، ولا فى أرجائها ساكن

---

(13) وهي المعروفة ايضا بمدينة الفرج .

(14) انظر البيان المغرب لابن عذارى الجزء الثالث الصحيفة 277 وما بعدها .

(15) المقصود بها هنا طلبيرة التي تقع على نهر التاجو غرب طليطلة وليست (طلبيـرة) الواقعة فى غرب الجزيرة اى فى منطقة البرتغال الحالية .

وما همد حمى المامون الا بوفاة صاحب سرقسطة سليمان ابن هود، وبتدخل المتدخلين لايقاف وقائع يندى لها الجبين لمجرد السماع ، فضلا عن الفرق فى حمئتها الى الأذقان .

ولقد تطور حقد المامون مع الزمان ، وشاخ معه عناده ، حتى اذا الحق به المعتمد بن عباد الهزيمة يوم اختطف قرطبة من بين فكيه ، حسبما عرفنا من صفحات سالفات ، جن جنونه ، وطغى فيه العناد ، وبطر الفلواء ، (16) فلم يحجم فى سبيل استرداد قرطبة والظفر بالانتقام عن التدني لخدمة مقاصد « الفنش » فى بلاد الاسلام ، ونلقاه حسبما ياتى ـ فيما سيحكيه الملك عبد الله صاحب غرناطة سمسارا ، وجابيا ، ومخذلا ، وراس حربة فى سياسة الطاغية ، فكان بذلك المثال المطابق لحالة الانهيار التى انتهت اليها سير هؤلاء الرؤساء كما عرضها علينا المؤرخ ابن الكردبوس سابقا فى كتابه الاكتفاء (17)

وبعدها ناتى باسم الظافر المؤيد بالله المعتمد بن عباد رابعا لهؤلاء الفرسان الثلاثة ، وقد يكون هذا مركزه الطبيعى فى الترتيب لو قسمت المسؤولية بالسوية بين من كان لهم ضلع فى ذلك الملم الذى نزل بالجزيرة ، ولكن مقومات شخصية المعتمد واتساع مملكته ، وارث زعامته الدينية والادبية ، كل ذلك قد اقامه كبيرا لملوك عصره ، والخصم الأصيل الذي استهدفه الفنش فى الاول والاخر ، وذلك مصداق قول ابن الخطيب (18) اثر ذكره وفاة فرديناند : (وقام بعده والده فشغل بابن عباد) .

وفى موضع آخر يسجل بن الخطيب نفس الملاحظة فيقول : (19) (لما تكالب الادفونش) (الفنش) بن فردلاند على الاندلس بعد آخذه طليطلة ضيق بالمعتمد ، واجحف فى الجزية التي كان يتقي بها على المسلمين عاديته).

---

(16) انظر المصادر المشار اليها فى الصفحة رقم 352 من مجلة « المناهل » العدد : الثالث .
(17) تاريخ ابن الكردبوس ط المعهد المصري بمدريد ص 57 .
(18) اعمال الاعلام قسم الاندلس بيروت ص 184 .
(19) انظر الاحاطة الجزء 2 تحقيق للاستاذ محمد عبد الله عنان ص 110 .

والواقع ان الفنش قد استهدف في المعتمد ما استهدفه والده فرديناند في المعتضد ، ونعرف من فصلين سابقين (20) أن خطة فرديناند قد قامت على تقويض معنوية ذلك الشامخ الذى كانت تتطلع نحوه الآمال للتخليص ، ونصطفيه للانقاذ في ذلك الظرف العصيب (21) ، وقد كان لفرديناند ما أراد كما عرفنا في ذيل سابق عند التعرض لحصار اشبيليه ، وتحليل الوقائع الحلفية والهجمات النفسية التى اودت بمعنوية المعتضد عباد ، وحولته نفسيا وجسميا من حال الى حال .

والآية في هذا الكبير المذنب بين الصغار المذنبين أنه لم يطو نفسه وأنفاسه على ما كان منه ، ولا ناور ولا داور ليدرأ عن نفسه الجرم المشهود ، ولا ورى بصنيع الآخرين فعل صاحب غرناطة الذى جعل وكده في كتاب « التبيان » أن يكشف عن خساسات وسيئات الملوك المعاصرين ، وكانه يقول في نفسه ، على وعلى هؤلاء الخصوم الناقمين يارب العالمين ؛ ولكن المعتمد كان بميزاته وبجميع قسماته على غير المستوى المالوف من المتملكين والمترئسين ؛ فقد فتح عينيه على حجم وخطورة ما قدمت يداه ، ووعى كل الوعي ماكان منه ، أو صدر باسمه ، فاعترف به اعترافا غير مشوب ، ففي كتابه جوابا على كتاب الفنش (22) قبيل معركة الزلاقة ، يعترف ـ كما ترى ـ بالمقدور على هذا الوجه المسطور : (ونسال الله المغفرة فيما أتينا في أنفسنا وفيهم من ترك الحزم ، واسلامهم لاعاديهم ، والحمد لله الذى جعل عقوبتنا توبيخك وتقريعك لما الموت دونه)

ومن آية أخذه نفسه بما قدر وكان ، أنه أقدم على التكفير عنه بعزمته الكبرى على استصراخ المرابطين من وراء البحر ، وتلك التى كان الاندلسيون قبلها ، وعندها ، وبعدها ، يعدونها فلتة الفلتات ، وصنع من يداوي داءا بداء ، او يتقي من الرمضاء بالنار ، وقد كانت الاسرة

---

(20) القسم الثاني من ذيل وتعليق مجلة « المناهل » العدد الثاني .ص 342 ، وانظر القسم الثالث بالعدد الثالث 343 وما بعدها .

(21) انظر مخطوط القسم 2 من الذخيرة في ترجمة الوزير الفقيه أبي حفص عمر بن الحسن الهوزني .

(22) انظر الكتابين في الحلل الموشية .

العبادية بالذات تتوجس قبل غيرها الخيفة من ظهور امر المرابطين ، وبين العدوتين بوغازهما العجاج ، وكان ذلك مما ازعج المعتضد عبادا في يقظته ومنامه ، (23) ثم جاء اليوم سليله المعتمد على الله وهو يرى بمنظاره الاندلسي رؤى احلام والده ومرئيات ملاحمه دانية كفلق الصبح ، ولكنه اقدم غير وجل ولا هياب من ارتقاب غروب العز والسلطان ؛ وذلك ما جعل الأندلسيين وغيرهم يرون في تزعمه قضية استجاشة امير المسلمين للانتصاف للاسلام ، تكفيرا معدودا في كفة الحسنات ، وعائدة اي عائدة تلوي بلسان الميزان الى الوراء ؛ وفي هذا المعنى نقرا عند ابن الأبار : (24)

(ومما يوثر من فضائله ، ويعد في زهر مناقبه ، استعانته على الروم بملك المغرب حينئذ ـ وهو يوسف بن تاشفين ـ وسعيه في استقدامه ، وجده في ملاقاة الطاغية ملك النصارى ، والايقاع به بالموضع المعروف بالزلاقة في رجب سنة تسع وسبعين واربعمائة ، وبدخول اللمتونيين اذ ذاك الأندلس تسببوا الى خلعه ، مع معرفته بحسدهم له ، وانعكاس نصرهم اياه خذلانا وقهرا ، وتنبيه وزرائه على ما كان منهم قبل استجاشتهم والاستنصار بهم ، فآثر الدين على الدنيا ، وانف للاسلام من الاصطلام)

وهذه وجهة نظر ، ووجه بريء في الدفاع يطالعنا بصيغ شتى حسبما جاشت به عواطف الأندلسيين وغير الأندلسيين ؛ ولكنه لا يبريه ولا ينجيه امام التاريخ ، وهذا هو الأصل في ان نكبة الاسلام في تلك الجزيرة قد قرنت به ، بينما عواطف الناس قد ثارت لنكبته ، ثم اذا هي تحف به في حياته وبعد مماته ، فسالت المآقي دموعا على ماساته في القديم والحديث ، وبالنثير والنظيم ، وصدق ابن الابار (25) حين قال : (ورزق من الناس ، حبا ورحمة ، فهم يبكونه الى اليوم)

والواقع انه لا يسع الباحث وهو يسجل ضعفا في شخصية المعتمد على الله مثلما سجلها على الآخرين ، الا ان يجعل نصب عينيه وذهنه جملة

(23) المعجب للمراكشي ط سلا 58 ـ الحلة السيراء ج 2 ص 52 .
(24) الحلة السيراء ج 2 تحقيق الدكتور حسين مؤنس ص 54 .
(25) الحلة السيراء تحقيق وتعليق : الدكتور حسين مؤنس الجزء 2 ص 54 ـ 55 .

مقومات المعتمد الشخصية ، الفكرية منها ، والخلقية والخلقية،وهي في جملتها تمثل قائمة عريضة لشيم الكمال ، ونعوت الجلال التي اضفاها عليه مترجموه او معاصروه ، ومن بينهم الملك عبد الله صاحب غرناطة ، والمعتصم بن صمادح امير المرية ، وهي الخلال الحميدة التي تغنى بها الشعراء،وسارت مسير الشمس،وانتظمت ناحية الشرق والغرب ،وجاءت كلمة صاحب المعجب لتعبر عن جملة ما قيل ، وعن حقيقة ما هنالك ، بالرغم عما تنفح به من اعجاب وما قد يقال من انها صادرة عن عاطفة الرثاء لتلك المأساة ، وذلك حين قال : (26) (واذا عدت حسنات الأندلس من لدن فتحها الى هذا الوقت فالمعتمد هذا احدها بل اكبرها)

وقد لا يرى المطلع المستقصي ان هذه الكلمة تجيش بعاطفة او تشي بمبالغة ، فان مما يطالعك في سير العباديين أن من مميزات هذه الأسرة العربية من بين الأسر الحاكمة ، على عهد الطوائف ، انها كانت على ارث كبير من الخلال والفضائل ، وانها لتتراكم في شخصية عميدهم المعتضد عباد ، بل وتتصادم ايضا مع خلائق ونقائص ، فيبدو محمولا على اكثر من وجه على السنة رواة اخباره ، ولقد قيل في ذلك الفظ ، المعروف بفظاعة السطوة ، وشدة القسوة ، والماكر المخاتل ، المشهور بالكياد والولوغ في الدماء ، والمحموم بلذاذات النساء ، انه ذلك (الخير) (27) العف ، الطاهر الأردان ، وليكن هذا مما يتناقض او يتالف في شيات الخيل ، او في اخلاق بني الانسان ، فانه في الحالتين يدل على بسطة في الخلال ولا مراء ، والمهم أن سليله المعتمد قد انتهت اليه جملة فضائله ، باستثناء (28) ما سنسمع عن حزمه ، وتجافى عما كان

(26) المعجب ط سلا ص 59 .
(27) الاحاطة تحقيق الاستاذ محمد عبد الله عنان ج 2 ص 109 .
(28) حلاه الاستاذ عبد الوهاب عزام رحمه الله بالحزم في كتابه : (المعتمد به عباد) ، ولا اعرف له وجها ، اما عند القدامى فلم يعرف نعته بالحزم الا على لسان صاحب المعجب (ط سلا ، ص 78) ، وفي موقف بعينه ، وذلك في معترك معركة الزلاقة ، حيث اتفق الطرفان ان تكون أيام الجمعة والسبت والاحد ، ايام سلم واستعدادات وفي يوم الاثنين يكون اللقاء ، وبني امير المسلمين يوسف بن تاشفين الامر على ان الملوك لا تغدر ، واطمان الى الاتفاق ، فاما المعتمد فيقول صاحب المعجب : (انه اخذ بالحزم فركب هو واصحابه شاكي السلاح) وقال : (انه لا يظن هذا الخنزير الا مضمرا الغدر باتفاقه على هذا مع المسلمين) .

مرهوبا في مهولات والده من بطش وفظاظة ، وسوء نية وغلظة (29) حتى لقد اصبح السلام مخيما على بلاطه ، وفرائس الوزاء والكتاب ، والشعراء ، والغاشية ، والخدمة ، والأتباع قد استنامت للاطمئنان والهدوء بعد خفقانها الدائم ، واصبحنا نجد وصف الرحمة ، يجمل المعتمد على السنة المؤرخين ، والعواطف الانسانية تشع من ماثور اخبار سيرته في رعاياه الاقربين والأبعدين ، فنزاهته منصوص عليها (30) وهي من انسانيته ومن اعز ما يظفر به في سير حكام امتحنهم الله بما لا طاقة لهم به ، وينقل ابن الخطيب (31) في الاحاطة عن قوم قالوا كلهم انه : (مشكور السيرة في رعيته) ، ومرة اخرى يقول ابن الخطيب في اعمال الأعلام (32) : (وكان حسن السيرة رفيقا بالرعية) .

واذا كانت مثل هذه المرويات او المسندات العموميات مما لا يدخل في باب اليقينيات ، لان اكثرها قد يكون من الشائعات التى يحرص على اذاعتها المقربون وصنائع العهد ، والناعمون بافضال صاحب الامر ، فان ابن بسام (33) يقدم لنا نصا لا يرقى معه الشك الى فضيلة رفقه برعيته ، وهي ايضا من خالص انسانيته ، واعني رسالة من بين رسائل صدرت عن بلاط المعتمد اشبه ما تكون بالمنشور المعمم على ولاة المملكة بمجابهة نازلة من حالات الطوارىء ؛ ويقول ابن بسام مقدما هذه الرسالة :

واخرى خوطب عنه بها قواد البلاد في هذا المعنى : الحال مع العدو قصمه الله بينة ، لا تحتاج الى جلا ولا كشف ، معروفة لا تفتقر الى نعت ولا وصف ، ومن لا تمكن مقاواته ومخاشنته فليس الا مداراته وملاينته ، وكان فل الله حده وفض جنده ، قد اعتقد الخروج في هذا العام الى بلدنا عصمها الله باكثف من جموعه في العام الفارط ، واحفل وابلغ في

---

(29) انظر : (ذيل وتعليق القسم الثاني) العدد : 2 من مجلة : « المناهل » ص 340 .
(30) المعجب ط سلا ص 59 .
(31) الاحاطة ج 2 ص : 109 ، تحقيق الاستاذ محمد عبد الله عنان .
(32) أعمال الاعلام ، ط بيروت ، ص 157 .
(33) انظر مخطوط القسم الثاني من الذخيرة لابن بسام بالخزانة الملكية بالرباط تحت رسم : 7753 ، (ترجمة المعتمد) 0

استعداده وأكمل ، الا ان الله تعالى يسر من انابته الى السلم مايسر ، ونظر لنا من حيث لانستطيع ان ننظر ، ووقع الاتفاق معه على جملة من المال تقدم اليه ، ونستكف الشر المرهوب لديه ، فكم حال كانت بخروجه تتلف ، ونعمة بايدي طاغيته تنتسف ، والرعية حاطها الله في هذا العام على ما يقتضيه ماعم البلاد من الفساد ، وشملها من جائحة القحط والجراد ، وتكليفها اداء شيء من المال الذى (التزم) مرتفع ، واخذها بالمعونة على ما ناب ممتنع ، فلم يبق الا ان يميل بهذه الكلفة على الخدمة (34)ميل العموم ونجريهم فيها على احسن مجارى التحرير والتقويم،وهي حال تقتضى من كل من احسن التامل ، المعونة فيها ، والمبادرة بحسب طاقته اليها ، وقد ادرجت طي رقعتي هذه (قندافا (كذا) يسمي الخدمة قلبك فيه ويرسم على كل واحد منهم ما توجبه حاله وتقتضيه، فتقدم فيما نصصت من الحال اليهم ، وكلمهم بما يخفف الحال عندهم ، ويسهلها لديهم (35) ولتقبض ذلك كله في اعجل ما يمكن ، فالحاجة اليه وكيدة ، والضرورة حافزة شديدة .)

وهكذا نقع في هذه الرسالة ـ كما ترى ـ على اكثر من افادة قد نعرض لبعضها بعد ، ويهم منها الآن ما جلت عنه هذه الرسالة من شفقة الراعي على رعيته ، حيث عز على ابن عباد ان يصطلح على ابناء شعبه القاصمان ، غضب السماء التي شحت بغيثها فكانت سنتهم عجفاء نكراء ، ونقمة العدو الغالب الذي التهم اللحم والشحم بروادف الاتاوات ثم هر في وجوههم لتعريق العظام ، فاوحى الى المعتمد اهتمامه وهمه ، ان يضع عن شعبه ولو في تلك السنة ما تحمله كواهله من مفروضات الاتاوات ، ويميل بها على الولاة الذين تطلق عليهم الرسالة اسم (الخدمة) ، وهو تدبير وان لم يكن جذريا باعفاء او بتخفيف من الاساس ، فهو يدل على عناية وعلى نظرة انسانية تهزان الباحث ليسلط استثناء على ذلك التعميم الذى شمل في كلام

(34) بفتح الخاء والدال والميم اي بصيغة الجمع « بمعنى الولاة والعمال
(35) ما بين الهلالين غير موجود في احدى مخطوطات الخزانة الملكية .

الامام ابن حزم (36) السالف جميع الحاكمين الاندلسيين الذين فرضوها على رعاياهم ضرائب ومكوسا ، من غرائب المفروضات ، على كل محصول وكل انتـــاج .

ويذكر في هذا المقام تصرف المعتمد تجاه الوشاية بالشاعـر ابـــي الوليد ابن زيدون وذلك في صدر دولته ، وفـي معتـرك دسائس البـلاط المعهودة ، لاسيما في ساحة العباديين التي عجت بالمتنافسين والمتنابزين ، فلقد دفع به حفاظه على عهد والده .ـ وذلك من انسانيته ـ أن يلقي دبـــر أذنه بوشاية الواشين ، وبما طيروا اليه من تحريض عبـر القصيدة الميمية المعرضة بوزير والده وشاعره العظيم ، واذ هو يرد علـى القصد ويلجـــم بالعنان ، فيعارض الغرض بنفس الروى والميزان ، وكانه يوحي بصنيعـه المنظوم أنه يرد على النغمة بمثلها شأن الألمعي الذي يسمع ويرى خاطرات نغمات الجنان ، مثلما يتصرف في هاجسات ونغمات اللسان (37) ، ومــن أبيات قصيدته المعارضة قوله :

خنتم ورمتم أن اخــون وانما   حاولتم ان يستخف يلملـم

---

(36) رسالة (التلخيص في أوجه التخليص) ضمن المجموعة التي نشرها الاستاذ احسان عباس بعنوان الرسالة الاولى منها : « الرد على ابن النغرلة » ، ص 176 ـ 177 ، وتجد النص المطلوب المتعلق بتعداد أنواع الضرائب في صلب (الذيل والتعليق الثالث من هذا البحث بمجلة المناهل عدد 3 ص 357) ، ويلاحظ أن الاستاذ محمد عبد الله عنان قد نقل بعض نصوص رسالة ابن حزم هذه (التي تتضمن أحكام ابن حزم على حوادث عصره) عن المستشرق الاستـاذ « بلانيوس » وأشار في التعليـق رقـم 2 الصحيفة 406 من كتابه (دول الطوائف) الطبعة الاولى الى ان تعليقات ابن حزم على بعض فضائح عصره قد وردت في رسالة (نقط العروس) لابـن حـزم واحـال على الصحائف 83 ـ 74 ـ89 والواقع ان ليس في كتاب « نقط العروس » شيء من هذا القبيل سواء فيما نشره المستشرق « زيبولد » سنة 1911 ، في مجلة الدراسات التاريخية بغرناطة عن نسخة مكتبة ميونيخ ، أو فيما نشره الاستاذ شوقي ضيف في مجلة كلية الآداب بالقاهرة ، المجلد 13 ج 2 ، ديسمبر 1951 عن مصورة الجامعة العربية الماخوذة من نسخة مكتبة بايزيد عثمانية ، فالظاهر أن الاستاذ الكبير اعتمد ساعة التعليق على ما في ذهنه من غير رجوع الى جزازاته .

(37) المعروف أن لأبي الوليد بن زيدون قصيدة ميمية في المقام وبذلك فان القصـــة تمخضت عن ثلاث ميميات ، وقد أورد نصوصها الكاملة الفتح ابن خاقان في قلائـــد العقيان طبع وتصحيح عبده سليمان الحرائري ص 15 وما بعدها (ترجمـة المعتمـد على الله) .

واحسب ان الباحث الذى يضع فى حسابه جملة هذه المقومات على سبيل الاحتراس حين يهم بادراج المعتمد بين ضعفاء الشخصية من ملوك الزمان ليلا حظ أيضا أن مما يدعو اليه التمحيص أن نقف عند صفتين اثنتين من صفاته تبدو ان وكأنما لا يلتقيان ولا ينسجمان مع ضعف الشخصية بحال ، واولهما :

الذكاء (38) ، والمعروف انه يقى صاحبه من هذا الضعف الذى من شانه ان ينال من حصانة الكمال ويجعلها ــ كما حدث ــ فى خبر كان .

والثانية : (شدة الملوكية) : وهي صفة حلاه بها صاحب المعجب (39) ، وانفرد بصيغتها هذه ، ووقع فيها حقا على ما أراد ان يعبر عنه من اصالة في المعتمد تجعله بمنجاة من تسرب الضعف اليه فى مهام ملكه ، وواجباته نحو رعيته .

فكيف جاز ان نسلكه بين ضعفاء ملوك جيله والأمر على ما سمعت من ذكائه وشدة ملوكيته ،والواقع أن تاثير النشاة والبيئة ليطغى بمقياس طغيان الدوافع النفسية على كل خلة وحلية ، حتى اذ لم يمتد الطغيان ، فان بوادره سرعان ما تظهر بين الفينة والاخرى فجاءة للعيان ، ولاسيما اذا كانت النشاة فى ظل التاثير والتاثر على النحو الذي عرضت سالفا مظاهره ان فى الملوك او فى رعاياهم على السواء ، فلمثل تلك النشاة عملها فى تغيير احوال النفوس بل وفى تلوين الطبائع الانسانية بلون مخصوص ، حتى ليبدو الانسان الماخوذ بنشأته وكانه لا ينزع الى عرق او الى ارث من شيم الآباء .

وحين نتتبع دبيب هذا التاثير فى اعماق المعتمد بن عباد ، نلاحظ الى جانب ما شرحته فى سياقه قبل صفحات ، ان تعثرات والده العظيم فى إخريات ايامه عقبى لسورة الاستعلاء النصراني قد كانت ــ كما هو منتظر ــ فواجع مترادفة لأسرة بنى عباد ، عاينها المعتمد وذاق مرارتها ،

(38) المعجب ، ط سلا ، ص : 59 .
(39) المعجب ، ط سلا ، ص : 79 .

ورهب مغباتها ، وبذرت في خلده هاجس اليأس من عودة الصولة وامتداد السلطان ، وفق ما كانت تخططه الآمال ، وذلك عقبى لاستغـــلاظ هـــذا الظهور النصراني ، يوما بعد يوم ، واطباقه على الضمائر والغرائز ، وتحكمه في المعايش والمصاير ، وهو الهاجس الذى عمل عمله ، واصبـح ـ لـــو حاولنا التحليل ـ في صراع مع ما ركب فيه من ذكاء ، ومع اصالتـــه او شدة ملوكيته ، والمعروف أنه يحدث في مثله أن يسفر الصـــراع ـ ان صدق التقدير ـ عن اختفاء فضيلة الحزم من قائمة مزايـــاه ، وشمائله ، وفضيلة الحزم هي أم مقومات رجل الحكم التى لا تســد مسدهـا خلــة في هذا السبيل ، وقد كانت عماد شخصية والده المعتضد عباد ، واولى صفاته المذكورة عند مترجميه (40) . وكما علمت ، فالمعتمد شهد علــى نفسه بغياب الحزم عنه ، وأفاد بعلة العلل في أصل نكبة الجزيرة ، بضياع « طليطلة » ، والى ان يشاء الله .

ومن هنا نلاحظ أنه بينما كان المعتضد والده على حد قوله :

قسمــت زمانــي بين كد وراحة ++ فللراى اسمار وللطيـب آصـال

وامسى على اللذات واللهو عاكفا ++ وأضحى بساحات الرآسة اختال

اذ بابنه المعتمد يجعلها قسمة ضيزى بين مجالس اللذة وبين ساحات الرآسة ، فقد كان مذهبه الاستغراق في لذاته ، والاناخــة الـــى الروض والنسيم بين ندماه وقيانه ، حتى في أحرج الظروف ، وعنـــد اخطـــر المهمات ، فانصرف عنه الحزم ، وادبر التدبير ، ولنتذكر مغبة هذا فــي حادثـة مالقة الآنفة الذكر (41) ، حيث جافاه الحزم حين اهطع الــى لهوه ، (وتفرق اصحابه في ارتياد الفتيات ، وطراد اللـذات (42) الـــى أن سال عليه سيل باديس العظيم ، ولم ينج بغير راسه وسلامة مهربه ،

---

(40) الاحاطة ، ج2 ، تحقيق الاستاذ محمد عبد الله عنان ، ص : 119 .
(41) البيان المغرب الجزء : الثالث ، ص : 273 .
(42) قلائـــد العقيان ، ط : الجزائري ، ص : 20 ـ 21

وما جنى منها غير حقد عباد والده ، واذا صدقنا ما سجله الفتح عنه فـي قلائده (43) ، فقد انصرف عنه الحزم مفهقها في وجهه ، حتى يوم نازلته جيوش أمير المسلمين في قصره (وهو لاه براح ومحيا وسيم ، زاه بفناة تنادمه ، لاه عن هدم انس هو هادمه)

ويلحص ابن الابار (44) هذا ويزيد عليه فيقول : (كـان منغمسـا في اللذات ، عاكفا على البطالة ، مخلدا الى الراحه ، فكان ذلـك سبـب عطبـه) .

وكما استغرقت المعتمد لذاته ، استغرقته خلة صديق شبابه الشاعر النابه ابن عمار ، ويتراءى هذا الصديق من خلال أشعار الخلين شريكه في تلك اللذات ، في الحضور والغياب ، وفي اليقظة والمنام .

وتعرض علينا أخبار سيرتهما هذا الصديق عمـدة بلاط اشبيلية ، وركيزة ابن عباد التي يعتمد عليها في ساحة الرياسة ، ومفكرته التي تفكر له في شؤون الدولة ، حتى يفرغ لمجالس الرياض ، وأنس القيان ، بمنجاة من مشاكل تبعات الملك ومهولات أخبار تكالب الاعداء .

ولعل قصه هذه الخلة مما يدخل ايضا في عداد مهولات حياة المعتمد على الله ، فلقد كان منذ مطلع شبابه مخمورا بهذا الشاعـر الشاب الـذي سلكه المعتضدوالده بين شعراء البلاط ، وكانت عواطفه نحوه تؤججها يوما عن يوم مفاتن مسابح شعرية يرأودان فيها ، ومغامرات ، صبابات ، ما زال ذكر قصر ((الشراجيب)) يوحي بصورعنها ملتهبات ، وما زالت الافياء تحت اشجار ((شلب)) الفيحاء تتراقص حتى اليوم حالمات بمشاهد فتون هذين الخلين الغارقين في نعيم وجحيم اللذاذات .

وقد تبسط المؤرخون في القصة بالمدهش المطرب ، ومـن الأول الـى الأخير ... فترى المعتمد يصطفى خله لوزارته منذ أسند اليه والده

---

(43) ص : 23 .
(44) الحلـة السيـراء ، ج : 2 ، ص : 54 .

المعتضد ولاية شلب ، ثم اذا هو يسلم الوزير جميع أموره حتى غلب عليه غلبة شديده (45) لفتت الانظار ، فعالجها المعتضد بالتفريق بين الخليلين ، وقد يكون ذلك لما فشا من سوء السمعة ، علما بأن الوزير (كان أهتك من الامير سترا ، واقل عن اللذات صبرا) وقد يكون هذا التفريق بينهما قد املته الخشية من تاثر الأمير صديقه في زيغه ، وفي شكوك مزاجه ، وهي شكوك قد تتطور الى تجديف حسبما نمت على مدى تلك الاشعار الشعرية التي تطارحها الصديقان اجازة بينهما عندما ارتفع صوت المؤذن وهما على قارعة الطريق .

وقد يكون المعتضد انما تعلق تلقائيا بهذه الأسباب لينسجم معوعيهالباطن الذي أوحى اليه ايضا أن هذا الخديم الذي تلقف مقاليد الولاية من الأمير ، ليس من معدن بني عباد ، ولا هو من طبقة الحكام ، ولا كان له أو لسلفه في الجزيرة عز او جاه ، فقد يجوز ان ينظم في سلك شعراء البلاط ، ولكنه من الدون فيالناس ، فكيف أصبح (يشارك المعتمد فيما لا يشارك فيه الرجل أخاه ولا أباه)

وجاءت الأحداث بعد وفاة المعتضد بالجواب عن السؤال ؛ فسرعان ما اصطفى المعتمد وزيره المبعد بالامس ، وءاثره بولاية ((شلب)) مرتع ظباه ، وكناس غزلانه ، وكأنه أئتمنه فيها على ذكريات لن ترعاها غين هذا الشاعر الصديق الأمين ، ولكنه لم يصبر على فراقه كما قيل فقربه ليصبح وزير بلاط اشبيلية مثلما كان من قبل وزير ((شلب)) واستفرقت المعتمد مجالس لهوه (والقى له ما بيده وقلده تدبير دولته (46) .

وبهذه الافادات التاريخية اصبح بيد الباحث الآن الخيط الاول الذي سيأخذ به في تحريك الأحداث حتى يستجلي مسالك العطب التي حاقت بالمعتمد عقبى لانغماسه في الملذات كما قال ابن الأبار .

---

(45) المعجب للمراكشي ط سلا ، ص 66 وما بعدها - الحلة السيراء ج 2 ص 131 .

(46) ما بين الهلالين من تعبير شيخ مؤرخي الاندلس ابن حيان كما نقله عنه ابن بسام .

واول ما ناخذ به أن القصة التاريخية عند القدامى ، وكما نقرأها في الترجمة المسهبة التي عقدها ابن بسام لابن عمار في القسم الثاني المخطوط من الذخيرة وكما نقرأها في قلائد الفتح ، ومعجب المراكشي ، وحلة ابن الأبار ، قد تبسطت أيما تبسط في الحديث عن أوليته ، وسجلت بيان وتبيين وبفواصل واسجاع ، وضاعة أصله ، وتفاهة منبته ، وأبانت بما قصت وبما أسندت عن خمول امر بداياته ، وأنه كان (أحد (47) من امترى أخلاف الحرمان ، وقاسى شدائد الزمان ، وبات بين الدكة والدكان) وطالما خذ الأرض برجله متكسبا بشعره ، منتجعا أهل الجدة والجدوى في أفقه ، الى ان حالت الحال ، وواتاه الحظ ، وابتسمت دنياه ، وعندها حالت أيضا رواية المؤرخين ، وأخذت تخب في مجال الاشادة بذكائه ، وبراعته ، وبعصاميته التي انتشلته من المزبلة في مجتمعه ، وأقامت في صدارة ذلك المجتمع ، وعلى منصة رياسته ، هذا الذي (ليس (48) له ولا لأسلافه في الرياسة في قديم الدهر ولا حديثه حظ ، ولا ذكر منهم أحد) . واذا هو اليوم مخطوب الود من الأمراء أنداد الملوك أمثال ابن صمادح صاحب المرية (49) ، ومرهوب الجانب من الكبراء ، ذوى الوزارتين رجال السيف والقلم ، مشهود له بالبراعة والذكاء الوقاد حتى على ألسنة الأعداء ، فهو مرة في لسان الفونش : (رجل الجزيرة (50) ، وتارة يعده الأول بين رجالها الثلاثة ، وبعده أبو بكر بن عبد العزيز ، صاحب اشبيلية وثالث الثلاثة المستشار ((شيشناند)) .

وقد فتحت المصادر المشار اليها بهذه البسطة عن حالتى الباساء والنعماء ، والادبار ثم الاقبال في دنيا ابن عمار ، المجال لتحليل دوافع مغامراته في تصريف شؤون الدولة ، ومخاطراته في سبيل الظفر بمكاسب لسيد البلاط ، تحليلا مركزا على طريقة استنطاق العقدة النفسية (51)

(47) نص ابن بسام في القسم الثاني من الذخيرة بطالعة ترجمة ابن عمار .
(48) المعجب للمراكشي ، ط سلا ، ص : 66 .
(49) الحلة السيراء ج 2 ، تحقيق وتعليق الدكتور حسين مؤنس ، ص : 85 .
(50) المعجب للمراكشي ط سلا ، ص : 69 .
(51) انظر الفصل بعنوان المعتمد على الله وابن عمار في كتاب (المعتمد بن عباد) للاستاذ علي أدهم .

التي تركب الانسان ، وذلك عندما يكتب له ان ينسلخ من نقائصه الأصيلة او العارضة ، فيعمد ليسدل بينها وبين الناس دثارا قصيفا من النسيان .

ويأتي بعد المصادر المشار اليها او قبلها ـ باعتبار ما سأشير اليه ـ الفصل الخامس من كتاب التبيان الذى ألفه الامير عبد الله فى دولة قومه ، ونشر باسم : (مذكرات الامير عبد الله) ، ففى هذا الفصل سجل الأمير ، وهو شاهد الأحداث ، والمنغمس فيها الى الأذقان ، عدة افادات مهمة مركزة على تعقب سيئات ابن عمار ، بالذات ، ومشحونة فى نفس الوقت بموحيات ذكية يفصل معها القارىء عن الكتاب وهو يحمل التبعات فى الأخير على المعتمد بن عباد ، الذى يخصه بكلمات الاجلال والاطراء وحتى بالدعاء لاخفاء ذلك المراد ، ومع العلم بهذه المقاصد ، فالمنظور اليه فى المقام الآن انما هو صنيع الأمير المؤلف الذى يمد الباحث بالعناصر التي تظهر ابن عمار صادرا فى تصرفاته عن عقده النفسية ، ودلالته بهذا أوضح من دلالة صنيع المصادر المتقدمة ، كما يتضح للعيان .

وهكذا ، فعقدة النقص قد استحوذت على هذا الشاعر تجاه ماضيه البائس ، ومنبته الخامل ، منذ ألفى نفسه متحكما ومستعليا على ذوي الأصول العريقة ، والأمجاد المؤثلة ، وهذه كانت سلم الوصول فى زمانه ، والمقومات التي ينظر اليها فى اللامعين من رؤساء ابانه ، وبهذه الحقائق التى كانت ، ولا ريب تقلقه ، وترمضه ، وباستعدادات المحروم من الماضى المجيد ، والناقم المتشكك فى قدره تأصلت فى نفسه روح المغامرة ، ونزعة الوصولية ، والعض باسنان من حديد على ما اقتسره اقتسارا من زمانه ، وعلى ما ناله بفضل سيده وخدينه ، حتى يقتص بحاضره من ماضيه ، وحتى يجعل مكاسبه الباهرة فى الدولة كفاء مافاته فى العشيرة وفى القرية ، ومن ثم لم يتورع عن استغلال اى وسيلة ، او اجتراح اى كبيرة فى سبيل الحفاظ على مركزه ، وعلى مردود انتصاره على زمانه ، غير آبه لوضعية سيده أو مصالحه أو سمعته . وحتى هذه لم تسد المسد عنده لان عقدة النقص جمحت جموحها المهتاج فى نفسية من انتهت اليه اسباب السلطان والجاه ، ومن شغل

الناس باخبار براعاته فى نيل المقاصد العظام ، واطمان كل الاطمئنان الى مضاء اداته ، وفعالية وسائله في نصب الشباك ، واراغة قنائصه من أفذاذ الرجال ، فركبه غرور رعاد ، وقد كان قديما يتلوى ثعبانا صغيرا فى مهد خلده : منذ صارت اليه الوزارة فى شلب ، الفيحاء على غير انتظار ، ثم طارت منقبضته بكلمة المعتضد عباد الجبار ، فرفع ابن عمار عقيرته وقال فــى مطلع ميميته العصماء : (52)

على والا مــا بكـــاء الغمائم ++ وفى ، والا مانياح الحمائم

اما اليوم وقد انحنت له دنيا الأندلس ، وانتصب فيها شامخا بنــاء رفعته ، فقد عزم أن يرفع القواعد من الأساس لنسبه وأصله ، وأعلنه فخرا مكشوفا بقومه بني عمار ! حين طير رائيته المشهورة فى التشهيــر بأبــى بكر بن عبد العزيز صاحب بلنسية ، بعد ما تأكد انه كان عضـــد أبى عبــد الرحمن بن طاهر فى التخلص من يده ، وتدفقت من هذه القصيدة ابيات يتحدث فيها عن نفسه وقومه ومنها البيت الشهير :

كيف التلفت بالخديعة من يدي رجل الحقيقة من بني عمار

والمعروف ان ابن عباد سخر من بيت قصيد ابن عمار ، ومن بيـــت نسبه في قصيدة على نفس رويه وميزانه .

وكما عزم أمره على رفع القواعد لنسبه ، فقد عزمه أيضا على التخلص من شبح ماضيه ، وذلك (باتلاف أشعاره (53) التى قالها فــى الامتياح ، وقصائده المصوغة فى الانتجاع ، ومحو آثارها فما يوقف منها اليوم على شيء سوى أمداحه فى المعتضد عباد وما لا اعتبار به لنزوره)

---

(52) هذه هي مناسبة القصيدة كما ذكر ابن بسام فى ترجمة ابن عمار (انظر القسم : 2 من مخطوط الذخيرة بالخزانة الملكية بالرباط (7753) وارجع الى مناسبة اخـرى للقصيدة فى : الحلة السيراء ج : 2 ، ص : 148 ، وفيها يرد ابن الابــار على مــا اعتمده ابن بسام مناسبة ، ويعد ذلك من فاحش غلطه .

(53) الحلة السيراء جـ 2 ، ص 133 .

وقد ذكر الأمير عبد الله صاحب غرناطة فى كتاب التبيان (54) ، بعض تجليات هذا الغرور :

(وكانت العداوة الواقعة بينه ((ابن عمار)) وبين المعتمد علـى يـدى الرشيد ابنه ، فانه بفسوقه كان يتكبر على اولاده ، ويضيـق عليهـم ، ويسىء الصنيعة مع من يجب عليه اكرامه من قرابة سلطانه ، والمعتمد فـى هذا كله يصبر له ، ولأنه كان قد استمال النصارى ، واندخل معهم بحيلة ، فمتى مادهم امر من قبلهم وجهه اليهم ، فينجلى من أمرهم ما يضيق الصدر به ، وكل ذلك باموال رئيسه وسعادة أيامه ، وهو بجهله يعتقـد ان ذلـك لا يتهيأ الا بسببه ، ويرد الحس كله الى نفسه ، وكانت هذه المعانى ممـا احنق عليه المعتمد حتى عقب عليه بما كان جديرا به ، وأمكنه الله منه)

وفى هذا المعنى الذي سجله صاحب كتاب التبيان ، يلاحظ أن ابن عمار قد جهل بغروره فوق كل جهل ساعة شعر بان سيده قد خامره الشك فى اهداف وجهته الى مرسية ، فلما سلم عليه مودعا قال : (سر الى خيرة اللـه ولا تظن انني مخدوع) فاجاب ابن عمار : (لست بمخدوع ، ولكنك مضطر)

واذا صحت هذه الرواية بحروفها ، فقد تداخلت فيهـا الجهالـة والصفاقـة بـلا مـراء .

وتنير لنا طريق السير على هذا المنهاج الصادر عن العقدة النفسية عند ابن عمار ، فقرات اخرى يقدمها لنا ايضا الأمير عبد الله بن بلقين بـن زيرى (55) ، وذلك فى سياق حديثه عن الظروف التي تم فيها فرض الجزية عليه ، ومن مداخلات ابن عمار مع الفونش رجاء التعاقد على ان تكون غرناطة لبنى عباد ، وماوالها للفونش ، ثم التزامه بالالتزامات مرهقة لتامين مساعدته وتحقيق مطمحه ، وفى خلال هذه الافادات يقول الأمير عبد الله :

(وبقي ابن عمار مرتهنا بما جعل على نفسه للنصراني مـن كـراء ((بليلش)) (حصن قرب غرناطة) فى تبعات كثيرة وجرايات جسيمـة

---

(54) انظـر الصفحـة 81 .
(55) كتاب التبيان (مذكرات الامير عبد الله) ، ص : 72 .

يقطعها له ، ويعده بها ، وادخل سلطانه من ذلك فى تشغيب ، لأنه كان لا يريد ان يجعله يخلد الى راحة ، لكي يحتاج اليه فى تلك الفتنة ، لا يقر على ادخال ضرر على المسلمين ، ومتى ما كان المعتمد يسعى فى تهدين الأمر ، ونروم معه الصلح ، او تنشا مهادنة ، لا ينام فى نقضها واشعال نار الفتنة)

وهذا نص (56) فيما نرومه من تسجيل ظواهر المغامرة المنبثقة عن عقدة النقص ، التي نسير على هديها حتى الآن .

وعلى وفق معطيات هذه النصوص ، وبملاحظة ذلك التفويض الواسع الذى كان يتمتع به ابن عمار فى تصريف سياسة الدولة وفق هواه ، يبدو ان مصير دولة الجهاورة على ذلك الوجه (57) الذى اصطلح فيه البطش والغدر ، انما كان من صنع وحبك هذا الرجل ، ومن طرائقه الغادرة فى اغتصاب المكاسب ، لاسيما وقد كان على راس الحملة الاشبيلية التى اجابت صريخ عبد الملك ابن جهور ، وانطلقت لتدفع ـ كما سلف ـ غارة المامون على قرطبة ، واذا هي تتولى فجاة تلك (البطشة الكبرى) حتى لكان القصة بمفاجاتها المذهلة ضرب من الخيال ، او تلفيقة اسطورة .

وهو ... هو ابن عمار بذاته ، ذلك الذى عرفنا فى فصل سابق انه كان ايضا قائد كتائب اشبيلية التى انطلقت للدفاع عن ((مرسية)) يوم سير اليها المامون (58) ابن ذى النون جيشه الجرار المؤلف من مختلف قوات مملكته الكبيرة ، ومن تعزيزات قشتالية ، وجليقية ، فلم يتردد ابن

---

(56) انني اجعل دائما نصب العين الاحتراس مما يقوله الامير عبد الله حسبما نبهت على ذلك فى تعليق سابق ، والاطمئنان الى هذه النصوص التي يرجع الى انها لا تختلف معما يؤدي اليه تحليل اخبار ابن عمار بوجه عام .

(57) البيان المغرب ، ج : 3 ص : 257 ـ 261 اعمال الاعلام الجزء الخاص بالاندلس ط الرباط ، ص : 175 ، مجلة المناهل ، العدد : 3 ، ص : 352 .

(58) هذه الجولة الاولى نحو مرسية فى تاريخ المعتمد ، قد اختلفت الروايات العربية والاجنبية فى الدافع اليها ، ولا يهم بحثنا هذا تحقيق ذلك لان الامر يتعلق باظهار طريقة تصرف ابن عمار ، انظر مخطوطة القسم الثاني من الذخيرة (ترجمة ابن عمار) ، الحلة السيراء ، ج :2 ، ص : 120 ، وما بعدها .

عمار فى الاستنجاد بالفرنج (59) ، وقد لاحظت فى ذلك المقام (60) انهـا ظاهرة جديدة فى تصرف اشبيلية ، فهي من بركات ابن عمـار ولا مراء ؛ والرواية التاريخية المسهبة فى الحادث كرواية ابن الأبار فـى الحلـة السيراء ، تسجل أن الرشيد ابن المعتمد قد كان مرهونا عند صاحـب برشلونة كما اقتضاه تدبير ابن عمار الذى تمسك بابن عم كونت برشلونـة رهينة لديه ، وذلك لضمان تنفيذ صفقة المساعدة المعقودة بين الطرفين ؛ والمفهوم انه لا يدخل فى الحسبان (61) أن المعتمد صدق علـى عملية التراهن من قبل ، مثلما لم ندخل فى حسابنا ولا دخل فى حسباننا فى ذيل سابق (62) أن المعتمد فكر فى الاستنجاد بالنصارى ، فكلا الاجتهادين مـن بركات وزيره وتوريطاته ، لهفة منه على تحصيل المكاسب والانتصارات .

وان اعتذار ابن عمار عن زلته بقصيدته البائية المشهورة التـى يقول فى مطلعها :

اصدق ظنى ام اصيخ الى صحبى +++ فامضى لعزمى ام اعوج الى ركبى

لدليل على ان المعتمد ما صدر منه اذن لوزيره ولا رضي عن تدبيره ، ولكنه تعثر ـ كالعادة ـ فى موضع الأخذ بالحزم ، فعدل عن العتاب الـى العتبى كما قال مراجعا قصيدة ابن عمار بنفس الروى والميزان (63) :

لدى لك العتبى تزاح من العتـب +++ وسعيك عندى لا يضاف الى ذنب

---

(59) يطلق مؤرخونا اسم : « الفرنج » فى هذه المنطقة على اسرة الكونت ريموند برينجار الثاني المذكور حاكما لبرشلونة فى ظروف هذه الموقعة ، مثلما يطلقون هذا الاسم على سكان برشلونة بوجه عام ، والمعروف ما كان لهذه الامارة من اتصال وايام مـع مملكة سرقسطة بوجه خاص ، وانظر هـذا الاستعمال فى مذكرة الامير عبـد الله (الصحيفة : 80 ـ 81) وقد خالف ابن الابار هذا الاستعمال فاطلق عليهم اسـم الروم (الحلة السيراء الجزء الثاني الصحيفة 127 ـ 135 .

(60) ذيل وتعليق القسم الثالث انظر مجلة : « المناهل » عدد : 3 ، ص : 354 .

(61) انظر الحلة السيراء ، الجزء : 2 ، ص : 120 ـ 121 ـ 137 ـ 144 .

(62) مجلة : « المناهل » العدد : 3 ، ص : 354 .

(63) انظر قلائد العقيان تصيح الحرائري ، صحيفة : 102 ـ 103 .

وهذا مما يلفت النظر مرة اخرى الى ذلك التفويض الشامل الذى لم يكن من الحزم فى شيء وقصة الحزم المؤسية فى سيرة المعتمد قد عرفنا امرها قبل صفحات .

واذا لم التزم الترتيب الزمنى فى سوق الأحداث ـ ومنهاجي فى حل من ذلك ـ فنستطيع ان نعرض للجولة العبادية الثانية فى مرسية ، وذلك باثر هذه الأولى مباشرة ، وهي الجولة التى اطاح فيها ابن عمار بابي عبد الرحمن ابن طاهر ، والتي كانت فيها أيضا نهاية صولة ابن عمار ، وان لم تكن آخر مغامراته ؛ وان انكشاف عزمته على خيانة ملكه بالانتزاء على مرسية بعد الاطاحة بابن طاهر كما هو معروف قد رشح فى كلام المؤرخين بما نرومه الآن من تسجيل مظاهر الوصولية المغامرة فى جميع حركاته .

كما ان هذه الجولة التي استهدفت ((مرسية)) ابي عبد الرحمن ابن طاهر ، من شانها أن تضع يد الباحث ايضا ومرة اخرى على افادة ثانية حول موقف المعتمد بن عباد من تصرفات وزيره التى لا تنسجم مع اخلاقية ملكه المشهرة بحال من الأحوال ، ولنستمع لما يقوله ابن بسام : (ولما خبط ابو بكر بن عمار سمرات ملوك الأندلس بعصاه ، وتردد ينتجعهم بمكائده ورقاه ، وانما كان يطلب سلطانا ينثر فى يده سلكه ، وملكا يخلع على نفسه ملكه ، جعل ابا عبد الرحمن بن طاهر موقع همه ، ووجه امه)

وفى فقرة اخرى يقول ابن بسام ايضا فى الذخيرة اثر ذكر اعتقال الرشيد ابن المعتمد : (وابن عمار صاحب ذلك الرحيل والمعلوم فى امره والمجهول)

والكلمتان عن ابن بسام واضحتان فى ان الاطاحة بابي عبد الرحمن بن طاهر صاحب مرسية ، كانت من ارادة ابن عمار ، ووليدة طموحه لاصطياد مكسب باية وسيلة ، وعلى اى وجه ؛ ويبدو المعتمد وكانه براء من تلك البطشة فى مرسية التى يحق ان ندعوها بالكبرى قياسا على تلك التى انزلها بالجهاورة فى قرطبة .

ولو ان الباحث تطلع الى الداعي عند ابن عمار ليجعل أبا عبد الرحمن ابن طاهر بالذات (موقع همه ، ووجه أمه) كما عبر ابن بسام ، لتجلت له عقدة النقص عند ابن عمار في صورة أخطبوط باكثر من وجه الى جانب اكثر من رجل ويد ، وأيسر القول فيها أنها عقدة مركبة ، مشتبكة ، فهو غانم مكاسب بقطع النظر عن لون الوسائل ، حتى يعوض ما فاته ـ كما علمنا ـ في قديم زمانه ، وقد ظهر أنه اراد مملكة ، ولم لا ؟ فاذا كان ابن طاهر يدعي باستصحاب ابن عباد لترسيله ، فابن عمار متنبيء المغرب بشعره ، ولكن ، ما تكاد المقارنة تأخذ قرارها في نفسه ، وما يكاد ميزان المقارنة يستقر معتدلا في نقطة الوسط أمام ناظره ، حتى تثقل فجأة احدى كفتي الميزان بقنطار ثمين من حسب ونسب أبن طاهر ، ومن جاهه العريض ، وتراثه الطائل ، وترتفع معه الميزان الاخرى الى اعلى وكأن بها مسا من شيطان ، أطار فلسوه ابن عمار التاريخيه ، وقلب اردان جبته من قدام ومن وراء ، فتداعى لها ابن عمار وثارت نقمته على سداه المحظوظ ، وغدا ينسج له أحبولة الحرمان ، وكان ما كان ...

ويقرب لنا ابن الأبار في الحلة السيراء (64) نصا من تاريخ أبي القاسم محمد بن يوسف الشلبي ، يقدم لنا فيه جوابا عما يخامر النفس من تساؤل عن الطريقة أو الوسيلة التي لجأ اليها ابن عمار لاقناع المعتمد بمسايرته في مشروع فهم الملأ منه أنه مشروع ابن عمار ، بل يروى أن الترتيبات الاستثنائيه التي اتخذها والمعدات والالطاف التي كدسها لتكون في ركابه ، قد أثارت شك المعتمد في نوايا وزيره وخديمه ؛ وهي تلك الخلجة من شكه التي صور بها شكا محتشما على صفحات التاريخ ، فقد خلد هذه الخلجة في بيتين (65) من الشعر وجهها الى ابن عمار :

---

(64) ج : 2 ، ص : 123 .

(65) نبه ابن بسام على ان البيتين ليسا من شعره ، وانما تمثل بهما ، كما ان ابن بسام جعل مناسبة البيتين في الخروج الاول الى مرسية عندما افضى الحال الى اعتقال الرشيد ابن المعتمد رهينة في يد « ريموند الثاني » ، وقد تداخلت في بعض المصادر اخبار الجولة الاولى مع اخبار الجولة الثانية ، فتغير تبعا لذلك وجه مناسبة بعض القطع الشعرية المروية عن المعتمد ومن ابن عمار .

تغير لي فيمن تغَيّر حارث +++ وكل خليل غيرته الحـوادث
أحارث ان شوركت فيه فطالما +++ نعمنا وما بيني وبينك ثالث

وكان الجواب من ابن عمار قصيدة طويلة حتى تستوعب انفاسا طويلة ينفث فيها تقريف خصومه الذين سماهم فى شعـره بالرجـال الخبائـث ، أولئك الذين آثاروا اليوم الظنون عند ملكه ، وهي القصيدة التى مطلعها :

لك المثل الأعلى وما أنا حارث +++ ولا أنا فيمن غيرته الحوادث

وبطريقة عفوية وبصيغة واضحة فى الاعتداد والتيقن يقـول المؤرخ ابو القاسم المذكور فى تاريخه : (وعاد لابن عمار فى ((مرسية)) رأيه للمبرى، ولج به ميلانه ، فذكر للمعتمد ، أو زور ، أن أهل مرسية قـــد داخلـــوه وخاطبوه ، واظهر كتبا ذكر أنه كتبوها اليه)

وهذه افادة مؤرخ من ((شلب)) أم القرية ((شنبوس)) التى نبث فيها ابن عمار ، وهذا المؤرخ أيضا مذكور بين تلامذة ابن القصيرة ، فهو شاهـد العصر ، وراوى ما كان يروج قريبا منه أو من أستاذه الذى انتهى اليـــه الخبر اليقين بحكم المعاصرة وطبيعة العمل ، والافادة بعد هذا مما يدخـل أيضا فى حيز الحزم الفائت فى هذا المقام ، ولاسيما بالنظر للشك الذى داخل المعتمد بن عباد .

واحسب أنه ما بنا من حاجة بعد الى تتبع مسيرة ابن عمار ، تجـــاه صديقه الفونش فى الشمال ، او فى أرجاء شرق الجزيرة نحو مملكة بنى هود بعدما اختطف عبد الرحمن (أو عبد الله) ابن رشيق ((مرسية)) من بين فكيه ، وعلى الطريقة الأندلسية ، وبنفس وسائل ابن عمار الغادرة ، فلندعه وما نصب نفسه له من التوقل بين مسالك حصون ومعاقـل تلـك الأرجاء ، والتصعيد فى ذراها بحثا عن العلياء الضائعة فى اشبيلية التـى انقطعت اليوم بينه وبينها جسور العودة الى تلك الأفياء .

ولا ريب أن للمرحلة التى قطعناها فى تتبع خطاه ، قد أمدت هـــذا البحث بما يكفى لاظهار وجه الضعف فى شخصية المعتمد بن عباد ، مما

يتيح الحافه قصدا وبعد كامل الاحتراس بزمرة أولئك الملوك والأمراء الضعفاء الذين باعدت بينهم وبينه شقة طويلة من هذه الصفحات .

ويبقى بعد هذا أن نتابع الأحداث على ضوء هذه الخلفيات حتى نقف على مصداق ما سجلته في الذيل الثالث (66) عن (ضعف شخصيات الوجوه الجديدة التى واجهها الفونش فى الرقعة الاسلامية ، وكان لها تاثير فى مجرى الأحداث وقيام الظروف التاريخية التى أحاطت بقضية المعتمد بن عباد) ، وذلك لما كان لهذا الضعف من (أثر فى تيسير مهمة الفونسو ، وسرعة انجازه ، وتوسع طموحه) بعد أن وجد نفسه كما قلت فى طالعة هذا الفصل يواجه (فى الرقعة الاسلامية من الجزيرة نفسيات وقابليات واستعدادات تختلف بليونتها ، وطواعيتها ، وسلاسة مقادتها عما كان يلاقيه والده فرديناند من حنكة وحزم وشدة مراس ...)

وهكذا سنكون مع القارىء مرة أخرى فى ركاب الملكين الفونسو السادس والمعتمد ابن عباد ، ونلتقى مرة أخرى مع وزيره ابن عمار وهو يتصرف بوحى من عقدته النفسية فى المشاكل الخارجية لمملكة اشبيلية .

الرباط عبد الرحمان الفاسى

---

(66) انظر مجلة : « المناهل » العدد : 3 ، ص : 355 ـ 356 .

نقد

الهجرة من الفردوس المفقود وفتوى وتعليق

عبد القادر العافية

صدفة وقع فى يدى المجلد الخامس من صحيفة معهد الدراسات الاسلامية بمدريد الذى يضم بعض الدراسات المختلفة ، الا انه مما اثار انتباهى ، بحث للدكتور حسين مؤنس تحت عنوان :

«أسنى المتاجر فى بيان احكام من غلب على وطنه النصارى ولم يهاجر ، وما يترتب عليه من العقوبات والزواجر» . «لابى العباس احمد الونشريسى» .

بدأ الدكتور هذا البحث بانتقاده للمستشرق ماركوس جوزيف ملر الذى نشر جزء من فتوى الونشريسى هذه فى فصل من كتابه «احوال المهاجرين الغرناطيين فى افريقيا» وذلك سنة 1866 م.

وبعدما انتقد الدكتور المستشرق ماركوس عدم نشره النص كاملا تحدث باختصار عن مصدر النص الذى هو كتاب «المعيار» للونشريسى ، ثم عرف بالمؤلف ناقلا ترجمته من «نيل الابتهاج» لاحمد بابا التنبوكتى كاملة وبالحرف .

وبعد ذلك يقول الدكتور حسين مؤنس : و«اذا نحن تأملنا هذه الترجمة على ضوء نص الفتوى التى ننشرها اخذنا صورة عن مستوى العلم ونوعه فى المغرب الاقصى خلال القرن التاسع الهجرى وتبينا ان العلم وقف اذ ذاك عند مستوى الجمع والحفظ والتكرار ولا زيادة(!؟) كما كان الحال فى المشرق اذ ذاك(1) الى ان يقول : «فهذا الشيخ الذى تصدى لابداء رأى فى مصير المسلمين المتخلفين فى الاندلس لم يكلف نفسه عندما جلس يكتب هذه الفتوى عناء البحث عن احوال من يفتى فيهم وتقصى اخبارهم وتعرف الاسباب التى تضطرهم الى البقاء فى الاندلس وتحول بينهم وبين الهجرة الى المغرب..» (2).

وهكذا يسترسل الدكتور فى انتقاد «الشيخ» الونشريسى مركزا انتقاده على عدم تقدير الونشريسى للظروف وعلى جهله بالتاريخ ذاكرا بأن هذا المشكل اى موضوع الفتوى تكرر فى العالم الاسلامى عدة مرات، ومع ذلك كان موقف علماء الاسلام غامضا فيه ، ويرى الدكتور حسين مؤنس ان هذه الحالة التى عرضت على الونشريسى للافتاء فيها حدثت مثيلتها على عهد المازرى العالم التونسى فأجاب بفتوى مخالفة لفتوى الونشريسى وبهذا كان المازرى موفقا فى فتواه ، لانه قدر الظروف والملابسات و . . .

وفى هذا البحث ينتقد الدكتور حسين مؤنس ، الونشريسى ويحاول اظهاره بمظهر الشخص الذى يجمع النصوص من غير امعان وتدبر . ويصفه بالمفتى «الذى لا يكلف نفسه عناء البحث فيمن يفتى فى شأنهم..» مع عدم القدرة على انتقاء النصوص .

ولعل انتقاد الونشريسى بهذا الشكل فيه من التعسف ما فيه. وفيه كذلك عدم رؤية المشكل من جميع جوانبه ، لان فتوى الونشريسى ، المعاصر لهذه الفترة المؤلمة من حياة الامة الاسلامية بالاندلس ، قد يكون

لها من الاهداف ما يخفى علينا فى الوقت الحاضر . ونرى الونشريسى فى فتواه الثانية التى الحقها الدكتور مؤنس ـ تتمة للموضوع ـ بالفتوى الاولى ، نراه يصرح لنا بمخاوفه على هذه الفئة المسلمة التى توجد ببلاد الحرب ، ومما جاء فى هذه الفتوى قول الونشريسى :

«وكيف نعتمد على زعمهم بالوفاء مع ما وقع من هذا التوقع ، ومع ما يشهد له من الوقائع عند من بحث واستقرأ الاخبار فى معمور الاقطار ، والخوف على النفس والاهل والولد والمال ايضا من شرارهم وسفهائهم ومغتاليهم وهذا تشهد له العادة ويقر بها الوقوع..»(3) فالونشريسى رحمه الله بنى فتواه على ما تأكد لديه من سوء احوال المسلمين تحت حكم الصليبين الحاقدين وكانه يتنبأ بعهد تنصيب محاكم التفتيش بالطرد النهائى ، وبالمآسى الكبرى التى عانى منها المسلمون فى شبه الجزيرة فيما بعد هذه الفترة . ولذلك كان يرى انه لا امل للمسلمين فى ان يحتفظوا بدينهم مع بقائهم فى دار الحرب وتحت سيطرة المسيحيين الاسبان .

وهذا التشاؤم من سوء مصير المسلمين بالاندلس بدأ فى عصور مبكرة كما يلاحظ ذلك عند ابن خلدون وابن الخطيب وغيرهما(4) وهذا التشاؤم كان مبنيا على وقائع واحداث معروفة معلومة ـ ومن ذلك مثلا ما يشير اليه صديق الدكتور ومساعده الدكتور على محمود مكى فى تقديمه لـ«نظم الجمان» ـ لابن القطان ـ وهو يتحدث عن مظاهر الضعف فى الدولة الموحدية حيث يقول : . . وهذه الاندلس تخرج عن ايديهم ـ اى الموحدين ـ ويصطرع فيها ثوارها المسلمون من امثال ابن هود وابن مردنيش وابن الاحمر وعشرات من صغار المنتزين ، ثم يغتنم النصارى هذه الفرصة فيؤثرون من نار العداوات والاحقاد والفتن ، وهكذا تقع الحواضر الاندلسية الكبرى فى ايديهم واحدة بعد الاخرى حتى لا يكاد القرن السابع ينتصف الا والاسلام قد انحصر فى جانب صغير من جنوب شرقى شبه الجزيرة»(5) .

ولابن الخطيب فى هذا الباب رسائل دامية ومما جاء فى واحدة منها قوله : «صلوا رحم الكلمة ، وآسوا بانفسكم واموالكم تلك الطوائف

المسلمة . أدركوا رمق الدين قبل ان يفوت ، بادروا عليل الاسلام قبل ان يموت»(6).

وهكذا رأينا رمق الدين لم يدرك ففات ، وعليل الاسلام لم يسعف فمات . . . ! فهل كان في وسع فتوى الونشريسى بعد اكثر من قرنين من الكوارث والمآسى ان تدرك رمق الدين فى الجزيرة فلا يفوت . وأن تسعف عليل الاسم فلا يموت .

مع العلم ان المناطق التى سيطر عليها النصارى كانت تتحول بكيفية مدهشة الى مناطق مسيحية كما يذكر ذلك الدكتور نفسه وهو يتحدث عن سقوط طليطلة .

والعجيب فى الامر ان هذا كان يحدث والممالك الاسلامية لا تزال قائمة داخل شبه الجزيرة فكيف يمكن ان يكون الحال وقد سقطت غرناطة آخر مملكة اسلامية بالاندلس .

فهل بعد هذا كنا ننتظر من الونشريسى فى اول القرن العاشر الهجرى ان يحث اخوانه المسلمين على البقاء فى شبه الجزيرة مع ان مصيرهم كان معروفا نتيجة للاحداث السابقة

وينبغي الا ننسى ان الونشريسي عاش مأساتين عظيمتين ــ زيادة على المآسى الاخرى التى كان يتخبط فيها العالم الاسلامى فى هذه الفترة بالذات ــ وهما مأساة سبتة فى يد البرتغاليين سنة 818 هـ ــ 1415م وكان ذلك قبل مولده بست وعشرين سنة (7) لا فى حياته كما يذكر الدكتور ! ! ثم مأساة سقوط غرناطة فى حياته (887 هـ ــ 1492 م) وما ترتب على ذلك من احداث . تلك الاحداث التى كانت ذات اثر بليغ فى حياة المسلمين فى ذلك العصر.

وعلى اثر هذه الاحداث الاليمة بدا ان بقاء المسلمين فى شبه جزيرة الاندلس هو ضرب من المغامرة التى لن يكون مآلها الا الذوبان فى بوتقة المسيحية الحاقدة .

واذا كان الامر كذلك فهل كان من السهل على عالم مسلم مثل الونشريسى ان يفتي بما يجعل شعبا مسلما يتحول الى نصارى بعد فترة يسيرة من الزمن ؟

وهل كان من السهل على الونشريسي - رحمه الله - ان يضحى بهذا الشعب العربى المسلم ويشجعه على البقاء تحت حكم الصليبيين مع أن التجارب فيما قبل الونشريسي وبعده دلت بوضوح على ان النصارى الاسبان يتكالبون على المسلمين الذين يظلون تحت نفوذهم بقساوة ضارية وبحقد انتقامي جارف لا يرحم !! ولا يكنهم عن ذلك ما كان يظهره المسلمون من ولاء واخلاص والتزام عدم المساس بشؤون الدولة . ! لان الهدف عند الحاقدين هو محو كل مخالف فى الدين واللغة. ولذلك فهم لا يقنعون ممن يدخل تحت حكمهم ونفوذهم الا بالتنصير وتغيير لغة الكلام ، او التقتيل والطرد بعد السلب والنهب(8) .

ومن هنا يبدو ان الونشريسي - رحمه الله - قدر ظروف المتخلفين من المسلمين فى شبه جزيرة الاندلس ، وخشي على مصيرهم ومصير ابنائهم واحفادهم ذلك المصير الذى لن يكون غير الذوبان المرير ، والانسلاخ الاليم .

ويضاف الى ذلك ان العصر الذى قدر فيه الونشريسي هذه الظروف وخشي فيه من سوء المصير كان عصرا يعطى للعقيدة المقام الاسمى فى حياة الناس لان العقيدة عندهم هى كل شيء ، فمن اجلها الحياة ومن اجلها الموت .

واذا كان العصر اليوم لا يبالى فيه بعض الناس بقضايا العقيدة فان ذلك العصر كانت فيه قضية العقيدة قضية حساسة جدا .

ومن المؤسف ان الاسلام الذى يحترم عقائد الغير لم يجد من العقائد الاخرى المعاملة بالمثل لا !

وعليه فالونشريسي قدر ظروف المتخلفين ، لانه عرف ان مآلهم هو التنصير مهما بقى معهم من (ذوى الرئاسة والقيادة) ان كان تحت الذل رئاسة وقيادة !! (9) .

ويبدو ان مفتى المغرب المعاصر للاحداث كان يتصور بوضوح ان مصير بقايا المسلمين الاندلسيين لا يتهدده التنصير فحسب بل يهدده ـ زيادة على ذلك ـ استغلال هذه العناصر فى خدمة الدولة المسيحية التى ستستفيد لامحالة من جهود المتخلفين ، ومن خبرتهم فى الميادين الصناعية والتجارية والزراعية . ثم ان الاستفادة من جهود هؤلاء وخبرتهم ستستغل بطبيعة الحال ضد المسلمين الذين هم بالعدوة الاخرى والذين يقترب منهم الخطر شيئا فشيئا .

هذا زيادة على ان المهاجرين قد تكون حظوظ عودتهم احسن فيما اذا تخلصوا من كابوس الاهانة والذل والاكراه على التنصير . وتخلصوا من الرقابة الشديدة التى لا ترحم !

واذا كان الامر هكذا فمن هو الذى لم يقدر الظروف؟ مع ان التاريخ يشهد بأن فراسة الونشريسى كانت صادقة ومقدرة للظروف والملابسات وخاصة اذا علمنا ان الاندلسيين المهاجرين تكون منهم جيش فى المغرب كان يترقب الظروف المواتية ، وتكون منهم الاسطول الجهادى فى المتوسط والمحيط ذلك الاسطول الذى ظل شوكة فى حلق الاوربيين ما يزيد عن قرنين من الزمن(15) وكونوا كذلك خلايا من المجاهدين شاركوا بها اخوانهم بالمغرب فى الدفاع عن الثغور والسواحل . كل هذا بالاضافة الى الدور الحضارى الذى لعبه هؤلاء بالمغرب .

ومن هنا يبدو ان بقاء تلك الجماعات العربية المسلمة فى شبه جزيرة ايبيريا بعد انهزامها امام عدوها الشرس لم يكن فى صالح الاسلام فى نظر المعاصرين للاحداث كالامام الونشريسى رحمه الله اذن فالرجل كان يربأ بأولئك عن ان يصيبهم ذل هوان التنصير بعد مرارة الانهزام ، ويأبى عليهم ان ينسلخوا من عروبتهم واسلامهم ليذوبوا اذلاء فى مجتمع معاد حاقد .

اما ما يفترض الدكتور من ان المتخلفين لو بقى معهم من ياخذ بيد من ذوى «القيادة والرئاسة» لكان وضعهم غير الوضع الذى صاروا اليه فلعل ذلك مجرد افتراض لا تؤيده الوقائع التاريخية . ويؤكد الدكتور

افتراضه هذا بأن «المستعربين» اى المسيحين الذين كانوا تحت حكـم المسلمين بالاندلس احتفظوا بشخصيتهم بالرغم من كونهم ذميين لانهم بقى معهم روءساوءهم .

ونرى ان السر في ذلك يرجع الى تسامح الاسلام فى معاملته لاهل الذمـة قبل اى اعتبار آخر ، وهذه «المعاملـة» هـى التـى افتقـدهـا المسلمون فى شبه جزيرة الاندلس ، وبافتقادها اصبحوا امام اختيارين لا ثالث لهما : الهجرة او الكفر !

وحتى ما يشيد به الدكتور من تشجيع المازرى للمتخلفين بصقليـة على عدم الهجرة منها ، فان ذلك لم نر له نتائج ملموسة ، بل على العكس من ذلك فان المصير النهائي كان واحدا بالرغم من اختـلاف الفتوتيـن واختلاف زمنهما وظروفهما و... و...

ثم ان الدكتور حسين مؤنس لا يكتفى بأن يصف الونشريسى بالجمع للنصوص من غير فهم، وبضيق الافق الفكرى فقط، بل يصور لنا الونشريسى بمظهر الرجل الثرى الغنى الذى يتبجح فى النعيم (11) مع ان الذى تؤكـده المصادر هو ان الونشريسى رحمه الله كان من الجنود الاوفياء فى ميدان العلم والبحث .. والونشريسى نفسه قد عرف الهجرة والاغتراب عن الوطن والتنقل من بلد الى بلد . فهو لم يولد بفاس وانما جاء مهاجرا اليها وهو فى نحو الاربعين من عمره الا انه جند نفسه لخدمة العلم والمعرفة. وعاش فى فاس مستور الحال ـ كما يقال ـ لا اقل ولا اكثر .

وتصف لنا المصادر الونشريسى هذا بانه كان يركب حمارا ، وفى المغرب الحمار لا يركبه الا ضعاف الناس لان حمر المغرب صغيرة الحجم لا يملكها فى الغالب الا الضعفاء ، وعلى حماره كان يحمل كتبه ومراجعه ليذهب بها خارج أسوار المدينة ليراجع ويحرر وينقل . ولعل سبب ذلك هو ان الرجل لم يكن له المكان الذى يستطيع العمل فيه بعيدا عن الضوضاء والمنغصات. وفى المساء يعود بكتبه على حماره. وكـان يلبـس (قشابـة) جبة صوفية(12) وهذه «القشابة» بالمغرب هى لباس المتواضعين والفقراء(13)

ثم ان علماء المغرب فى ذلك العصر كانوا بصفة عامة من اميل الناس الى التقشف والزهد. وتحدثنا المصادر بان الكثير منهم كان يقسم حياته

بين المرابطة للجهاد وبين التدريس والبحث والتاليف وكانوا يغتنمون كل فرصة للحث على الجهاد ومكاتبه الملوك والامراء في موضوع تحرير الثغور والدفاع عن الوطن، الى غير ذلك من المواقف المشهورة.

فالونشريسي رحمه الله لم يفت فتواه وهو في بحبوحة من العيش كما صوره الدكتور ، بل افتى فتواه وهو يسكن دارا متواضعة للاحباس بفاس ، ويستعين بمكتبة تلميذه وصديقه الفقيه الفرديسي وانما افتى فتواه وهو ممتلىء ايمانا وغيرة على الاسلام ومقدر قدر العقيدة والكرامة والشهامة والنبل.

أفتى فتواه وهو يدعو المهاجرين الى الاستيطان بالمغرب وفاس منه بصفة خاصة ويحبذ لهم المقام في هذه البلاد المسلمة والمرحبة في نفس الوقت .

ولنفرض ان الونشريسي افتى ببقاء المسلمين في الاندلس . . . ولنفرض ان المسلمين استجابوا لهذه الفتوى . فهل كان ذلك سيعيد للاسلام عزته في تلك الربوع ؟ ام كانت تلك الجموع ستذوب في الشعب الصليبي المتربص الحاقد ؟ وهل كان في استطاعة البقايا من الاندلسيين المسلمين ان تنتصر على فكرة المحو والابادة التى آمن بها القساوسة والحكام في شبه الجزيرة ؟ وهل كان في استطاعة هذه البقايا ان تحافظ على اللغة العربية وعلى الدين الاسلامي ؟ وهل كان في استطاعتها كذلك ان تقوم بدور ايجابي في المنطقة حتى تحافظ على شخصيتها المستقلة ؟(I4).

ان المتتبع للخطة الصليبية الحاقدة والغير المتفهمة لاى اعتبار يرى انه من الصعب جدا ان يكون الجواب بنعم عن الاسئلة السالفة(I5).

ونرى ان الدكتور لا يحمل الونشريسي مسؤولية هجرة الاندلسيين فحسب بل يحمله كذلك ما اصابهم من محن اثناء هجراتهم مع اننا اذا تتبعناالقضية تاريخيا نجد ان صدرها يختلف عن عجزها ـ ان صح التعبير ـ فالذين فروا بدينهم بعد سقوط غرناطة وقبل تنصيب محاكم التفتيش كانوا يلاقون داخل المغرب ترحيبا ومواساة . ومن امثلة ذلك ما حدث

للجالية الاندلسية الغرناطية التى هاجرت فى عهد الونشريسي نفسه والتى رحب بها المغرب على جميع المستويات ، فالقائد على المنظرى وجماعته من المهاجرين الاندلسيين صادفوا ترحيبا من قائد المجاهدين بشفشاون ومن السلطان محمد الشيخ الوطاسى وبرضى كل من على بن راشد قائد المنطقة والسلطان الوطاسى نزلت تلك الجماعة معززة مكرمة حيث ساعدها القائد والسلطان بالمال والمواد على تجديد بناء مدينة تطوان(16). ولم يقف الامر عند حد المساعدة المادية فحسب بل توطدت العلاقة بين القائد المنظرى المهاجر وأمير المجاهدين بشفشاون الشريف الحسنى على بن راشد الى درجة المصاهرة حيث زفت الشريفة الحسنية الست الحرة الى حفيد القائد المنظرى الاندلسى المهاجر.

هذا وامثاله هو الذى كان فى عهد الونشريسي وأمام سمعه وعلمه. ونرى المصادر الموثوق بها مجمعة على ان محمد الشيخ الوطاسى رحب بالمهاجرين الاندلسيين ايما ترحيب(17) .

أما ما يشير اليه الدكتور من محنة المهاجرين الاندلسيين فان ذلك كان بعد هذه الفترة وبعد موت الونشريسي رحمه الله بأكثر من قرن ! وعليه فالونشريسي لا يتحمل تلك المسؤولية التى حملها الدكتور اياه فيما اصاب الجاليات التى هاجرت بعد موته بأكثر من قرن من الزمن ونرى ان تحميل ذلك له فيه ضرب من الخلط بين وقائع التاريخ ، واذا كان هذا الخلط بين الاحداث التاريخية قد يغتفر لفقيه كرس حياته للعكوف على المسائل الفقهية . فهو لا يغتفر بالنسبة لمؤرخ عصرى مختص خبير بالمنهجية الحديثة فى البحث التاريخى.

ففى الوقت الذى تجمع فيه المصادر على ترحيب سلطان المغرب وعماله بالمهاجرين الاندلسيين نرى الدكتور يشير الى احداث وقعت بعد قرن من الزمن تلك الاحداث التى يصفها لنا المقرى فى نفح الطيب وأزهار الرياض ببالغ الحسرة والالم(18) فالونشريسي توفى سنة 914 هـ على أكثر الروايات فى حين ان ابن عسكر فى الدوحة يجعل وفاته قبل ذلك(19) وعملية الطرد ـ النهائى ـ التى حدثت بعد تنصيب دواوين التفتيش ـ كانت سنة 1017 هـ .

وهذا الخلط بين الاحداث التاريخية فيه تضليل وخاصة ونحن فى عصر يلذ لبعض الناس فيه ان يسمعوا التنقيص مـن رجال الدين والنيـل من علمائه . سواء كان ذلك بحق او بغير حق . وفى تعليق سابق لاحظنا كذلك الخلط في حادثي احتلال سبتة وتلمسان . .

وبعدما صال الدكتور وجال يصدر حكمه علـى فتوى الونشريسـى فيقول : «ولا حاجة بنا الى تحليل الفتوى فهى فى غير حاجة الى تحليل لانها فتوى تقليدية ، ونلتمس الحجج على الترتيب : من القرآن والحديث والفقه وفي اثناء ذلك تؤول وتفسر كما تريد»؟ وهكذا حكم على الفتوى بأنها «تقليدية» لانها تعتمد على القرآن والحديث والفقه !

وهل ياترى كان للمفتي ان ياتي بحججه من غير هذه المصادر ؟

وكيف كان يمكنه ذلك ؟

ومن المؤسف اننا نرى ان الدكتور الذى ناقش الفتوى من الناحية الفقهية ـ زيادة على الناحية التاريخية ـ لم يعرف لنا الفتوى عند الفقهاء ولست ادرى اذلك يرجع الى كونه ليس من اهل الجهة ؟ ام ان تعريف الفتوى سيغير رأينا فى الموضوع من اساسه . وبذلك لا يبقى معنى لتلك المناقشة الحادة وتلك الضجة الكبيرة التى اثارها الدكتور .

فالفقهاء يعرفون «الفتوى» بأنها «اخبار بحكم شرعى بدون الزام»
وبهذا يتجلى ان الهجرة كانت عملا اضطراريا ولم تكن ناشئة عن فتوى الونشريسى . اذن فلماذا كل هذه الضجة وهذا النقاش الحاد . . . ومن هنا يبدو لنا ان الونشريسى رحمه الله مظلوم فى هذه القضية التى امطر فيها بوابل من الاوصاف اقل ما يقال فيها انها تسعى الى التقليل من شأن الرجل ومن قيمته العلمية . ومكانته الدينية .

ولعله كان جديرا بالدكتور حسين مؤنس ان يقدر جهود الونشريسى فى الميدان العلمى وفى ميـدان التاليـف والبحث والتدريس خاصة وان الدكتور نفسه يعانى ذلك ، ثم ان الونشريسى رحمه الله خلف لنا تراثا

هاما تفتخر به المكتبة العربية الاسلامية ، فالرجل الف تآليف مفيدة وخدم العلم خدمة يستحق عليها كل تقدير وتمجيد(20).

لكن الدكتور بدلا من ان ينظر الى الرجل الكبير بهذا المنظار نظر من زاوية اخرى ، فوصفه بالتحجر العقلي، وباللامبالاة، وبالجهل بالتاريخ وعدم القدرة على انتقاء النصوص و .و. . لكن بالرغم من ذلك فان الونشريسي سيظل هو الونشريسي صاحب المعيار وصاحب التآليف المفيدة وشيخ الجماعة فى عصره ، وسيظل من المجاهدين الذين خدموا الاسلام والعروبة . وسيظل كذلك مفخرة من مفاخر هذه البلاد ورائدا من رواد العلم والمعرفة .

تطوان　　　　　　عبد القادر العافية

---

1) لا يمكن مقارنة الحالة العلمية بالمغرب بما كان عليه الحال فى المشرق فى هذه الفترة وهنا ينبغي الرجوع الى ما كتبه علي بن ميمون (ت - 917 هـ) فى (الرسالة المجازة فى احكام الاجازة) والى كتابه (بيان غربة الاسلام) فبالرجوع الى المصدرين السالفين نرى ان مؤلفهما يضع مقارنة ويأسف لما عليه الحال بالمشرق فى هذه الفترة بالذات ، الكتاب الاول مخطوط بالخزانة الفاسية بفاس ، والثانى مخطوط بالخزانة العامة بالرباط تحت رقم 2123 ك .

ويقول لدكتور شوقي عطا الله الجمل : «وقد كانت فاس فى ذلك الوقت من اهم مراكز العلم والمعرفة فى العالم العربي والعالم الاسلامي» المصدر :

مجلة «المناهل» العدد 1 ، السنة 1 ص : 242 و 243 وزارة الثقافة - الرباط

2) صحيفة معهد الدراسات الاسلامية بمدريد المجلد 5 ص 133 السنة 1957 وهنا جاء فى كلام الدكتور : ولم يكلف نفسه عندما (جلس) يكتب هذه الفتوى

يقول ابن عسكر فى الدوحة ص 38 : حدثني غير واحد ممن لقيته ان كتبه كلها مورقة غير مسطرة وكانت له عرصة يمشي اليها فى كل يوم ويجعل حمارا يحمل عليه أوراق الكتب من كل كتاب ورقتين او ثلاثة فاذا دخل العرصة جرد ثيابه وبقي فى قشابة صوف يحزم عليها بمضمة جلد ويكشف رأسه وكان اصلع ، ويجعل تلك الاوراق على حدة فى صفين والدواة فى حزامه والقلم فى يد والكاغد فى الاخرى وهو يمشي بين الصفين ويكتب النقول ، هذا شأنه» ، هكذا يصف لنا ابن عسكر الونشريسي فى عمله ، فهو اشبه ما يكون بمخططي التصاميم الهندسية فى الوقت الحاضر ، وبما أن استاذنا الدكتور اعتاد ان يكتب وهو جالس ظن ان الامر كذلك بالنسبة لابى العباس فمن يؤكد لنا يا ترى ان الونشريسي كتب فتواه وهو جالس ؟ ولعل الرجل قد يكون مصابا بداء المفاصل (وجع فقر الظهر) الذى يتعب الجلوس صاحبه خاصة وان صاحبنا عندما افتى فتواه هذه كان فى المرحلة الاخيرة من عمره ويؤكد الدكتور على أن الفتوى صدرت عام 901 هـ اى قبل موته بـ 13 سنة

3) نفس المصدر - اى صحيفة المعهد - ص 189 - وهذه الفتوى تتضمن تخوفات كثيرة وهامة .

4) انظر ازهار الرياض ج 1 ص 58 وما بعدها وانظر نهاية الاندلس للدكتور عبد الله عنان ص 175

5) مقدمة نظم الجمان لابن القطان ص — ع — ط باشراف معهد مولاى الحسن للبحوث بتطوان

6) ازهار الرياض ج 1 ص 65

7) يثبت الدكتور حسين مؤنس ان سبتة احتلت في حياة الونشريسي ؟ ويثبت كذلك ان تلمسان احتلت عام وفاته حيث يقول في تعليقه ص 172 من صحيفة العهد ا — 5: احتلت سبتة في حياته واستولوا على موطنه تلمسان عام وفاته» ، وياتى بذلك في سياق عجيب مع أن سبتة احتلت قبل مولده بـ 26 سنة واحتلت تلمسان بعد موته بثمان سنوات اما تى احتلت عام وفاته فهي وهران لا تلمسان انظر حرب 300 سنة بين الجزائر واسبانيا لاحمد توفيق المدنى ص 192 وتاريخ الجزائر لعبد الرحمن الجيلالى ج 2 ص 227

8) ارجع الى العدد الاول السنة الاولى (1956) من مجلة تطوان لموضوع (نظرة على تاريخ الموريكوس) لمحمد قسطيليو

والى مقدمة البحث القيم عن (محمد الوزان وانتاجه) للدكتور شوقى عطا الله الجمل المنشور بمجلة «المناهل» الغراء — العدد الاول — السنة الاولى — التى تصدرها وزارة الثقافة بالمغرب

9) يرى لدكتور حسين مؤنس انه مما هون على النصارى امر المسلمين فرار ذوى القيادة الخ) وبتتبع هذه المرحلة يلاحظ أن ذوى الرئاسة كانوا اسبق من غيرهم في عملية الانسلاخ والذوبان ، انظر ازهار الرياض ج 1 ص 58 وما بعدها

10) ولولا ان اسبانيا والبرتغال عرفتا ازدهارا كبيرا طيلة القرن 16 و17 حيث اصبحت اسبانيا من الامبراطوريات العظمى فى عالم ذلك العصر لولا ذلك التطور السريع لكان من الممكن ان يستعيد الاندلسيون بمعونة المغرب وطنهم فى شبه الجزيرة

11) وفي ذلك يقول : يصفهم لشيخ الونشريسي بالكفر والعصيان وهو يتبجح في داره بفاس ، وفي مكان آخر يقول : «وكان عليه ان يفعل شيئا لاستنقاذ اولئك الناس كان يجود بشيء من ماله» !

صحيفة الدراسات الاسلامية بمدريد ص 133

12) الدوحة ص 38 ط حجرية ، وجاء فى سلوة الانفاس أنه كان يسكن بدار للحبس، السلوة ج 2 ص 153 ، وهذه الدار الصغيرة المتواضعة لا تزال معروفة بفاس الى الآن ،

13) جاء في الدوحة : وكان — أى الونشريسي — شديد الشكيمة في دين الله لاتاخذه في الله لومة لائم ولذلك لم يكن له مع امراء وقته كثير اتصال — الدوحة ص 377 ، ارجع كذلك الى التعليق رقم 2

14 هل يستطيع استاذنا الدكتور ان يؤكد لنا مائة فى المائة ان بقايا الاندلسيين كان فى استطاعتها ان تحافظ على الوجود الاسلامى العربى فى شبه الجزيرة بعد ما عجزت المماليك والدول المتعاقبة وبعدما فشلت جميع المحاولات فى هذا الميدان ؟

15) فى هذ الموضوع يرجع الى ازهار الرياض للمقرى ج 1 والى نفح الطيب ج 4 ص 525 بتحقيق احسان عباس ، والى نهاية الاندلس لعبد الله عنان ، والى البحث المشار اليه بمجلة تطوان العدد الاول السنة الاولى ، وكل هذه المراجع نقلت عن مصادر هامة فى الموضوع ،

16) انظر مرآة المحاسن ص 168 ، وتاريخ داود ، المجلد الاول ص 90 والاستقصاء ج 4 ص 124

17) المراجع السالفة

18) انظر النفح ج 4 ص 526 ما بعدها بتحقيق د احسان عباس ط صادرة ببيروت 1968 وازهار الرياض ج 1 ص 68 ونشر المثاني في وفيات 1017 ج 1 ص 101

19) الدوحة ص 38 ـ ط حجرية بفاس

20) في ترجمة الونشريسي ارجع الى المصادر الآتية :

الدوحة ص 37 ـ جذوة الاقتباس ص 81 ـ درة الحجال ترجمة 130 فهرس الفهارس ج 2 ص 338 ـ البستان ص 53 ،

سلوة الانفاس ج 2 ص 153 ـ معجم المطبوعات ، لسركس ص 1923 حرف الواو ـ شجرة النور الزكية ترجمة 1022 ـ الاستقصاء ج 2 ص 182 الزركلي في الاعلام (حـرف الالف)

وتجد الحديث عنه كذلك في كشف الظنون (المعيار حرف الميم) وأيضا المكنون ص 113 ـ 94 ـ 517 ـ 592

وترجم له رضا كحالة في معجم المؤلفين صـ 205 ج 2 بالاضافة الى نيل الابتهاج الذي اشرنا اليه سابقا وغير ذلك من المصادر

ع، ع،

نقد

حول كتاب " عندلة " لمحمد الصباغ

د. نذير العظمة

وانا اقرأ ((عندلة)) لصاحب ((شجرة محار)) ، كانت ترتسم في بالي معان وصور من ((قصائد التجربة والبراءة)) للشاعر الانكليزي وليم بليك. ادرك تماما ان هنالك صلة بين الشاعر والكاتب ، غير ان هذه الصلة ليست كل شيء في عالم الادب ، النفس الانسانية هي الينبوع المشترك، والرحلة في أبعاد العالم هي القطار الذي يقلنا جميعا نحن الشعراء والادباء.

ان الكاتب المبدع محمد الصباغ ، ينقلنا من عالم التجربة الى عالم البراءة كما فعل ((وليم بليك)) ، لا لانه تعب من التجربة ـ وقد جسدها لنا ايماءات واشارات مضيئة مكتنزة في ((شجرة محار)) ـ بل لانه وجد في الرحلة الى البراءة نوعا آخر من التجربة أو تطهرا منها .

الحياة فرح وطفولة . والادب عفوية وابداع . من يجهـــل فى روع الفجر ان العتمة هي الوجه الدائم للحياة يحكم على نفسه بالموت . الصباغ يقول : الضوء ، الحرية ، الفرح ، الحكمة ، الطفولة ، هي الوجوه الاولى للحياة ، واليها نحن دائما فى ارتحال ، لا بنسف جسور الرجولة ، بـــل بتحويلها ألى الداخل ، نمسح الدم عن وجه الحلم ، فيشع من جديـد فى عالم هو نحن ، يتعاوره الرعب والحلم .

هل تمكن الرحلة الصباغية بدون محبة ؟ !

الرحلة فى الارض بلا حب هي رحلة طين فى طين . ومبدع ((عندلة))، يود ان يشق عتمة عالمنا الطيني باللهب الجوهر الذي ينبثق من النفس . فالحب فى ((عندلة)) ، هو هذا اللهب الذي يصهر العالـــم ، ليحـــاول ان يصوغـــه من جديـــد .

هذا الحب الكبير الذي يخاطر : القطة اميرة الفئـــران ، والغزال البرىء ، و ((ارجوان)) يكسر سياج الخوف فى قلب الذئب ، سيد المخاتلة والفتك ، ومن يقوم بهذه المخاطرة غير ((عندلة)) ، رسولة الكاتـــب الى عالم جديد ينكر فيه الظرف والناب ، ويشع القلب الى الابد .

ليست الطفولة قناعا فى أدب الصباغ ، انها وجه ، ووجه فاتن بطولي وفاتح . ادبنا العربى لم يدخل الى حرم الطفولة الا نادرا ، واذا دخل هذا الحرم ، يدخله على عكاز مرتديا جبة أو قفطانا ، فلا يصل بنا الى حيـــث نريد أو يريد ، يتعثر بالعكاز الذي عليه يتكىء . ويحجب عنا الرؤيا بالقفطان الذي يلبس . وكاتبنا يعبر الى عالم الطفولة بلا قفاطين او عكاكيز ، بلغـة جديدة وريش جديد ، بمنقار وجناحين يرتبطان بالقلب وتغريد ينبثق مـن الاعمـــــاق .

لذا نلاحظ ان الابداع والحرية هما سمات ما يكتب ، يتمكن مـــن طقوس الخلق وفصوله ، يلعب بالابجدية ، يمتشق الرمز من المرمـــوز ، ويعود بنا من زمن التجربة الى زمن البراءة . وتتاكد لنا سمات الابـــداع والأصالة بادراكنا أن الطفولة فى ((عندلة)) هي الوجه لا القنـــاع ، هـــي

المسيرة وليست العكاز . من هنا نجد ان النزعة التعليمية تختفـــي فى الكتاب مما يضفي على لغة الصباغ واسلوبه فرحا وحرية ووثبا ، ونحن اذا تعهدنا هذا فى ناشئتنا ، وضعنا ايدينا على اسرار الحياة الاولى .

خرافات ((ايزوب)) ((ولافونتين)) تعلم ، بينما نتسلى فى ((كليلـة ودمنة)) الحكمة تآتى اولا فى حين نرى ((شوقى)) يمزج بين مآتى هـذا وذاك وتلك ، فيوفق حينا ويسقط احيانا . اما عندلة ((الصباغ)) فهي ((عندلة)) ابداع لا تسليه ، ((عندلة)) فرح لا حكمة ، ((عندلة)) دهشة وفرح بالحقيقة فىشكل خرافة او اسطورة تزخر بالحياة ، وتتسلح ببطولة الحب ، ولو انها بطولة هشة وشهيدة فى عالم يحتكم الى المخلب ويغترب عن الحق .

محمد الصباغ فى الادب المغربي طراز وحده ، تقراه ولا تشبـــع . كلما قطفت منه محارة ، نبتت محارات ، ولا تجهدك المحارة فى الكشف عن اللؤلؤة ، فالشفافية فى الشكل والعبارة تكتنز بالمضمون الفكـــري والنفسي فى كل من ((شجرة محار)) و ((عندلة)) ، وجسد اللغة عنـــده يشف عن القلب ، كانما الكلمات فى نسق هي اشعاعات تصدر من لهـب الرؤيا ودوائرها ، فهي اذ تفاجيء البصـــر بالصورة والرمـــز ، تـــؤدي للبصيرة رسالة الفرح والدهشة .

فالصباغ المبدع فى طقسي الرجولة والطفولة ، ينظر الى الواقع من خلال المثال ، ويتطلع الى المثال من خلال الواقع ، يهدم بالحكمة والرؤيا بشاعة الطين الذي يهدد الانسان بالطوفان .

انه يكتشف لنا ابجدية الطفولة ، ويعرفنا من جديد بالبراءة الاولى .

د . نذير العظمة

في مكتبة المناهل

في الشعر السياسي

للدكتور عباس الجراري • 230 ص • 23 × 17 سم
دار الثقافـــة ، الدار البيضـــاء ــ المغـــرب ، 1974

اى الكاتبين اولى بالاشفاق : الذى يتناول موضوعا غيـــر مطروق فينشئه من العدم أو شبه العدم ، أم الذى يتـــناول موضوعا كثر فيـــه الاجتهاد واتسع فيه القول ، حتى بـــدا وكأن الاول لم يترك فيه للآخـــر شيئا ، فيدخل عليه الكاتب والرهبة عنده تسبق الرغبة ، فما يزال يقلب فيه الامور حتى يخرج بعد الغوص بصيد ثمـــين ؟ انـــا من جهتى ارى الثاني اولى بالاشفاق ، وبعد النجاح بالاعجاب . ولقد تناول الاخ والصديق الدكتور عباس الجرارى فى كتابه : « فى الشـعر السياسى » موضوعـــا سبقه اليـــه كثير من المشتغلين بالادب العربـــى من قدامى ومحدثين ، وافاضوا القول فيه ، حتى لقد يحجم الكثيرون غيـــر الدكتور الجرارى عن الكتابة فى الموضوع لضيق مجال القول فيه كما يزعمون ؛ فالشعـــر محفوظ والشعراء معروفون ونسبـــة الشعر الى الشعـــراء فى الجملـــة

موثقة ، والظروف التاريخية التى انتجت هذا الشعر تحتل مكانها فى المناهج التى تدرس بالمدارس والجامعات . فان بقى متسع للاجتهاد فقد انتفع بهذا المتسع عدد كبير من الكتاب الذين سبقوا الدكتور الجرارى ، فلم يبق بعدهم مجال الا لذوى الشجاعة الفكرية .

وقد وجد الدكتور الجرارى فرصته للكتابة فى الموضوع بعد ان اطال النظر فيه واعده فى صورة محاضرات تلقى على طلاب قسم اللغة العربية بكلية الآداب والعلوم الانسانية بالرباط ، نفهم ذلك من تصريحه بذلك فى اول الكتاب ثم من توجيه الخطاب بضمير المخاطبين الى الطلبة لا بضمير المخاطب الى القارىء ، ثم من الاحالة فى مجرى الحديث الى ما قاله فى محاضرة سابقة لا فى صفحة سابقة . وهكذا اصبحت المحاضرات التى قصد بها الطلاب كتابا ينتفع به القراء فى الجامعة وخارجها

كانت الموضوعات التى اشتمل عليها الكتاب ذات ترابط عضوى ملحوظ اذ بدا بالتقديم بايضاح مفهوم الادب السياسى ثم تناول النزاع حول الخلافة ونشأة الاحزاب ، ثم بداية الادب السياسى ، واستغرق هذا فى كتابه ستين صفحة من ثمان ومائتين . اما ما بقى من الكتاب فعرض فيه للخوارج ، وشعر الخوارج ، وللشيعة ، وشعر الشيعة ، وللزبيريين وشعرهم ، واخيرا للشعوبية . فأما مفهوم الادب السياسى فى نظر الدكتور الجرارى فيختلف عن مفهوم ادب الدعوة الذى كان فى حياة الرسول صلى الله عليه وسلم ، اذ الادب السياسى هو « ذلكم الادب الذى صاحب الدولة الاسلامية بعد وفاة الرسول حين دخلت الدولة فى طور جديد وتعرضت لالوان من المشاكل تتصل فى اساسها بنظام الحكم ، وما نتج عن هذه المشاكل من انشاء احزاب مختلفة كان لكل منها شعراء وخطباء كما كان للدولة شعراء وخطباء » (ص 10) . ثم هو ادب لا تفريق فيه بين ما دار حول المذهب او حول السياسة « فالسياسة فى هذه الفترة كانت مرتبطة بالدين بل جزءا منه لا نستطيع ان نفصلها عنه مهما حاولنا ذلك » (ص 11) .

واما فى كلامه فى شأن النزاع حول الخلافة فيلخص موقف الاسلام من الخلافة بأن الاسلام لم يشأ ان يحدد حدودا ضيقة لنظام الحكم وانما اكتفى « بوضع الاسس والاصول وترك للمسلمين ان يفكروا وينظروا فى احوالهم وبنيانهم وظروفهم ويرسموا لانفسهم ما يلائم الحياة المتطورة . » (ص 13) ؛ اذ لا يعمد الاسلام الى التحديد والتفريع والتفصيل الى فى التشريع للعبادات . وكانت الاصول التى وصفها الاسلام لنظام الحكم هى التوحيد والعدل والشورى ؛ وتخضع الخلافة مع كل اولئك لضرورة المصالح المرسلة . ثم عرض الدكتور الجرارى للظروف التاريخية التى لابست البيعة للخلافة فى عهد الراشدين ، ووقف مليا عند سيرة عثمان ومقتله الذى اثار الفتنة ؛ ولقد ذكر الدكتور الجرارى طائفة من الاسباب التى اسخطت الناس على عثمان محللا موقف ابن عفان والثوار عليه مشيرا الى مواقف كبار الصحابة (على وطلحة والزبير) من هذه الاحداث ، ونتائج هذه الاحداث والمواقف ، حتى انتهى الى قصة التحكيم وما شجر بين المسلمين بعده من خلاف سياسى انتهى الى خلاف مذهبى تعددت به الاحزاب والمذاهب .

اما بداية الادب السياسى كما يقول الدكتور الجرارى فهى ما قيل من شعر فى وقائع يوم السقيفة ونتائجها منسوبا الى حسان ، وابى سفيان ، واحد ولد ابى لهب ، ثم ما قيل بعد ذلك عند مقتل عمر بن الخطاب واخذ ابنه عبيد الله بثأره من غير قاتله وحماية عثمان لعبيد الله ان يقام عليه الحد ، مما كان سببا فى سخط الناس على عثمان ، ثم ما قيل من شعر فى ذم تصرفات اقرباء عثمان الذين ولاهم ومكنهم فى الامصار ، ثم ما قيل بعد مقتل عثمان دفاعا عنه وتعريضا بمن خذلوه ، واخيرا ما قيل اثناء الفتنة وفى غمار احداثها من شعر او نثر . ويورد الدكتور الجرارى نماذج هذا الادب فى ثنايا كلامه ، حتى اذا انتهى من عرضها حاول ان يستخلص مميزات هذا الادب الذى واكب الصراع فى هذه الفترة ، فيرى ان هذا الادب اصدق تصويرا للاحداث من اخبار التاريخ ، وانه كان هادئا بالنسبة لوقائع يوم السقيفة ، ضعيفا بالنسبة لمقتل عثمان ، وانه بعد عثمان يصور صراع الهاشميين والامويين ويكشف عن العصبية القبلية ، ولكنه يستوحى المعانى الاسلامية ، ويتحول بفكرة الجهاد السابقة على

الفتنة الى فكرة اخرى هى الدفاع عن فئـة بعيـنها ؛ يصدق هذا على لنثر اكثر مما يصدق على الشعر .

وحين تعرض الدكتور الجرارى للخوارج ابان منشأهم ، وعلل تعدد اسمائهم كالحرورية والشراة ، وشرح موقفهم من التحكيم ومن على رضى الله عنه ، ودورهم فى التآمر على ابطال قصة التحكيم ، ومناوأتهم لسلطة الاموية ، وما تعرضوا له من اضطهاد وتشريد ادى فى النهاية الى اضمحلالهم . ثم بين المبادىء التى يقوم عليها مذهبهم ، ورايهم فى الخلافة ، وخصائصهم المذهبية والخلقية التى تميزوا بها بين الفرق الاسلامية ، ثم تشعبهم الى شعب مختلفة تستقل كل منها براى لا تشارك فيه غيرها من الشعب الاخرى ؛ ثم اوضح الفرق بين الخوارج والفرق الاخرى ، وذكر بعض قادتهم وعلمائهم ، ولم ينس ان يربط بينهم وبين تاريخ المغرب . وعندما تصدى لادبهم لاحظ « ان هذا الادب مجهول او يكاد » (ص 81) ، وعلل ذلك بضعف امر الخوارج على عهد التدوين ، فلم يكتب لادبهم ان يدون كما دون ادب الشيعة ، فضاع الكثير منه ، حتى اصبحت دراسته بحاجة الى البحث والاستقصاء . اما خصائص شعرهم (وهو لم يتصد من ادبهم الا للشعر) فهى اما شكلية ، واما موضوعية ، واما متصلة بهما معا . فأما شكليا فشعرهم مقطوعات او قصائد قصيرة يشيع فيها الرجز وتتسم بوحدة الموضوع ، واما موضوعيا فهو شعر ملتزم بالعقيدة صادق مخلص ، فيه ثورة وزهد ، وحزن وبكاء ، وتقديس لابناء المذهب ، وحب للموت والاستشهاد ، وتحديد للصفات التى يتحلى بها الخارجي ، وبساطة فى عرض الفكرة المذهبية . واما الخصائص التى تمس الشكل والموضوع معا فهى تشابه الشعر الخارجي بعضه ببعض حتى لا يمتاز منه شعر عن شعر ، ثم طغيان الروح الدينية والقوة والحماس فى هذا الشعر . ويأتى الدكتور الجرارى بنماذج يوضح بها كل واحدة من هذه الخصائص على حدة ، ثم يختم الكلام عن الخوارج بالتعريف بثلاثة من كبار شعرائهم هم الطرماح ، وعمران بن حطان ، وقطرى بن الفجارة ؛ فيأتى لكل منهم بترجمة وبنماذج من شعره .

واما الشيعة فيذكر لهم اسماء اخرى هى : العلويون والطالبيون وآل البيت ، ويقول ان نواة فرقتهم ظهرت بعد وفاة الرسول عليه السلام ، ولكنهم لم يكونوا فرقة بالمعنى الاصطلاحى الا بعد موت على رضى الله عنه . ثم يبين قصة ابناء على مع الخلافة : من الحسن الى الحسين ، الى خلفائهما ، وتعرض كل هؤلاء لكيد الامويين وقسوتهم ، حتى اوصى ابو هاشم بن محمد بن الحنفية لمحمد بن على بن عبد الله بن عباس ، فتجمع الشيعة تحت راية دعوة هاشمية تضم العباسيين الى العلويين ، حتى نجح العباسيون فى الاستيلاء على السلطة ، واضطهدوا شركاءهم العلويين على نحو ما فعل الامويون . اما مبادىء الشيعة التى يذكرها فهى عصمة الامام ، وانتظار المهدى ، والرجعة ، والتقية . ويعد من فرقهم الامامية (الاسماعيلية والاثنا عشرية) والزيدية ، ويأتى بطوائف كل مذهب ومبادئه العامة ، ثم لا ينسى ان يربط بينهم وبين تاريخ المغرب كما فعل بالخوارج ، وشعر الشيعة غزير بسبب تدوينهم اياه . وفى شرح خصائص شعر الشيعة اهتم الدكتور الجرارى اولا بالالتزام بفكرة الحزب من تقديس على والدفاع عنه ، الى عودة المهدى ، الى الوصية ، الى التقية ، وثانيا بما يتسم به هذا الشعر من القوة والحماس ، وثالثا بطابع الجدل والاحتجاج فى هذا الشعر ، ورابعا بمخالفة الحكم القائم ، وخامسا بانعكاس الاثر الدينى فيه ، وسادسا بما فيه من حزن وبكاء على ضحايا اهل البيت ، وسابعا بجزالة الاسلوب ، وثامنا بصدق العاطفة ؛ ويأتى لكل خاصية من هذه بالنماذج الوافية التى توضحها ، ثم يترجم من شعراء الشيعة للكميت ، والسيد الحميرى ، ودعبل الخزاعى ؛ ويورد من شعرهم النصوص الكافية .

وحين يتعرض للزبيريين وشعرهم يأتى اولا بعرض لنشأة ابن الزبير ، ومناقبه ، وبدء الحركة الزبيرية فى صورة مطامح فردية فى نفس عبد الله تزكيها ظروف صلته بعثمان ، والعلاقة بين ابيه الزبير وبين على بن ابى طالب ، ونقل كرسى الخلافة العلوية الى الكوفة ؛ حتى اذا قتل على ظهر ما يكنه عبد الله فاصطرع مع الامويين واصاب نجاحا كبيرا اقام به خلافة تناوىء الخلافة الاموية ، وتبسط نفوذها على اقاليم واسعة . وكانت مبادىء الحركة الزبيرية : ان يبقى الحجاز حاضرة

للخلافة ، وان تكون الخلافة فى قريش ، وان يقضى على الامويين لتجاهلهم مبدا الشورى ، ونقل العاصمة الى الشام ، واعتمادهم على اليمنية ، وتنكيلهم بالقرشيين ، ثم مدافعة الهاشميين لانهم يرون انفسهم احق بالخلافة ، ومناهضة الخوارج لاختلافهم مع الزبيريين فى الرأى والمبدأ . ولكن الامويين ظفروا فى النهاية بابن الزبير ، وقضوا على خلافته ، وقتلوه . ويذكر الدكتور الجرارى ان الشعراء الذين كانوا ينحازون الى ابن الزبير كانوا سرعان ما ينصرفون عنه لبخله ، حتى لا يمكننا ان نعد من الزبيريين المقيمين على ولائهم لعبد الله وحركته الا ابن قيس الرقيات ، وقد جاء بنماذج من شعراء غير ابن قيس ، ثم ترجم لابن قيس ، وجاء بنماذج كثيرة من شعره ايضا ، وحين اراد بيان خصائص الشعر الزبيرى لم يجد غير ابن قيس الرقيات ، لانه الوحيد الذى بقى على ولائه للزبيريين .

وعند الكلام عن الشعوبية شرح الظروف التى ادت الى نشأتها ، وابان مراحلها ، اذ كانت فى الاول حركة تطالب بالتسوية بين العرب والموالى فى ظل مبادىء الاسلام ، ثم انتهت تحت ظل العباسيين الى مهاجمة للعرب ، وانكار لتفوقهم ، واتهام لهم بأنهم دون الموالى حضاريا وفكريا . ولقد كان تعصب الامويين للعرب سببا فى تجمع الموالى تحت راية المذهب الشيعى ، ونصرتهم للحركة العباسية . اما شعراؤهم فقد بداوا ايام هشام ابن عبد الملك فى الفخر بتاريخ الفرس ، كما فعل اسماعيل بن يسار ، ثم تطور موقفهم على يد بشار ومن بعده كالخريمى والمتوكلى وابى نواس الى هجو صريح للعرب . وقد اشتمل هذا الجزء من الكتاب على نماذج من شعر هؤلاء جميعا . كما اوضح الدكتور الجرارى ما عده العرب من مناقبهم ، وانكار الموالى عليهم ان تكون لهم هذه المناقب ، وقد كتبوا فى ذلك العديد من المؤلفات . وخصائص الشعر الشعوبى كما يعدها الدكتور الجرارى هى طغيان الروح الفارسى على فكرة الشعوبية ولو ان الموالى ليسوا من الفرس فقط ، ثم الفخر بأمجاد الفرس ، ثم النقمة على العرب ، ثم التمسك بفكرة الشعوبية حتى عند انضمام شعرائها الى احزاب وهيئات مختلفة ، ثم تدرج الفكرة تاريخيا من التسوية الى الهجوم ، ويميل هذا الشعر الى الاوزان القصيرة ،

ويرمز شعرؤه باسماء الاناث عند عرضهم لافكارهم : كهند ، وامامة . وتأثر شعر الشعوبية بميراثهم الثقافى القومى من قصص ورفق بالحيوان ، كما يتسم بطول النفس ، وبعض الاخطاء النحوية .

تلك محتويات الكتاب ، ولقد وفق الدكتور الجرارى فى تحويل هـــذا العمل من صورة المحاضرات الى صورة الكتاب ، كما وفق فى طريقـــة عرضه للموضوع ، وفى اختيار نماذجه وشواهده ، والجديد فى هذا الكتاب طائفة من الاحكام الصادقة التى وفق اليها الدكتور الجرارى ، فأضاف بها الى الموضوع ما لم يكن له من قبل . وبعد ، أفلا نرى بعد كل اولئك ان اولى الكاتبين بالاشفاق ، ثم بعد النجاح بالاعجاب من يضيف جديدا الى موضوع كثر فيه الاجتهاد واتسع فيه القول حتى بدا وكأن الاول لم يترك منه للآخر شيئا ؟ ذلك رايي .

الربــاط   د. تمام حسان

الإعلام الثقافي

تأجيل مهرجان ابن زيدون



ان الظروف الدقيقة الحاسمة التي يعيشها المغرب في خضم التعبئة الشعبية للمسيرة المباركة الميمونة التي نادى بها صاحب الجلالة الملك المعظم الحسن الثاني لتحرير الصحراء المغربية ، حالـت دون اقامـة المهرجان الذي قررته وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافيـة ، احتفالا بالذكرى الألفية لميلاد الشاعر القرطبي احمد ابي الوليـد ابن زيـدون ، بتاريخ 15 اكتوبر الماضي ، في عاصمة المملكة المغربية ، والتي دعت اليه صفوة من خيرة رجال البحث ، والشعر ، والصحافة ، من جميع البـلاد العربية ، ومن مختلف الاقطار الاجنبية .

وفعلا ، لبى الدعوة اغلب المدعوين لهذا المهرجان ، ووفـــدوا على عاصمة المملكة المغربية للاحتفال بهذه الذكرى .

وفي هذا الموضوع ، ألقى السيد وزير الدولـــة المكلف بالشؤون الثقافية ، الاديب الكبير الحاج امحمد ابا حنيني خطابا بقاعة وزارة الثقافة التي كانت محتشدة بجمهور كبير من المؤتمرين ، والمدعوين ، والادبـــاء ، والشعراء ، والصحافيين المغاربة والاجانب ، وفي مقدمتهـــم الوزراء ، وكبار موظفي الدولة من مختلف الوزارات ، بالاضافـــة الى الملحقيـــن الصحفيين بالسفارات الاسلامية والعربية .

وفيمـــا يلـــي :

نص خطـــاب
وزير الدولة المكلف بالشؤون الثقافية

حضرات السيدات والسادة

ايهـــا الاخـــــوة

كان بودي ان ألقي بدل **خطابي هذا خطابا اقص** عليكم فيه من انبائـي الخاصة عن ابن زيدون الشاعر المبدع والمحب الوفي والوزير المحنـــك والانسان المحسد ما توافر لدى حقبة من الزمن اتصـــل فيها اعجابـــي بشاعر قرطبة الفراء وامتدت خلالها الصحبة بيني وبين فئة من أدباء عصر ملوك الطوائف وشعرائه ومؤرخيه ، وكان الامل وطيدا ان تتوالى اشواط احتفالنا بالذكرى الألفية لميلاد الشاعر الصداح على النسق الذي الفنـاه ونظمناه فأعددنا العدة لاستمرار أيام هذه الذكرى حافلة بالدرس والبحث حالية بالمسرات في رباط الفتح عاصمة المملكة المغربية ومنطلـق جحافـــل أبي يعقوب المنصور الذي جاهد ذيادا عن حوزة الاسلام وارساخا لاقـدام

المسلمين فى رحاب الاندلس . وكان الى هذا أملنا كبيرا أن تنال بعض المدن المغربية التي ازدهرت فيها الثقافة العربية واشع منها العرفان نصيبا من امتاع المحتفين بابن زيدون ومؤانستهم .

بيد أن المسيرة الشعبية التي حلل البارحة صاحب الجلالة الحسن الثاني أمد الله توفيقه وتأييده الاسباب الداعية لها واوضح الاهداف المتوخاة من انطلاقها مسيرة تضع المغرب فى بحبوحة مرحلة جديدة من مراحل حياته الوطنية وتصرف هم المواطنين عن كل شأن لا يمت بصلة ماسة الى الصحراء المغربية السليبة وسبيل استردادها .

ولذا فاني أسال جميع السيدات والسادة الذين وفدوا على هذه الديار اخوة اشقاء وضيوفا أحباء حاملين علما كثيرا وأدبا غزيرا وبيانا مأثورا ان يقدروا ظروف المغرب الراهنة ويبسطوا لنا من جميل العذر ما هم به أحرياء فيما حملناهم عليه من عناء وفيما نحن مضطرون اليه من تأجيل هذا اللقاء وارجائه الى فرصة أكثر ملاءمة وظروف أرحب صدرا .

واني لأغتنم اجتماعنا هذا لتجديد آيات الشكر الوافر الجزيل لصديقنا الكبير المدير العام المساعد للمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ولجميع السيدات والسادة الذين خفوا لتلبية دعوتنا وخصوا المغرب بهذه الزيارة الكريمة على ما يؤدوهم من أعباء ويداركهم من فروض وواجبات .

وسيكون من أسباب مسرتي ان يمتد المقام فى هذا الوطن الغربي للعروبة بمن يود من الاخوة والاصدقاء أن يعلم من شؤون هذه البلاد ما لا يعلم ويشاهد من دأبها واتساع جهودها فى مجالات متعددة ما يقر العين ويثلج الصدر .

واخلق بعد هذا كله بشقيقاتنا واشقائنا ان يكونوا موقنين بأن المغرب لا يخطو فى مدارج أخذه ورده ومعارج ابرامه واقدامه خطوة لا تقوده الى رعاية مصلحة من مصالح الامة العربية ولا تغريه بمناصرة هدف من أهدافها المتجددة الاثيرة .

أسأل الله ان يسني عقد اللقاء بكم بعد زمن قصير غير مديد ويهيىء اسباب الالتفاف حول آثار الشاعر المدنف العميد والمغرب بادراك مقاصده وبلوغ أمانيه مبتهج سعيد والوطن العربي من خليجه الى محيطه وادع السرب خالي الذرع رخي البال رقيق حواشي العيش بالغدو والآصال .

انه سميع مجيب .

وبعد ذلك القى الدكتور ناصر الدين الأسد خطابا كريما رد فيه على خطاب السيد الوزير وهذا نص الخطاب :

خطاب الدكتور ناصر الدين الأسد

كلما استمعت الى معالي الاديب الكبير ، الاستاذ امحمد ابا حنيني ، اخذتني هزة الطرب ، لبلاغته وسحر بيانه ، وكلما اضطرتني المواقف ان اتحدث بعده ، اشفقت على نفسي لكي لا ينكشف عوارها امام المستمعين ، فيقارنوا بين فهاهتي وبلاغته ، غير ان المضطر يركب الصعب ، وانا في هذا الموقف مضطر ، لان اخواني اعضاء الوفود ، الذين يحضرون هذا المهرجان قد شرفوني ، بان انوب عنهم ، واتحدث باسمهم ، كما ان المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ، ومديرها العام ، قد اوفدوني من اجل ان امثل المنظمة ومديرها العام في هذا المهرجان ، ولهما علي حق هذا التمثيل ، فاذا رايتم ان ما ساقوله ادنى بكثير وهو ادنى بكثير ، مما استمعتم اليه ، فارجو ان تلتمسوا لي العذر .

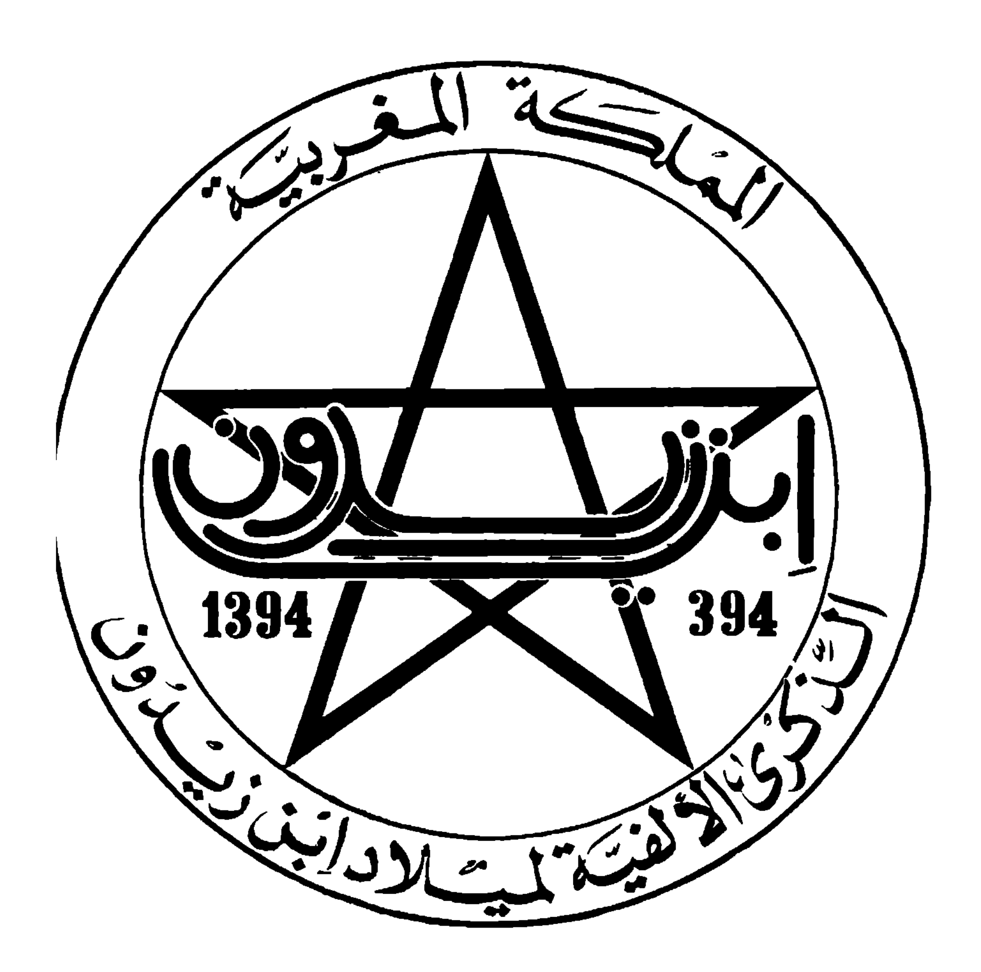
صاحب المعالي وزير الدولة المكلف بالشؤون الثقافية .

ترجو المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ، ان تنوبوا عنها ، وعن مديرها العام ، وعن اعضاء الوفود ، من ادباء العروبة ومفكريها الذين حضروا للمشاركة في هذا المهرجان ، في تقديم اصدق مشاعر الاخلاص ، واسمى آيات الاحترام ، الى مقام صاحب الجلالة الملك الحسن الثاني

المعظم ، راعي النهضة الفكرية والثقافية وحامي العربية وتراثها ، في هذا الربط المنيع من ربط العروبة والاسلام ، سدد الله خطاه لخدمة امتنا العريقة المجيدة ، في اقطارها كافة ، مع اخوانه الملوك والرؤساء العرب، وأيدهم بروح من عنده ، ليكونوا دائما على صراطه المستقيم ، وحدة كلمة واجتماع شمل ، وتماسك بنيان ، ثم أرجو ياصاحب المعالي ، ان تاذن لي بأن انقل تحيات المنظمة ، ومديرها العام ، وادباء العروبة ومفكريها المشاركين في هذا المهرجان ، ان إنقل تحياتكم جميعا ، الى حكومة المملكة المغربية ، والى وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية ، ممثلة في شخصكم الكريم ، وان أعرب لكم عن عميق التقدير لدعوتكم الكريمة الى هذا المهرجان الثقافي ، الذي حالت ظروف وطنية قاهرة دون اتمام عقده ، وهي ظروف نقدرها جميعا حق قدرها ، ونستجيب لها ، ونتفاعل معها ، ونشاركم في الاحساس بها ، والحق ان مجرد هذا التجمع العربي الكبير، والاستجابة الجماعية الشاملة لهذه الدعوة ، لدليل ساطع ، على ان معركتنا واحدة ، مهما يبذل الباذلون من جهود لتجزئتها ، وهي معركة لا تشغل احدا من ابناء العروبة معركة بلده ، عن معارك سائر اهله وما يهيض جناحا من اجنحتنا انما يهيض الاجنحة الاخرى ، ثم يصيب القلب في الصميم ، وما القلب الا فلسطين ، رد الله غربتها ، وطهرها من دنس غاصبيها ، ودليل كذلك ، على ان مفكري هذه الامة ومثقفيها هم كتيبة من كتائب هذه المعركة ، لا يجوز ان يقفوا بمعزل عنها ، بل عليهم ان يشاركوا فيها ، باحتشادهم وتجمعهم وبمعرفتهم لحقيقتها التي طالما حاول المحاولون تشويهها وطمسها ، بخوضهم غمارها ، وذلك بان يكونوا دعاتها ينشرون حقائقها ، ويوقظون الابصار والبصائر عليها ، ويشيعون الفهم العميق الصحيح لها ، ويجمعون حولها الكلمة ، ويوحدون الصف ، ويجيشون المشاعر ، ويحفزون الهمم والعزائم ، من اجل هذا ، نحن هنا يا صاحب المعالي ، لا لمجرد الاشتراك في احتفال ادبي ببحوث وقصائد ، على جلال هذا الامر في ذاته ، لو سمحت الظروف بعقده ، فمعركتكم معركتنا ، وتحرير مالا يزال مغتصبا من أرض المغرب هو مرحلة متداخلة مع مراحل تحرير ما لا يزال مغتصبا من ارض العرب ، ومن اجل هذا ايضا سنعود ، لنحمل الرسالة الى ذوينا ونؤدي ما في اعناقنا من ذمة الاسرة الواحدة ، على اتساع رقعتها وامتداد اقطارها .

صاحب المعالي :

استبد بنا الشوق الى اهلنا في المغرب الاقصى ، فخففنا اليهم سراعا نستجيب لدعوتهم ، ولدواعي حنيننا اليهم ، وما ان احتضننا جو هذا البلد الحبيب ، وشاع عطر انسامه في صدورنا ، حتى رأينا رؤية عيان ومشاهدة ، حقيقة المعجزة الكبرى لهذه الامة ، هذه المعجزة المتمثلة ، في وحدتها الملتحمة ، تتباعد ديارها وتتوزعها القارات ، وتبقى مع ذلك قريبة لصيقة ، ويجزئها الاستعمار بلادا وشيعا وطوائف ، ويتفانى على مدى حقب طويلة ، في غرس افكاره وقيمه ولغاته ، حتى اذا وهم ، ان الامر استقر له على ما يريد ، فوجىء بان ما فعل كان زيفا على السطح ، لا تلبث اصالة الجوهر المستكن في الاعماق ، ان تزيله وتزيل آثاره معه ، ويفد العربي لاول مرة الى قطر آخر غير قطره ، وهو متهيب وجل ، من خشية الغربة والوحشة ، فاذا به كانما كان كل حياته في هذا القطر الذي وفد اليه ، وسرعان ما يمتلىء وجدانه بالانس والطمانينة ، ويجد نفسه في نفوس الناس ، كل الناس من حوله ، فكانه لم يرحل الا من بلدة الى بلدة ، في داخل قطره ، حيث نفر من احبابه وذوي قرباه . اننا ونحن نلتقي على هذا الثرى الطهور ، تلبية لهذه الدعوة الكبيرة ، لنحتفل بالذكرى الالفية ، لميلاد شاعر فنان فذ ، من شعراء هذه الامة ، في فردوسها المفقود ، ليحسن بنا في مثل هذا المقام والمقام معا ، ان تستوقفنا امور ، منها استلهام روح ، العصر الذي اظل ابن زيدون ، واستذكار العبر من احداث ذلك العصر ، فقد عاش شاعرنا ثلاثا وستين سنة من القرن الخامس الهجري ، وهو قرن اخذت تشتد فيه الفتن والاضطراب ، وعوامل الصراع ،بين اهلنا هناك ، فتفرقت كلمتهم ، وانقسموا طوائف ، فكان كل ذلك بدايات ادت بالضرورة الى ما ادت اليه ، فهل لنا ان نتعظ بمصيرهم ، ونستدرك كثيرا من امورنا ، قبل استفحال الامر ، وتفاقم الخطر ، ومنها ان هذا الفردوس المفقود ، لا بد ان يذكرنا في هذا اللقاء ، بفردوس آخر فقدناه ، وان كنا لسنا بحاجة الى تذكير به ، فهو لا يفارق خواطرنا لحظة واحدة ، كانت الطعنة هناك جارحة ، ما زلنا حتى الآن نتجسس اثر الوجع منها ، ولكن الطعنة هنا قاتلة ، لانها في صميم القلب ، والحرب واحدة ، وان وقعت في معارك مختلفة ، وبقاع متعددة ، وعصور متباعدة ، والعدو هو



الرباط 9 . 16 شوال 1395
15 . 22 أكتوبر 1975

وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية

(نموذج من شعار المهرجان)


يا نازحا وضمير القلب مثواه
أنستك دنياك عبدا أنت دنياه
ألهتك عنه فكاهات تلذ بها
فليس يجري ببال منك ذكراه
علّ الليالي تبقيني إلى أمل
الدهر يعلم والأيام معناه

العدو ، وان اختلفت مظاهره وجنسياته ، وتباينت أساليبه ووسائلـــه ، فهل آن لنا ان نرفع الغشاوه عن عيوننا ، ونعقد العزم على احكام أمورنــا ، ومنها أدب شاعرنا وتاريخ عصره ، جزء من تراثنا وعلى كثرة ما بذل علماؤنا من جهود متواصلة ، لدراسة هذا التراث واحيائه ونشر معالمه وتخليـــد أعلامه ، ما زلنا نجهل كثيرا منه ، ومثل هذه المهرجانات والاحتفـــالات ، هي مناسبات تحتشد فيها الجهود ، للكشف عما لا يزال مطوية عليه الحجب، وكل جهد في هذا المضمار ، انما هو تأكيد لوحدة هذا التراث واستمراره، وضروره انتقاله بين الاجيال المتعاقبة لتظل الامة موصولة الحلقـــات في سلسلة واحـــدة .

ســادتـــي :

ان منظمتكم العربية للتربية والثقافه والعلوم ، ليسعدها ان تتقـــدم باسمكم جميعا ، الى حكومة صاحب الجلالة ، والى وزارة الدولة المكلفـــة بالشؤون الثقافية ، وشخص وزيرها الاديب الكبير الاستـــاذ امحمـــد ابا حنيني بأصدق الشكر والتقدير ، للدعوة النبيلة ، وبما أحاطونا به مـــن جميل الرعاية ، وحسن الاستقبال ، وكرم الوفادة والضيافة ، وان تشيد باسمكم بالجهود الضخمة التي برزت آثارها واضحة في استيفـــاء كـــل أسباب الاعداد والتنظيم، لهذا المهرجان ، بفضل السعي الدائم ، والعمل المستمر ، لجميع أعضاء هذه الوزارة ، ونحن جميعا وأنا اتحدث بعـــد ان اذنتم لي ، اتحدث باسمكم ، نحن جميعا نرى ان هذا المهرجان ، الـــذي حالت الظروف القاهرة دون عقده ، قد حقق اغراضه ، فقد وجهت اليـــه الدعوة ، واستجاب المدعوون ، وحضر منهم جم غفير ، التقوا على هـــذا الصعيد الطيب ، فنعموا بالحفاوة والتكريم ، وبلقاء نخبة كريمة من ادبائه ومفكريه ، وقدمت بحوث وقصائد ، وطبعت وستوزع على جميع الاعضاء المشاركين قبل عودتهم الى بلادهم ، اما اخوتنا أدباء المغـــرب وعلماؤه ، ومفكروه ، واهلنا من شعب المغرب جميعه ، فلا سبيـــل الى ان نوفـــي مشاعرنا نحوهم حقها من البيان ، فهي أقوى وأعمق من أن تعبـــر عنهـــا الالفاظ ، لهم منا جميعا ، الاعجاب ، والتقدير ، والحـــب ، والعرفـــان

بالفضل ، وستظل ذكراكم فى نفوسنا وخواطرنا ، وسيستمر ذكرهم تلهج به السنتنا ، وسيبقى شوقنا اليهم متوهجا ، يدفعنا الى لقائهم كلما اتيحت لنا الاسباب . آثابهم الله عنا خير الثواب .

* * *

اما بعد . فقد ابدى كثير من اعضاء المهرجان ، من أدباء العروبــة ومفكريها الذين تجمعوا هنا ، ابدوا امس واليوم ، رغبتهم فى تحرير برقية ترفع الى مقام حضرة صاحب الجلالة الملك ، وتيسرا للامر اجتمع نفــر ستة أشخاص ، لكي يقدموا مشروع برقية ، تتلى على حضراتكـــم الآن ، لكي تصبر باجماعكم ولكي يتكرم معالي الوزير لرفعها باسمكم . استاذنكم فى أن آقراها عليكم :

برقية مرفوعة الى حضرة صاحب الجلالة من الباحثين والادباء
والشعراء المشاركين في مهرجان الذكرى الألفية لميلاد ابن زيدون

حضرة صاحب الجلالة الملك الحسن الثاني المعظم

ان ادباء العروبة ومفكريها ، الذين وفدوا الى هذا القطر الحبيب ، تلبية للدعوة الكريمة ، لحضور الذكرى الالفية لميلاد ابن زيدون ، ليشرفهم ان يعربوا لمقام جلالتكم ولحكومتكم الموقرة ، وشعبكم الباسل ، عن عميق الشكر ، وعظيم التقدير ، لما لقوا من حفلوة ورعاية وتكريم ، ولما تبذلون من جهود ، لرعاية النهضة الفكرية والثقافية فى هذا القطر الشقيق .

ويغتنمون هذه المناسبة ، ليهنئوا جلالتكم والشعب المغربي ، باعلان كلمة الحق ، على لسان العدالة الدولية ، وليحيوا النضال الذي تقودونه جلالتكم لتحرير الصحراء وبقية الاراضي المغربية المغتصبة .

البرنامج الذي كان مقرراً
للاحتفال بالذكرى الألفية لابن زيدون

اليـــــوم الاول

الاربعـــاء 15 اكتوبـــر 1975

صباحـــا : الساعـــة 11

— حفلـــة استقبـــال بمتحـــف الاودايـــة

مســـاء : ابتـــداء من الساعـــة 4،30

— افتتاح المهرجـــان بمسرح محمد الخامس

— **كلمة السيد وزير الدولة المكلف بالشؤون الثقافيـــة**

الاستاذ الحاج امحمد أبا حنينـــي

— **كلمة رئيس المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلـــوم**

يلقيها بالنيابة الدكتور ناصر الدين الأسد الامين العام المساعد للمنظمة

— تحيـــات الشعـــراء

اليـــوم الثانـــــي

الخميـــس 16 اكتوبـــر 1975

صباحـــا : من 9 الى 13

1 ـ الدكتور ناصر الدين الامين العام المساعد للمنظمة العربية للتربيـــة والثقافـــة والعلـــوم :

ليـــس فى شعـــر ابن زيـــدون

2 ـ شعــــــــر

3 ـ الدكتور احسان عباس ، رئيس الدائرة العربية ولغـــات الشـــرق الادنى بالجامعـــة الامريكيـــة ببيـــروت .

بنـــو ذكـــوان وابـــن زيـــدون

4 ـ شعـــــر

5 ـ الدكتور شوقي ضيف عميد كلية الآداب ، جامعة القاهرة

الايقاع الموسيقي فى شعر ابن زيـدون

مســـاء : مـــن 4 الـــى 8

6 ـ الدكتور عبد الله الطيب مدير جامعة الخرطوم ـ السودان

من غريب ابن زيدون

7 ـ شعر

8 ـ الاستاذ شارل بيلا جامعة السربون ـ باريس

من ابي عثمان الى ابن زيدون

9 ـ شعر

10 ـ الدكتور مصطفى الشكعة استاذ الادب العربى بكلية آداب جامعة عين شمس

نظرة مستانية فى نثر ابن زيدون

اليوم الثالث

الجمعة 17 اكتوبر 1975

صباحا : من 9 الى 11،30

11 ـ الاستاذ آربي جامعة السوربون الجديدة ـ باريس

12 ـ شعر

13 ـ الدكتور علي عبد العظيم ـ مصر

آثار ابن زيدون فى الادب العربي

14 ـ شعر

15 ـ الاستاذ عثمان الكعاك ـ تونس

بين ابن زيدون وبتراركة الايطالي

مساء : من 4،30 الى 8

16 ـ الدكتورة وداد القاضي الجامعة الامريكية ـ بيروت

بين الجاحظ وابن زيدون

17 ـ شعر

18 ـ الدكتور عباس الجراري كلية الآداب ـ الرباط

فنية التعبير فى شعر ابن زيدون

19 ـ شعر

20 ـ الاستاذ عبد الرحمن الحجي كلية الآداب ـ جامعة بغداد

ابن زيدون السفير الوسيط

ليلا : 9،30 بمسرح محمد الخامس ـ الرباط

(مسرحية سيزيف الاندلس)

تاليف د. نذير العظمة

تمثيل : الفرقة الوطنية

اخراج : فريد ابن مبارك

اليـــوم الرابـــع

الســبــت 18 اكتوبـــر 1975

صباحـــا : مـن 9 الـى 12

21 ـ الدكتور عبد الهادي التازي : مدير المركـز الجامعـــي للبحـــث العلمـــي ـ الربـــاط

(ابن زيـــدون وزيـــرا وسفيـــرا)

22 ـ شعـــــــر

23 ـ الدكتور عبد العزيز سالم : كلية الآداب ـ جامعة الاسكندرية

(قصور بني عباد باشبيلية الواردة فى شعر ابن زيدون)

24 ـ شعـــــــر

25 ـ الدكتور تمام حسان : كلية الآداب ـ الرباط

(شاعرية ابن زيـــدون فى ضوء منهج مستحدث)

26 ـ شعـــــــر

27 ـ الدكتور خالد الصوفي : جامعة مدريد

(الجانب السياسي فى حياة ابن زيدون)

مســـاء : رحلـــة الى مدينـــة فـــاس

مغادرة الفندق فى الساعة ـ 3 ـ بعد الظهر

فى فـــاس : حفل استقبال بكلية الآداب

ابتداء من الساعـــة 7 مســـاء

اليـــوم الخامـــس

الاحـــد 19 اكتوبـــر 1975

صباحـــا : جولـــة بمدينـــة فـــاس

العـــودة مســـاء الى الربـــاط

اليـــوم الســـادس

الاثنيـــن 20 اكتوبـــر 1975

صباحـــا : من 10 الى 13

28 ـ الدكتور رضوان الداية : جامعة وهران ـ الجزائر

(ابن زيدون محاولة لاعادة النظر فى دراسة شخصيته وشعره)

29 ـ شمـــــــــر

30 ـ سلمـــى الحفـــار الكزبـــري : لبنـــان

(اثـــر ولادة فى حياة ابن زيـــدون)

31 ـ شعـــــر

32 ـ الدكتور محمد ابن شريفة : كلية الآداب ـ الرباط

(حول نسبة كتاب في التاريخ الى الشاعر ابن زيدون)

33 ـ شعـــــر

34 ـ الاستاذ البير مطلق : الجامعة الامريكية ـ بيروت

(مبنى الرسالـــة في نثـــر ابن زيـــدون)

مســـاء : مــن 4 الــى 8

35 ـ الدكتور عبد العزيز الرفاعي ، المملكة العربية السعودية

(تلميحات شواهد ابن زيدون في رسالته الجدية)

36 ـ شعـــــر

37 ـ الاستاذ عبد الرزاق الهلالي : الجمهورية العراقية

(ولادة وابن زيـــدون)

38 ـ شعـــــر

39 ـ الاستاذ محمد الكتاني : كلية الآداب ـ فـــاس

(ابن زيدون شاعر الاندلس ـ صورة تحليلية)

40 ـ شعـــــر

41 ـ الدكتور نقولا زيادة : الجامعة الامريكية ـ بيروت

(الاندلس في عصر ابن زيدون)

التاسعة والنصف ليلا :

لوحات شعرية من ديوان ابن زيدون

اخراج فريد بن مبارك ـ بمسرح محمد الخامس

اليوم السابع

الثلاثاء 21 اكتوبر 1975

صباحا : من 9 الى 13

42 ـ الاستاذ محمد ابن تاويت : كلية الآداب ـ الرباط

(نظرة على ابن زيدون في شعره)

43 ـ شعر

44 ـ الدكتور عبد المنعم خفاجي : عميد كلية اللغة العربية ـ اسيوط

(محنة ابن زيدون كما يصورها شعره)

45 ـ شعر

56 ـ الدكتور محسن جمال الدين : كلية الآداب ـ بغداد

(صورة ابن زيدون فى الادب العربي الحديث)

47 ــ شعــــــــر

48 ــ الاستاذ وليم الخازن : المفتشية التربوية العامة ــ بيروت

(ابن زيدون فى مقاييس الشعر العربي الجديد)

مســـاء : مــن 4 الــى 8

49 ــ الدكتور عبد اللطيف السعداني : كلية الاداب ــ فـــاس

(تيـــار خفـــي فى شعـــر ابن زيـــدون)

50 ــ شعــــــــر

51 ــ الاستاذ عبد الجليل عبد الرضا الراشد : كلية الاداب ــ جامعة بغداد

(عصر ابن زيدون دراســـة تحليلية)

52 ــ شعــــــــر

53 ــ الاستاذ مصطفى القصري : سفارة المغرب ــ واشنطن

(ابن زيـــدون شاعـــرا وانسانـــا)

54 ــ **شعــــــر**

55 ــ الدكتور ممدوح حقى : المكتب الدائم لتنسيق التعريب ــ الرباط

(ابن زيدون تحت اضـــواء التحليل النفســـي)

ليـــــــلا :

— حفلة عشاء بفندق حسان تقيمها على شرف المدوعين وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية

اليوم الثامن

الاربعاء 22 اكتوبر 1975

صباحا : من 9 الى 13

56 — الدكتور مختار الوكيل : جمهورية مصر العربية

(ابن زيدون ومعارضوه)

57 — شعر

58 — الدكتورة عائشة عبد الرحمن : دار الحديث الحسنية — الرباط

(الشاعر والملهمة)

59 — شعر

60 — الاستاذ محمد مفتاح : كلية الآداب — الرباط

(قراءة جديدة لغزل ابن زيدون)

61 — الدكتور عبد السلام الهراس : كلية الآداب — فاس

(ابن زيدون : الانا المفرطة)

— حفلة غداء تقيمها على شرف المدعوين وزارة التعليم العالي

مساء : من 4 الى 6

حفلة ختام بمسرح محمد الخامس

— حفلة يقيمها على شرف المدعوين السيد وزير الدولة المكلف بالاعلام

اليوم التاسع

الخميس 23 اكتوبر 1975

صباحا : ابتداء من الساعة 9

رحلة الى مدينة مراكش

المشاركون في المهرجان

الاســـم	العنـــوان	القطـر
د. محمد رضوان الداية	ابن زيدون محاولة لاعادة النظر في دراسة شخصيته وشعره	سوريا
د. عبد الجليل عبد الرضا الراشد	عصر ابن زيدون ، دراسة تاريخية	العراق
عبد الرزاق الهلالي	ولادة وابن زيدون	العراق
وليم الخازن	ابن زيدون في مقاييس الشعر العربي الجديد	لبنان
عبد العزيز الرفاعي	تلميحات شواهد ابن زيدون في رسالته الجدية	السعودية
محمد ابن تاويت	نظرة على ابن زيدون في شعره	المغرب
د. تمام حسان	شاعرية ابن زيدون في ضوء منهج مستحدث	مصر
محمد مفتاح	قراءة جدية لغزل ابن زيدون	المغرب
د. احسان عباس	بنو ذكوان وابن زيدون	لبنان
د. نقولا زيادة	الاندلس في عصر ابن زيدون	لبنان
د. وداد القاضي	بين الجاحظ وابن زيدون	لبنان
البير مطلق	مبنى الرسالة في نثر ابن زيدون وشعره	لبنان
عثمان الكعاك	بين ابن زيدون الاندلسي وبتراركة الايطالي	تونس
د. محمد عبد المنعم خفاجي	محنة ابن زيدون كما يصورها شعره	مصر
د . محسن جمال الدين	صورة ابن زيدون في الادب العربي	العراق
عبد الله الطيب	من غريب ابن زيدون	السودان
مصطفى الشكعة	قراءة مستأنية لنثر ابن زيدون	مصر
د. عبد العزيز سالم	تحقيق اسماء قصور بني عباد الواردة في شعر ابن زيدون	مصر

القطر	العنوان	الاسم
مصر	الايقاع الموسيقي في شعر ابن زيدون	د. شوقي ضيف
فرنسا	من أبي عثمان الى ابن زيدون	شارل بيلا
المغرب	تيار خفي في شعر بأن زيدون	د.عبد اللطيف السعداني
لبنان	أثار ولادة في حياة ابن زيدون	سلمى الكزبري
مصر	أثار ابن زيدون في الادب العربي	د. علي عبد العظيم
الاردن	ليس في شعر ابن زيدون	د. ناصر الدين الأسد
مصر	الجانب السياسي في حياة ابن زيدون	د. خالد الصوفي
العراق	المختار من شعر شعراء الاندلس لابن الصيرفي	هلال الناجي
مصر	الشاعر والملهمة	د. عائشة عبد الرحمن
المغرب	ابن زيدون الشاعر الفيلسوف	عبد العزيز بن عبد الله
العراق	ابن زيدون السفير الوسيط	عبد الرحمن علي حجي
المغرب	ابن زيدون وزيرا وسفيرا	عبد الهادي التازي
المغرب	ابن زيدون شاعر الاندلس ـ صورة تحليلية	محمد الكتاني
المغرب	فنية التعبير في شعر ابن زيدون	د. عباس الجراري
العراق	دور ابن زيدون السياسي والدبلوماسي في الاندلس في عصر ملوك الطوائف	د. محمد حسين الزبيدي
المغرب	الرياض والزهور والنسائم في شعر أبي الوليد	محمد العربي الخطابي
اسبانيا	انعكاسات شعر ابن‌زيدون على عصره	رودلفو خيل‌ب غريماو
فرنسا	ابن زيدون وبنو الأفطس	راشيل أريي
المغرب	ابن زيدون الأنا المفرطة	د. عبد السلام الهراس
العراق	ابن زيدون وتراثه في المخطوطات العربية	د . عبد الله الجبوري

الاسم	العنوان	القطر
محمد أحمد المحجوب	الفردوس المفقود (شعر)	السودان
صالح جودت	ابن زيدون (شعر)	مصر
عاتكة الخزرجي	في تحية ابن زيدون (شعر)	العراق
عزيزة هارون	ابن زيدون (شعر)	سوريا
عبد الله الخليلي	ذكرى ابن زيدون (شعر)	سلطنة عمان
سعيد خلف الخروصي	ذكرى ابن زيدون (شعر)	سلطنة عمان
سليمان خلف الخروصي	ذكرى ابن زيدون (شعر)	سلطنة عمان
عبد الكريم الطبال	بكائيات قرطبة (شعر)	المغرب
نذير العظمة	ابن زيدون ومرايا الزمن (شعر)	سوريا
صالح الأشتر	في ظلال ابن زيدون (شعر)	سوريا
حسن الطريبق	اغنية الذكرى (شعر)	المغرب
محمد بهجة الأثري	ذكرى ابن زيدون في « عكاظ »	العراق
عبده بدوي	حوار مع ابن زيدون (شعر)	مصر
علي الصقلي	رسالة أو ... جواب (شعر)	المغرب
مفدي زكريا	ابن زيدون بين العظمة والحب	الجزائر
عدنان مردم	ابن زيدون شاعر الحب والطبيعة (شعر)	سوريا
حسن كامل الصيرفي	بحتري المغرب	مصر
العوضي الوكيل	الى ابن زيدون من وراء السنين (شعر)	مصر
احمد دحبور	مع ابن زيدون وليلته الاولى في قرطبة	فلسطين
خالد ابو خالد	من وحي عكاظ الاندلس ومعركة الصحراء (شعر)	فلسطين
د. مختار الوكيل	المغرب الكبير (شعر)	مصر

الاسم	العنوان	القطر
حسن عبد الله القرشي	شاعر من عبقر (شعر)	السعودية
عمر بهاء الدين الاميري	الوان من وحي المهرجان (شعر)	سوريا
صالح الأشتر	ولادة ملهمة (شعر)	سوريا
عبد الله بن محمد	ابن زيدون المجدد (شعر)	السعودية
حسن كامل الصيرفي	اسراء شاعر	مصر
جعفر ماجد	ابن زيدون (شعر)	تونس
هلال ناجي	لقاء الطيوف (شعر)	العراق
نور الدين صمود	المغرب العربي (شعر)	تونس

الشاعر عمر أبو ريشة في المغرب

خلال الزيارة التي قام بها الشاعر السوري المعروف الاستاذ عمر ابو ريشة بمناسبة أعياد الشباب ، نظمت له وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية ، امسية شعرية بقاعتها ، ألقى فيها الشاعر منتخبات من قصائده، كما ألقى قصيدة جديدة كتبها بمناسبة هذه الاعياد بعنوان « دنيا المغرب» اعجب بها الحاضرون اعجابا كبيرا .

الشاعر عمر أبو ريشة يحظى بوسام الكفاية الفكرية

وفى مستهل هذه الامسية الشعرية ، طوق السيد وزير الدولة المكلف بالشؤون الثقافية الاستاذ السيد الحاج امحمد ابا حنيني عنق الشاعر بوسام الكفاية الفكرية ، الذي انعم به عليه جلالة الملك الحسن الثاني ، كما ألقى سيادته كلمة أدبية رقيقة رحب فيها بالشاعر ، منوها بمكانته الشعرية التي يحتلها فى عالمنا الشعري .

ونثبت فيما يلي نص كلمة السيد الوزير :

كلمة السيد الوزير

بســـم اللــه الرحمـــن الرحيـــم

ما صاحبتك أيها الاخ الفذ الى هذه المنصة طلبا للشرف الذي ينال عادة بتقديم فطاحل البيان وأكابر الادباء واعلام الشعراء ، فما أنت ، وقد ذاع صيتك وعلا شأنك وامتد جاهك وجاس شعرك غازيا ومتيما خلال مشارق الارض ومغاربها ، من الشعراء الذين نشعر نحوهم بواجب اضفاء الفضل من التعريف والتقديم والمزيد من الاشادة والتنويه ولكنني رافقتك الى هـذه المنصة لأقوم بأحب الواجبات واعرب عن أبلغ المســرات وازف اليــك أخلص وأصدق التهاني وأسأل الله ان يوالى لك النعم والآلاء ويسنى لك بلوغ ما تصبو اليه من رجاء .

لقد تفضل صاحب الجلالة الحسن الثاني وهو من نعلم جميعا حبــه للادب والادباء واهتمامه بالثقافة والمثقفين وتمجيده وتكريمه للملهمين من الكتاب والشعراء والفنانين فعهد الى بان أحيط عنقك بطوق الكفاية الفكرية تقديرا منه أمد الله رعايته لما حشد الله فى رحاب قلبك من ثراء وزان به عقلك من نفاذ وذكاء واشاع فى بيانك من لألاء ورواء ، واني لسعيد أهنأ ما تكون السعادة ومعتز أشد ما يكون الاعتزاز بان يناط بـــي شرف هـــذا التكليف ويسدي الي هذا الصنيع .

كان الامل وطيدا منذ زمن بعيد أن تتصل الاسبــاب بيننا وبينـــك اتصال المشاهدة عيانا والمحادثة التى تستغنى عن وساطة الخيال وشفاعة التفكير والاستحضار ، وها هو الامل الذى طالما راود وداعب يتجسم فى شخصك حقيقة ماثلة تقر العين وتثلج الصدر وتصدق الاحلام .

وفدت ايها الاخ على هذا البلد الذى تصلك به اوثق الصلات ، وتشدك اليه أمس القرابات بعد ما ضربت فى الافاق وتمليت محاسن الدنيا واستمتعت بعجائب الامصار وهمت ببدائع القلوب والافكار واختزنت بين جوانحك الجم الغفير من كريم الاحاسيس وصببت ماتصباك فى اقدر الكلمات على البيان واقوى صور الابداع والابتكار امتلاكا للافئدة والمسامع وادعاها الى الاعجاب والاكبار .

انك ولا ريب شاعر مجيد وانك بلا مراء ولا جدال شاعر فحل وانك الى هذا وذاك شاعر عملاق ، اجتباك الالهام واصطفتك عرائس الشعر ولازمك وتقصاك حيثما وقعت خطاك وسامت عيناك توابعه وزوابعه .

ولكن هذه ألاوصاف على تعددها واختلافها لا تبلغ كنه ما انت ولا تصل الى حقيقة الجوهر المكنون فانت كل هذا وغيره مما يتعذر على البيان وما ذلك الا العبقرية التى تستعصى على التعريف والتحديد يسهل القول أنها احسن الاشياء طرا ويعسر التحديد

لا أريد أيها الاخ الاعز الامجد ان أطيل عليك ولا اريد ان اطيل على الموكلين بفنك المولعين ببيانك الذين يتعشقون ما ابدعت من افانين الجمال كما تتعشق المرأة الحسناء ، فما صاحبتك الى هذه المنصة لا تحدث عنك الى المعجبين بك ولكن لاسلم اليك بعد رمز التقدير الملكى زمام القول لانك اولى من غيرك بتقديم نفسك للناس واقدر من غيرك على الرسم والتصوير .

الشاعر عمر أبو ريشة يرد على خطاب السيد الوزير

أصحاب المعالي :

سادتي :

يسعدني كل السعادة ، ان أجتمع هذا المساء اليكم ، الى هذه النخبة

الخيرة الى هذه الوجوه السمحة الكريمة ، في هذا الجزء من وطني العربي الكبير ، في المغرب الغالي الذي زودني خلال اقامتي القصيرة فيه بذكريات لم يبل لها روعة ، ولم يهدأ اليها جنين . كدت ان أتقدم بالشكر الى السيد الاول ، صاحب الجلالة على الرعاية التي احاطني بها ، على الوسام الذي احمله ، أزفه خير بشري لأولادي واحفادي من بعدي الى ذلك الاكرام الذي الوزير الخطيب ، السيد أبا حنيني . قلت ، كدت أتقدم بالشكر للتعبير عن غمرني به اخواني المغربيون وفي طليعتهم الاديب الكبير ، العالم الجليل ، عاطفتي ولكنني تذكرت ، انني ما رأيت شاعرا من قبل ، وقف ليشكر الروض على زهره او الزهر على عطره ، فحسب العاطفة ان تعرف ، لا ان توصف ، وحسب الشكر ان يعيش في قرارة الوجدان لا ان يموت على أضلاع الحروف ، سمعتم كما سمعت منذ دقيقة او دقيقتين ، تلك الكلمة التي خصني بها السيد الوزير وطلب فيما طلب ، ان أقدم نفسي بنفسي اليكم ، ان ما قاله عني لأشبه بصورة جميلة كم تمنيت وانا اتأمل فيها لو كنت لونا من الوانها او ظلا من اظلالها ، وبما ان سيادته سمح لي او على التأكيد طلب مني ان اقدم نفسي بنفسي اليكم ، فاسمحوا لي ان انتقي الصورة التي مثلت فيها نفسي .



ومن ثم ، مضى الشاعر يقدم نفسه بنفسه من خلال القاء مختلف القصائد التي تعبر عن ذكرياته الحافلة بالحب والجمال والابداع ، بأسلوب قصصي جذاب ، وشعر طريف أخاذ ، الى ان انتهى به المطاف في الاخير الى القاء قصيدة جديدة كتبها عن المغرب بعنوان « دنيا المغرب » اثبتناها في مطلع هذا العدد

حفلة تكريم على شرف الشاعر

إقام وزير الدولة المكلف بالشؤون الثقافية مأدبة عشاء تكريما للشاعر الكبير بمناسبة انعام صاحب الجلالة عليه بوسام الكفاية الفكرية ، حضرها بعض الوزراء ، ورجال السلك الدبلوماسي ، ومجموعة من الادباء

والمثقفين . وقد القى الشاعر على الحاضرين فى هذه السهرة منتخبات من اشعاره ، كانت تقابل بالاعجاب والتقدير ، كما تخللتها احاديث عن الادب والشعر ، وذكريات الشاعر فى البلدان التي زارها ، او كان فيها سفيـــرا لبـــــلاده .

المعرض السابع
لجائزة الحسن الثاني للمخطوطات والوثائق العامة والوثائق المتعلقة بالصحراء المغربية لسنة 1975

نظمت وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية ببهوها معرضا عرضت فيه جميع الوثائق والمخطوطات الفائزة فى هذه السنة بهذه الجائزة ، وقام السيد وزير الدولة المكلف بالشؤون الثقافية بافتتاح هـذا المعرض الذى حضره بعض الوزراء ، والسفراء ، ورجال البحث والدرس ، واساتـــذة مختلف الكليات والمعاهد ، الى جانب عدد مـن انشخصيات الثقافيـــة والفكرية . ودام هذا المعرض مفتوحا عشرة أيام .

معارض الكتب

قامت الوزارة بتنظيم معارض للكتب ببهوها :

1) معرض للكتاب الصحراوى وقد عرض فيه جميع ما الف حديثا عـــن قضية الصحراء المغربية وبقية الاراضي المغتصبة .

2) معرض القصة والمسرح وقد عرض فيه احدث القصص فى المغرب والشــرق العربــي .

3) معرض الكتاب القانونى المغربى وعرض فيه جميع ما كتب عن التشريع المغــربــي .

4) معرض لكتب الاطفال وذلك بمناسبة عيد الطفولة الذى اقامته الوزارة بالمناسبة ووزعت العدد الاول من مجلة مناهل الاطفال على الاطفال المشاركين فى الاحتفال وقد حضر منهم الجم الغفير . وكذا عدد من المهتمين بادب الاطفال .. وقد دام هذا المعرض شهرا كاملا .

5) معرض اقيم بمناسبة الاحتفال بالذكرى الالفيــة لميــلاد الشاعــر ابن زيدون وهو معرض ضم مصادر ومراجع عربية واجنبية عــن شخصية ابن زيدون وعصره وشعره وآثاره

حول المؤتمر العالمي للمرأة

فى محفل عالمي لم يسبق له مثيل فى تاريخ المــرأة ، اجتمعــت بالمكسيك وفود اغلبها من النســاء تمثل من دول العالم خمسة وثلاثيــن ومائة ، عدا المنظمات الحرة العالمية ، وحركات التحرير فى افريقيا وآسيا .

كان ذلك من 19 / 6 / 75 الى 2 / 7 / 75 حيث اجتمعت ستــة آلاف من المختصات والمختصين فى مختلف المجالات ، وعدد من النساء المرموقات ممن يقمن بدور فعال فى تسيير دواليب الحكم فى أوطانهــن

كالسيدة « باندار لا ـ » رئيسة حكومة سيلان ، او ممن سجلن فى مجال التقدم العلمي التقني خطوة جريئة كالسيدة « فالنتينا بريشكوفا »،رائدة الفضاء السوفياتية . وكان من المتوقع أن تحضر رئيسة حكومة الهند السيدة « انديرا غاندى » غير أن احداثا سياسية طارئة بالهند ، عاقتها عن الحضور ، فاعتذرت ببرقية محيية المؤتمر ومباركة جهوده .

وانعقد المؤتمر المذكور ، بدعوة من الجمعية العامة للامم المتحدة ، قصد دراسة خطة عالمية ، تدفع بالمراة الى المساهمة فى عملية التنمية وافساح المجال لها ، لتقوم بدور فعال فى اتخاذ القرارات فى مختلف المجالات السياسية والتعليمية والصحية ، وذلك باعداد خطة من شأنها ان تغير نظرة المجتمعات الى المراة .

وقد ضم الوفد المغربى مجموعة مرموقة من السيدات المغربيات اللواتي اظهرن اخلاصا كبيرا ووعيا بقضايا المراة الحقيقية ، فتابعن اعمال المؤتمر ، وحرصن على اسماع صوتهن سواء فى اللجن ، او الجمع العام ، وساهمن مساهمة ايجابية في ادخال تعديلات على مشاريع القرارات التي طرحت للمناقشة ، خصوصا فيما يتعلق بادماج المرأة فى المجتمع ، مع اعتبار الاوضاع الخاصة لكل شعب ، وطبقا لمقوماته الدينية والوطنية.

وقد اوفدت وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية عنها ، السيدة حبيبة البورقادية ، رئيسة مصلحة التنشيط الثقافي ، التي سجلت بارتياح كبير التضامن الذي تم اثناء المؤتمر بين الدول الافريقية والعربية، وسائر قوى التحرر فى العالم ، باتخاذها موقفا موحدا تجاه قضايا التحرر واستكمال وحدة التراب والمحافظة على الحدود الطبيعية لأي شعب من الشعوب ، وكان ذلك مناسبة لطرح الوفد المغربي لقضية الصحراء المغربية

وباقى اراضى المغرب ، التى ما زالت ترزح تحت نير الاستعمار ، مشيرة الى ان اي استعمار من هذا القبيل ، يشكل خطرا على البشر وتهديدا للسلام العالمي .

وقد قدم الوفد المغربي بيانات وعروضا مستفيضة سواء داخل اللجان ، أو في كواليس المؤتمر ، وصودق باجماع داخل اللجان على احترام الوحدة الترابية لاى شعب من الشعوب ، وعدم التدخل في الشؤون الداخلية منها .

إحتفال وزارة الثقافة بأسبوع الطفولة

بمناسبة اسبوع الطفولة الذي يوافق عيد ميلاد ولي العهد المحبوب ، صاحب السمو الملكي الامير الجليل سيدي محمد ، نظمت وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية بقاعتها حفلا ترفيهيا دعت الى حضوره مجموعة كبيرة من اطفالنا اشتمل على :

— لوحات فنية قدمها مسرح العرائس .

— أهازيج شعبية .

— فكاهات متنوعة .

وبهذه المناسبة أهدت وزارة الدولة الكلفة بالشؤون الثقافية لكل طفل نسخة من مجلة « مناهل الاطفال » .

وذلك فى مساء يوم الخميس 19 شعبان 1395 الموافق 28 غشت 1975 .

مناهل الأطفال

صدر عن وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية ، العدد الاول من مجلة « مناهل الاطفال » : مشتملا على اناشيد ، وقصص ، واشعار ، وحكايات ، وموضوعات تثقيفية تهذيبية طريفة مشوقة ، من شأنها ان تنمي مدارك الاطفال ، وتقوي فيهم ملكة المطالعة ، وتهذب أذواقهم ، وتخصب خيالهم وعواطفهم ، فى عالم من الجمال ، والفن والخير ، والاحساس الرفيع النبيل .

وقد كان لصدور هذا العدد ، صدى استحسان من جانب الآباء والابناء فاستقبلوه بالمسرة والغبطة والابتهاج ، كما سجل نجاحا فى الميدان التربوي ، باعتباره أول مبادرة من نوعها فى المغرب ، قامت بها هذه الوزارة فى سبيل الطفولة المغربية التي تشكو الفراغ فى هذا المضمار .

وقد زين هذا العدد بصورة صاحب السمو الملكي ولي العهد الامير المحبوب سيدي محمد ، كما يحتوي العدد على مجموعة كبيرة من الصور الملونة المفيدة ثقافيا ، موزعة على حسب موضوعاتها .

مؤتمر مديرى الآثار بالقاهرة

انعقد بالقاهرة فى الفترة ما بين 24 اكتوبر الى 31 منه اجتماع مديرى الآثار والمتاحف فى البلاد العربية ، المنبثق عن مؤتمر ابى ظبى ، وقد أوفدت وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية نائبا عنها فى هذا الاجتماع السيد مصطفى اوعشى المحافظ المساعد للمتحف الاثرى بالرباط .

ندوة حول الدراسات الثقافية في إفريقيا

دعت منظمة اليونسكو الى عقد مؤتمر للدراسات الثقافية فى افريقيا، وذلك بأكرا عاصمة غانا من 28 اكتوبر الى 6 نونبر 1975 ، وشاركت وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية فى هذا اللقاء بوفد يتكون من :

السيدة نعيمة الخطيب بوجيبار : مندوبة وزارة الدولة المكلفة بالشـؤون الثقافية بالدار البيضاء .

السيد محمد الصفار : رئيس مصلحة التشريع بوزارة الثقافة .

وذلك حرصا من وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية علـى ان يكون المغرب حاضرا فى جميع المؤتمرات والندوات التى تعقـد خارج الوطـن .

بلاغ من وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية حول جائزة المغرب لسنة 1975

تعلن وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافيه عن جائـزة المغـرب لسنة 1975 التي صدر بشانها فى الجريدة الرسمية عدد 3230 بتاريـخ 25 / 9 / 1974 ، قرار يحمل رقم 75.474 بتاريخ 17 شعبـان 1394 (5 شتنبر 1974) ، وتشتمل جائزة المغرب على ثلاثة اصناف :

الصنف الاول :

ا ــ جائزة المغرب للعلوم الانسانية والاجتماعية وتشتمل على :

1) الفلسفة والدين والاخلاق وعلم النفس وعلوم التربية .

2) علم الآثار القديمة والتاريخ والجغرافية البشرية والجهوية .

3) علم الاجتماع والانتربولوجيا والاتنوغرافيا والفلكلور وعلم الموسيقى

4) العلوم القانونية والعلوم السياسية والعلوم الاقتصادية والعلوم الادارية .

الصنف الثاني :

ب ـ جائزة المغرب للعلوم الرياضية وتشتمل على :

1) الرياضيات وعلم الفلك .

2) الفيزياء والكيمياء .

3) البيولوجيا والطب .

4) علم الحيوانات وعلم النباتات والعلوم الزراعية .

5) علم طبقات الارض (الجيولوجيا) والهندسة المدنية .

الصنف الثالث :

ج ـ جائزة المغرب للفنون والآداب وتشتمل على :

1) المسرح والشعر .

2) القصة والمقالة .

3) النقد .

4) التراجم والتحقيقات الصحافية والرحلات .

5) الفنون التشكيلية والفنون التقليدية .

وقد حدد مبلغ كل جائزة من الاصناف الثلاثة الآنفة الذكر بـ13.000 درهم تمنحها لجنة مؤهلة وخاصة بكل صنف من الاصناف المذكورة أعلاه ، كما حدد عدد المؤلفات التي يمكن إن يجازى عنها سنويا فى مؤلف واحد لكل صنف من الجوائز ، ولا يجوز منح هذه الجائزة لعضو من اعضاء لجنة التحكيم او تخويلها مرة ثانية لنفس الكاتب الذي احرز عليها الا بعد مضي 5 سنوات .

ويجب على المرشحين لهذه الجائزة ان يراعوا الشروط الآتية :

1) أن يكونوا مقيمين بالمغرب منذ سنة واحدة على الاقل او ان يكونوا غادروه بعد ان اقاموا فيه بالفعل مدة سنتين على الاقل بدون انقطاع.

2) أن يقدموا مؤلفات لم يسبق طبعها أو نشرت منذ اربع سنوات فى 31 دجنبر من سنة « الجائزة » على ابعد تقدير .

ويجوز للمرشح ان يقدم على الاكثر مؤلفين اثنين من صنف واحد او ثلاث مؤلفات من أصناف مختلفة .

ويجب عليهم ان يوجهوا طلبا بترشيحهم الى السيد وزير الدولة المكلف بالشؤون الثقافية بصفته رئيسا للجنة التحكيم وأن يضمنوا طلبهم:

خمس نظائر مطبوعة اذا كان المؤلف قد سبق نشره او خمسة نظائر مكتوبة بالآلة الكاتبة اذا كان المؤلف لم يسبق طبعه ، وتبقى النظائر الخمسة المطبوعة او المكتوبة بالآلة الكاتبة كسبا للوزارة المكلفة بالثقافة .

نسخة موجزة من عقد الولادة ، وشهادة تسلمها السلطة الادارية المختصة تثبت توفر شروط الاقامة المذكورة سابقا .

نسخة من سجل السوابق العدلية .

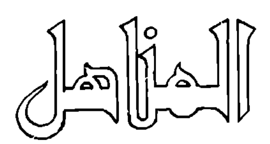
كما يمكن ان يتم تقديم اقتراح لفائدة مؤلف لم يرشح نفسه او لفائـدة ارملة مؤلف هالك او لأيتامه القاصرين . ويجب ان يكون هـــذا الاقتراح مضمنا فى رسالة مكتوبة ومدعما باسباب ومشفوعا بايداع نظائــر المؤلف كما سبقت الاشارة اليه ، ويؤهل أعضاء اللجنة التحكيمية وحدهم لتقديـم اقتراحات من هذا القبيل .

ويقفل باب الترشيح يوم الخميس 16 ذو القعدة 1395 الموافق 20 نونبر 1975 فى الساعة السادسة مساء .



الفهرس


مطبعة فضالة

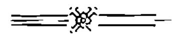


تصـــدرهــــــا :

وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافيـــة

زنقة غاندي ــ الرباط ــ المغــرب

التليفون : 318.91 / 92 / 93



AL - MANAHIL

Publication du
MINISTERE D'ETAT CHARGE DES AFFAIRES CULTURELLES

Rue Ghandi - Rabat (Maroc)
Tél. : 318-91/92/93

مطبعة فضالة ــ المحمدية (المغرب)



ثمن النسخة : 2،50 د .